سلسلة مؤلفات السيد الدياجي المطبوعة

(٤٣)

نفحات الرحمن في منازل العرفان

دروس عرفانية ألقاها سماحة

السيد أبو القاسم الدياجي

دام ظله الوارف

الجزء الثاني

(المنزل ٢١ - المنزل ٣٥)

من ١٠٠٠ منزل


بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات الرحمن

في

منازل العرفان

دروس عرفانية ألقاها سماحة

السيد أبو القاسم الديباجي

دام ظله الوارف

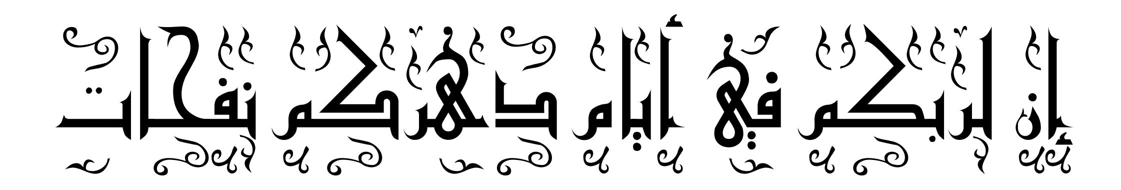
الجزء الثاني

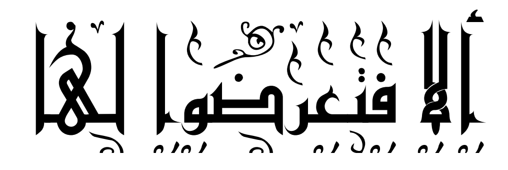
(المنزل ٢١ – المنزل ٣٥)

من ١٠٠٠ منزل

عن سيد المرسلين

محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم





عن قطب العارفين

أمير المؤمنين عليه السلام

العلم نهر

والحكمة بحر

والعلماء حول النهر يطوفون

والحكماء وسط البحر يغوصون

والعارفون في سفن النجاة يسيرون

صورة الإجازة الروائية والعرفانية التي كتبها العالم الرباني والحكيم الإلهي سماحة آية الله العلامة الشيخ حسن زاده الآملي لسماحة السيد أبي القاسم الديباجي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ألهمنا حقائق الإيمان، وهدانا إلى جنابه بنور العلم والعرفان، ودعانا إلى مأدبته القرآن الفرقان؛ والصلوة والسلام على أفصح من نطق بالضاد، المخاطب بقوله سبحانه: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً»، وعلى آله عيبة وحيه وغيبه.

أما بعد فيا أيها الإنسان إنما أمرك الأهم أن تنال غاية القصوى التي هي التخلق بأخلاق الله والاتصاف بأوصافه، وحيث كنت قابلاً للاعتلاء إلى جنابه دعاك في عدة مواضع من كتابه الكريم بقوله القويم: «تعالوا». وقد قال عز من قائل: «ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون»، «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم»، «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق»، «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة».

أما سمعت ما أفاضه أسوة العارفين وقدوة المتألهين إمام الكل في الكل أمير المؤمنين علي الوصي المرتضى عليه السلام: «مغبون من ساوى يوماه»؟؛ على أنك لم تك شيئاً مذكوراً وبعد ذلك كنت نطفة قذرة لا تعلم شيئاً والآن أنت ذو أجنحة من القوى الباطنة والظاهرة، قابل للارتقاء إلى معارج القدس والطيران إلى حظائر الأنس فتنبه واستعد لأمدك الأبدي.

ثم اعلم - أصلحك الله تعالى مكنون سريرتك وفتح عين بصرك وبصيرتك - أنه لا بد للنفوس الشيقة إلى الكمال من فاتح مفخم يهديها ويرقيها إليه، وإني أوصي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يغتنم الفرصة بالاستفاضة والاستضاءة من الأستاذ النبيل الحائز لمنقبتي العلم والعمل أعني به العبد المتقي النقي سماحة العالم الجليل الناجي حجة الإسلام السيد أبي القاسم الديباجي - أيده الله بإفاداته السبوحية - لإيصال تلك النفوس الكريمة إلى ما يليق بها من التوحيد الصمدي الذي هو قرة عيون العارفين ويرزق به الأبرار على ما بينه الكشف الأتم المحمدي بقوله الثقيل: «وسقاهم ربهم شراباً طهوراً»، وبينه إمام الملك والملكوت، كشاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق ببيانه القويم كما في مجمع الطبرسي: «أي يطهرهم عن كل شيء سوى الله إذ لا طاهر من تدنس بشيء من الأكوان إلا الله».

ثم أجزته - زيد مجده ودام وجده - أن يروي عني ما صحت لي روايته من كتب أصحابنا الحديثية والدعائية. وهذه صورة شجرة طوبى الطيبة الروائية التي بها أباهي وأبتهج من حيث انتسابي إلى حملة العلم رواة أحاديث آل طه ويس:

فإني أروي الصحيفة الكاملة السجادية الملقبة بزبور آل محمد وإنجيل أهل البيت، وجميع روايات

المعصومين عليهم السلام - عن شيخي واستاذي ابي الفضائل معلم العصر العلامة ذي الفنون المفرد في جمع العلوم الزاهد الذي عزفت نفسه عن الدنيا وما فيها فتساوى عنده حجرها وذهبها، آية الله الكبرى الحاج الميرزا ابي الحسن بن المولى محمد بن المولى غلام حسين بن المولى ابي الحسن الطهراني، الشهير بالعلامة الشعراني - أفاض الله تعالى علينا من بركات أنفاسه النفيسة القدسية، عن الشيخ العالم الفقيه المحدث الرجالي الشيخ محمد محسن الطهراني صاحب الذريعة، عن المحدث الماهر متتبع حفظة المتأخرين الحاج الميرزا حسين النوري، عن العالم المتفقه المتبحر جامع العلوم العقلية والنقلية الشيخ عبد الحسين الطهراني، عن استاذ الفقهاء المتأخرين الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، عن السيد الفقيه المتبحر السيد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة، عن شيخ الاسلام المشتهر بالوحيد الآغا محمد باقر البهبهاني، عن والده محمد الأكمل، عن المحدث البارع المتبحر محمد باقر المجلسي صاحب بحار الانوار، عن السيد الأديب اللغوي الفاضل والحكيم الكامل جامع الفضائل السيد عليخان المدني الهندي الشيرازي، عن الشيخ الفاضل الشيخ جعفر بن كمال الدين البحراني، عن الشيخ الفاضل الشيخ حسام الدين الحلبي، عن الشيخ الأجل خاتمة المجتهدين وبحر العرفان واليقين الشيخ بهاء الدين العاملي بالإسناد الذي نصه في اول كتابه الأربعين - رضوان الله تعالى عليهم اجمعين.

وأيضا برواية صاحب البحار المجلسي عن العالم الجامع بين العقل والعرفان والنقل والوجدان والرواية والدراية مولانا محمد محسن الفيض الكاشاني صاحب الجامع الوافي عن استاذه استاذ الحكماء والفلاسفة صدر المتألهين محمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي الشهير بصدر المتألهين صاحب الأسفار، عن الشيخ المحقق بهاء الدين العاملي، عن والده العالم البارع حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي، عن السيد حسين بن جعفر الحسيني الكركي، عن الشيخ الجليل علي بن عبد العالي الميسي، عن الشيخ الامام شمس الدين الجزيني المعروف بابن المؤذن، عن الشيخ ضياء الدين علي، عن والده السعيد شمس الدين محمد بن مكي المعروف بالشهيد - قدس الله اسرارهم الزكية - والإجازات تنتهي نوعا الى الشهيد السعيد محمد بن مكي - رضوان الله تعالى عليه.

وايضا برواية صدر المتألهين الشيرازي عن السيد المحقق أعلم المتأخرين جامع فضائل المتقدمين السيد محمد باقر المعروف بالداماد صاحب القبسات، عن الشيخ العالم الفقيه المتبحر عبد العالي بن علي الكركي، عن والده الشيخ المحقق مروج المذهب علي بن عبد العالي الكركي، عن الشيخ علي بن هلال الجزائري، عن الشيخ الفقيه الزاهد ابي العباس احمد بن محمد بن فهد الحلي الأسدي، عن الشيخ الفاضل مقداد السيوري، عن مشايخه الى الأئمة المعصومين عليهم السلام.

وكذلك قد أجزته - دامت بركاته الوافرة - أن يروي عني ويفيض [illegible] على سبيل النجاة من النفوس الزكية المستعدة ما أفاض الله على مشايخي في المعارف الالهية من الآيات العظام العلامة المحقق السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب تفسير الميزان، واخوه العلامة المحقق السيد محمد حسن الطباطبائي، والعلم الزاخر الحاج الشيخ محمد تقي الآملي رفع الله درجاتهم - وكان هؤلاء المشايخ من اكابر المستفيدين من صاحب المقامات العالية والكرامات الباهرة العلامة [illegible] الحاج السيد علي القاضي التبريزي، وهو من العلم [illegible] السيد احمد الكربلائي، وهو من آية الله الكبرى الآخوند المولى حسينقلي الهمداني، وهو من آية الله العظمى الحاج السيد علي الشوشتري الذي ادرك المولى علي الجولاني على التفصيل الذي حررته في بعض مصنفاتي - قدس الله اسرارهم ونفعنا ببركات انفاسهم القدسية. ثم الملتمس من جناب المولى المكرم الدرباجي المحترم أن لا ينساني من الدعاء في مواطن الإجابة. وقد حرره بيمناه الداثرة الاحقر: الحسن بن عبد الله بن الحسن

الإجازة الروائية والعرفانية التي كتبها العالم الربّاني والحكيم الإلهي سماحة آية الله العلامة الشيخ حسن زاده الآملي لسماحة السيد أبي القاسم الديباجي في الثاني والعشرين من شهر جمادى الثانية عام ١٤١٩ هجرية في قم المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ألهمنا حقائق الإيمان، وهدانا إلى جنابه بنور العلم والعرفان، ودعانا إلى مأدبته القرآن الفرقان، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد، المخاطب بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾، وعلى آله عيب وحيه وغيبه.

أما بعد، فيا أيها الإنسان إنما أمرك الأهم أن تنال غايتك القصوى التي هي التخلق بأخلاق الله والاتِّصاف بأوصافه، وحيث كنت قابلا للاعتلاء إلى جنابه دعاك في عدة مواضع من كتابه الكريم بقوله القويم: ﴿تَعَالَوْا﴾، وقد قال عزَّ من قائل: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ....﴾، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ....﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ....﴾.

أما سمعت ما أفاضه أسوة العارفين وقدوة المتألهين إمام الكل في الكل أمير المؤمنين علي الوصي المرتضى عليه السلام: «مَغْبُونٌ مَنْ سَاوَى يَوْمَاهُ» ؟ على أنك لم تكن شيئا مذكورا وبعد ذلك كنت نطفة قذرة لا تعلم شيئا والآن أنت ذو أجنحة من القوى الباطنة والظاهرة قابل للارتقاء إلى معارج القدس والطيران إلى حظائر الأنس فتنبَّه واستعد لأمدك الأبدي.

ثم اعلم – أصلحك الله تعالى مكنون سريرتك وفتح عين بصرك وبصيرتك – أنما لابد للنفوس الشيِّقة إلى الكمال من فاتحٍ مُفهِمٍ يهديها ويرقيها إليه، وإني أوصي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يغتنم الفرصة بالاستفاضة والاستضاءة من الأستاذ النبيل الحائز بمنقبتي العلم والعمل أعني به العدل التقي النقي سماحة العالم الجليل الناجي حجة الإسلام السيد أبي القاسم الديباجي – أيده الله سبحانه بإلقاءاته السبّوحية – لإيصال تلك النفوس الكريمة إلى ما يليق بها من التوحيد الصمدي الذي هو قرة عيون العارفين ويرزق به الأبرار على ما بيَّنه الكشف الأتم المحمَّدي بقوله

الثقيـل: ﴿.... وَسَقَيهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾، وبيَّنه إمام الملك والملكوت كشّاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق ببيانه القويم كما في مجمع الطبرسي: «أي يطهِّرهم عن كل شيء سوى الله إذ لا طاهر من تدنُّسٍ بشيء من الأكوان إلاَّ الله».

ثم أجزته - زيد مجده ودام وجده - أن يروي عني ما صحَّت لي روايته من كتب أصحابنا الحديثية والدعائية، وهذه صورة شجرة طوبى الطيبة الروائية التي بها أباهي وأبتهج من حيث انتسابي إلى حملة العلم ورواة أحاديث آل طه ويس:

فإني أروي الصحيفةالكاملةالسجّادية الملقبة بزبور آل محمَّد وإنجيل أهل البيت، وجميع روايات المعصومين - عليهم السلام - عن شيخي وأستاذي أبي الفضائل، معلِّم العصر، العلاّمة ذي الفنون، المفرد في جميع العلوم، الزاهد الذي عزفت نفسه عن الدنيا وما فيها فتساوى عنده حجرها وذهبها، آية الله الكبرى الحاج الميرزا أبي الحسن بن المولى محمد المولى غلام حسين بن المولى أبي الحسن الطهراني الشهير بالعلاّمة الشعراني - أفاض الله سبحانه علينا من بركات أنفاسه النفيسة القدسيّة - عن الشيخ العالم الفقيه المحدّث الرجالي الشيخ محمد حسن الطهراني صاحب الذريعة، عن المحدّث الماهر، متتبّع حَفَظَة المتأخرين الحاج الميرزا حسن النوري، عن العالم المتفَقِّه المتبحر جامع العلوم العقلية والنقلية الشيخ عبدالحسين الطهراني، عن أستاذ الفقهاء المتأخرين الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، عن السيد الفقيه المتبحّر السيد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة، عن شيخ الأصوليين المشهور بالوحيد الآغا محمد باقر البهبهاني، عن والده محمد الأكمل، عن المحدّث البارع المتبحّر محمد باقر المجلسي صاحب بحار الأنوار، عن السيد الأديب اللغوي الفاضل والحكيم الكامل جامع الفضائل السيد علي خان المدني الهندي الشيرازي، عن الشيخ الفاضل الشيخ جعفر بن كمال الدين البحراني، عن الشيخ الفاضل الشيخ حسام الدين الحلبي، عن الشيخ الأجل خاتمة المجتهدين وبحر العرفان واليقين الشيخ بهاء الدين العاملي بالإسناد الذي نصَّه في أول كتابه الأربعين - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وأيضا برواية صاحب البحار المجلسي عن العالم الجامع بين العقل والعرفان والنقل والوجدان والرواية والدراية مولانا محمد محسن الفيض الكاشاني صاحب الجامع الوافي عن أستاذه أستاذ الحكماء والفلاسفة المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي الشهير بصدر المتألهين صاحب الأسفار، عن الشيخ المحقق بهاء الدين العاملي، عن والده العالم البارع حسين بن عبدالصمد الحارثي العاملي، عن السيد حسين بن جعفر الحسيني الكركي، عن الشيخ الجليل علي بن عبدالعالي الميسي، عن الشيخ الإمام شمس الدين الجزيني المعروف بابن المؤذن، عن الشيخ ضياء الدين علي، عن والده السعيد

شمس الدين محمد بن مكي المعروف بالشهيد - قدس الله أسرارهم الزكية -، والإجازات تنتهي نوعا إلى الشهيد السعيد محمد بن مكي - رضوان الله تعالى عليه.

وأيضا برواية صدر المتألهين الشيرازي عن السيد المحقق أعلم المتأخرين جامع فضائل المتقدمين السيد محمد باقر المعروف بالداماد صاحب القبسات، عن الشيخ العالم الفقيه المتبحر عبدالعلي بن علي الكركي، عن والده الشيخ المحقق مروّج المذهب علي بن عبدالعالي الكركي، عن الشيخ علي بن هلال الجزائري، عن الشيخ الفقيه الزاهد أبي العباس أحمد بن محمد بن فهد الحلّي الأسدي، عن الشيخ الفاضل مقداد السيوري، عن مشايخه إلى الأئمة المعصومين - عليهم السلام.

وكذلك قد أجزته - دامت بركاته الوافرة - أن يروي عني ويفيض على من هو متعلّم على سبيل نجاة من النفوس الزكيّة المستعدة ما أفاض عليّ مشايخي في العرفان العملي الآيات العظام العلامة الحاج السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب التفسير العظيم الميزان، وأخوه العلامة الحاج السيد محمد حسن الطباطبائي، والبحر الزاخر الحاج الشيخ محمد تقي الآملي - رفع الله درجاتهم -، وكان هؤلاء المشايخ من أكابر المستفيدين من صاحب المقامات العالية والكرامات الباهرة أعجوبة الدهر الحاج السيد علي القاضي التبريزي، وهو من العلم الآية السيد أحمد الكربلائي، وهو من آية الله الكبرى الآخوند المولى حسينقلي الهمداني، وهو من آية الله العظمى الحاج السيد علي الشوشتري الذي أدرك المولى قلي الجولا على التفصيل الذي حرّرته في بعض مصنفاتي - قدس الله أسرارهم ورزقنا بركات أنفاسهم القدسيّة.

ثم الملتمس من جناب المولى المكرم الديباجي المحترم أن لا ينساني من الدعاء في مواطن الإجابة، وقد حرّره بيمناه الداثرة الأحقر: «الحسن بن عبدالله بن الحسن الطبري الآملي المشتهر بحسن زاده آملي» في يوم الأحد الثاني والعشرين من شهر ج ٢ من سنة ١٤١٩ هـ ق = ٢١/ ٧/ ١٣٧٧ هـ ش، على هاجرها آلاف التحية والثناء.

حسن حسن زاده آملي

صورة الشهادة والعرفانية التي كتبها العالم الرباني سماحة آية الله العلامة الشيخ مجد الدين المحلَّاتي (قدِّس سرُّه) لسماحة السيد أبي القاسم الديباجي

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين

الحمد لله الذي قال عز اسمه في كتابه العزيز: إنما يخشى الله من عباده العلماء. والعالم من صرف عمره الشريف في تحصيل علم الدين وصار من حملة الفقه إلى المؤمنين فهو ذو درجة عند ربه الكريم.

فمن الذين فازوا بهذه الدرجة وهو موفق لهداية الناس إلى درجات الكمال والسير والسلوك إلى الله تعالى هو السيد السند والحبر المعتمد الحجة من الحجج عند الله تعالى فرضه على العباد حجة الإسلام وعز المسلمين والمؤمنين السيد أبو القاسم الدبياجي أيده الله تعالى ووفقه لمرضاته فهو من الذين صرفوا عمرهم في تحصيل علوم الفقه والأصول والدراية وجد واجتهد في سلوك مراتب العرفان في أيام شبابه وهو موفق لدرك محاضرات الأساتذة الكرام خصوصاً محاضرات العالم الرباني والسند العظيم للإسلام والمسلمين وفخر العرفاء والسالكين إلى الله تعالى وهو أستاذنا السيد العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس الله نفسه الزكية سنوات عديدة في حوزة قم المقدسة وكان يستفيد من محضره كمال الاستفادة ولله دره وعليه أجره.

فعلى المؤمنين الصالحين أن يغتنموا وجوده الشريف ويستفيدوا من محضره وآثاره من جهاته أن لا يحرموا من بركاته كما لا أنساه أنسانا الله وأن يستديم خدماته العالية للإسلام والمسلمين خصوصاً في الخيرات التي أسسها للأيتام. نسأل الله له أجراً جزيلاً وفضلاً عظيماً بحق محمد وآله الطاهرين.

Signature

١٢ شهر رمضان ١٤١٤

الشهادة العرفانية التي كتبها العالم الربّاني سماحة آية الله العلامة الشيخ مجد الدين المحلاَّتي (قُدِّس سرُّه) لسماحة السيد أبي القاسم الديباجي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

الحمد لله الذي قال عزَّ اسمه في كتابه العزيز ﴿....إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ....﴾، والعالم من صرف عمره في تحصيل علم الدين وصار من حملة الفقه إلى المؤمنين، فهو ذو درجة عند ربه الكريم.

فمن الذين فاز هذه الدرجة وهو موفَّق لهداية الناس إلى درجات الكمال والسير والسلوك إلى الله تعالى هو السيد السند والحبر المعتمد الحجة من الحجة عجَّل الله تعالى فرجه على العباد حجة الإسلام وعزُّ المسلمين والمؤمنين السيد أبو القاسم الديباجي أيَّده الله تعالى ووفَّقه لمرضاته، فهو من الذين صرفوا عمرهم في تحصيل علوم الفقه والأصول والدراية، وجدَّ واجتهد في سلوك مراتب العرفان في أيام شبابه وهو موفَّق لدرك محاضرات الأساتذة الكرام خصوصا محاضرات العالم الرباني والسند العظيم للإسلام والمسلمين فخر العرفاء والسالكين إلى الله تعالى وهو السيد العلاَّمة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس الله نفسه الزكية سنوات عديدة في حوزة المقدسة في قم، وكان يستفيد من محضره كمال الاستفادة ولله درُّه وعليه جزائه.

فعلى المؤمنين الصالحين أن يغتنموا وجوده الشريف ويستفيدوا من محضره، وأرجو من جنابه أن لا ينساني من دعائه كما لا أنساه إن شاء الله وأن يستديم خدماته العالية للإسلام والمسلمين خصوصا في الخيرات التي أسسها للأيتام، نسأل الله له أجر جزيل وفضل عظيم بحق محمد وآله الطاهرين.

مجد الدين محلاتي

١٤ شهر رمضان ١٤١٤ هـ



الحمد لله بما حمد به نفسه والصلاة والسلام على رسوله الأمين وخاتم المرسلين الذي بعثه رحمة للعالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

نستعرض طي الصفحات التالية نبذة مختصرة عن حياة معلم الأخلاق والعرفان العالم الجليل والأستاذ المحقق والمفكر الإسلامي سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد أبي القاسم الديباجي (دام ظله) والتي تشمل نسبه الشريف ومولده ودراساته وأساتذته الأجلاء وعرض مؤلفاته التي صدرت له والمؤلفات التي هي بصدد الإصدار ونشاطاته الدينية والعلمية والفلسفية.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يمده بعونه ويسدد خطاه لأداء رسالته ويوفقه إلى مناهج السداد ويهديه سبل الرشاد وينفع به الناس إنه ولي التوفيق.

الترجمة

حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد أبو القاسم الديباجي، ينتهى نسبه الشريف إلى جده السادس والثلاثين السيد الأغر محمد بن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام المعروف بالديباج وإلى العلامة الكبير النسَّـابة الخبير المروزي السيد إسماعيل بن الحسين الديباجي أبي البركات المشهدي رضـوان الله تعـالى عليه وهو من أعلام القرن السـادس الهجري ومؤلف كتاب أنسـاب آل أبي طالب وغيره من الكتب المعروفة العتيقة.

نسبه

السيد الحاج أبو القاسم الديباجي (١) ابن الحاج السيد نصر الله (٢) ابن الحاج السيد أحمد (٣) ابن السـيد محمد حسـين (٤) ابن السيد أحمد (٥) ابن السـيد مرتضى (٦) ابن السيد حسين (٧) ابن السيد زين الدين علي (٨) ابن السـيد محمد جعفر (٩) ابن السـيد محمد محسـن (١٠) ابن السـيد محمد سعيد (١١) ابن السـيد عبد الكاظم (١٢) ابن السـيد عبد الرضا (١٣) ابن السـيد علي (١٤) ابن السيد بابا (١٥) ابن السـيد أحمد (١٦) ابن السـيد بابا (١٧) ابن السـيد ركن الدين (١٨) ابن السيد جمال الدين (١٩) ابن السـيد علي (٢٠) ابن السـيد حمزة (٢١) ابن السيد إسـماعيل (٢٢) ابن السيد محمود (٢٣) ابن السـيد محمد (المعروف بجمشـيد) (٢٤) ابن السيد إسماعيل أبي البركات الحسيني المشهدي (٢٥) ابن السيد حسين (٢٦) ابن السيد محمد (٢٧) ابن السيد حسين (٢٨) ابن السيد أحمد (٢٩) ابن السيد محمد (٣٠) ابن السيد عزيز (٣١) ابن السيد حسين (٣٢) ابن السيد محمد الأطروش (٣٣) ابن السيد علي (٣٤) ابن السيد حسين (٣٥) ابن السيد علي (٣٦) ابن السيد محمد الديباج (٣٧) ابن الإمام أبى عبدالله جعفر الصادق عليه السلام ابن محمد بن علي ابن حسين ابن علي بن أبي طالب عليهم صلوات الله الملك

الحق المبين وسلامه.

والسيد أبو القاسم الديباجي (دام ظله) عالم فاضل ومحقق مدقق له إجازات كثيرة من كبار الفقهاء المجيزين في النجف الأشرف وقم المقدسة وداعية إسلامي فعال ونشط لا يفتر عن العمل المتواصل والدؤوب في خدمة الإسلام والمسلمين وإعلاء المذهب الشيعي، هذا ويتصف سماحته بتواضع النفس ورحابة الصدر ودماثة الخلق وذو فضائل خلقية كريمة.

ولادته ودراساته وأساتذته

ولد سماحته فى مدينة إصفهان عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٨م) ثم انتقل برفقة والده العلامة حجة الإسلام الحاج السيد نصر الله الديباجي إلى مدينة أهواز في جنوب إيران ونشأ وترعرع هناك وتلقّى دروسه في المراحل الابتدائية والمتوسطة حسب المناهج التعليمية الحديثة وأكمل دراسته في المرحلة الثانوية ثم اتجه إلى دراسة العلوم الدينية وبدأ بمقدمات العلوم الحوزوية عند أخيه الأكبر وأستاذه الأول الشهيد آية الله الحاج السيد أحمد الديباجي (قده) وكان أول عالم روحاني استشهد فى إيران بعد قيام الثورة الإسلامية فيها مع ولديه الشهيدين السيد محمد الديباجي والسيد علي الديباجي وذلك فى الجامع المحسني في العاصمة طهران.

وبعدما أكمل مقدمات العلوم الدينية تعمَّم بعمامة أجداده الطاهرين عليهم السلام ودخل في سلك رجال الدين بمباركةٍ من المرحوم آية الله العظمى الحاج السيد علي البهبهاني (قده) الذي كان فى حينه مرجعا دينيا كبيرا داخل إيران وخارجها.

ولإكمال الدراسات المتقدمة في العلوم الحوزوية انتقل إلى مدينة قم المقدسة وتوطَّنها لسنوات عديدة حيث حضر دروس السطح العالي عند كبار الأساتذة ألمعروفين كالأستاذ الشيخ رحمة الله الفشاركي والأستاذ سُتوده والأستاذ طاهر شمس والأستاذ صلواتي.

وبعد إكماله دروس مرحلة السطح العالي التحق بدروس الخارج فى العلوم العقلية والنقلية ودروس الفلسفة والعرفان عند رجال العلم وأساتذة الفن منهم الفيلسوف الأكبر المهذب الأتقى الحاج الشيخ يحيى الأنصاري الشيرازي (دام ظله العالي) والأستاذ الكبير العلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي (قده) – صاحب التفسير الكبير «الميزان في تفسير القرآن» – ولفرط حبه لأستاذه السيد العلامة فقد كان يسكن فى جواره، كما أنه حضر دروس الفقه والأحكام عند المرحوم آية الله العظمى الشيخ مرتضى الحائري (قده) نجل المرحوم آية الله العظمى الحاج الشيخ عبد الكريم الحائرى (قده) – مؤسس الحوزة العلمية في قم المقدسة – كما حضر في علم الأصول دروس المرحوم المقدس آية الله

الحاج الشيخ ميرزا كاظم التبريزي (قده) وهو من أعاظم علماء النجف ومن تلامذة الإمام المقدس السيد الخوئي (قده).

ثم سافر إلى النجف الأشرف وعاش في رحاب مولانا أمير المؤمنين الإمام علي بن أبى طالب عليه آلاف التحية والصلاة، وفي جنبات حوزة النجف - الحوزة الأم - المشعة بأنوار باب مدينة علم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله حضر دروس وأبحاث أساطين العلم وفطاحل الفقه كالأستاذ آية الله العظمى الإمام الخوئي (قده) فى مباحث الفقه والأستاذ آية الله العظمى الإمام الخميني (قده) فى مباحث الخلل من كتاب الصلاة فتدرَّج في مراتب دراسة الفقه والعلوم.

مراتبه العلمية

حاز سماحته على شهادات علمية وإجازات روائية وإجازات تأهيل من كبار أساتذته الأجلاء من العلماء والمراجع.

ولمزيد من التفاصيل فى شرح نسب سماحته الشريف وإجازاته العلمية يمكن الرجوع إلى كتاب «العلماء ومراجع التقليد (المرجعية الدينية ومراجع الإمامية)» الطبعة الثانية - طهران - للأستاذ الدكتور نور الدين الشاهرودي.

ومثلما استفاد من أساتذته الأعاظم في مراحل الدرس والبحث والتقصي العلمي المختلفة كان بدوره يفيد الآخرين من خلال إلقاء الدروس والمحاضرات لجمع من الفضلاء وطلبة العلم وفي مستويات مختلفة.

وفي هذا المقام لابد أن نشير إلى أن المراتب العلمية التي نالها سماحته لم تقتصر على الشهادات الحوزوية فحسب بل أنه حاز على شهادات من جامعات ومعاهد علمية عالمية حديثة، فقد منحته جامعة أكسفورد البريطانية درجة الدكتوراه سنة ١٩٩٦ م، إضافة إلى نيل العضوية العلمية فى تلك الجامعة، ومنحه الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية في فرنسا دكتوراه الإبداع في العلوم الإسلامية في الثامن والعشرين من شهر محرم سنة ١٤٢١ هـ الموافق الثاني من شهر مايو سنة ٢٠٠٠م.

هجرته إلى الكويت

في عام ١٤٠٦ هـ جاءته دعوة كريمة من جمع غفير من الشيعة المخلصين والمحبين لأهل البيت الأطهار عليهم السلام فى الكويت يطلبون من سماحته القدوم إليهم فيكون لهم إماما وقائدا ومرشدا وقائما بالأمور الدينية فى مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد لبَّى سماحته طلبهم وهاجر إليهم، ومنذ

ذلك الحين وإلى يومنا هذا وهو يقوم بأداء واجبه الشرعي على أتم وجه.

نشاطاته المختلفة في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام

لقد جعل سماحته بجِدِّه واجتهاده من مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام دار علم وثقافة إسلامية عامة ومنطلقا لنشاطاته الدينية والثقافية وبحوثه العلمية الفلسفية التي استفاد منها الإخوة والأخوات على حدٍّ سواء.

ومن جملة نشاطاته الدينية الهادفة إقامة صلاة الجماعة فى المسجد الجامع وإفاداته ودروسه ألقيِّمة التي يلقيها كل ليلة بعد صلاتي المغرب والعشاء، وقد خصَّص في كل ليلة درسا خاصا من تلك الدروس وهي كما يلي:

ليلة السبت: دروس في تفسير القرآن

ليلة الأحد: دروس في الفقه والأحكام

ليلة الإثنين: دروس في الأخلاق

ليلة الثلاثاء: دروس في العقائد

ليلة الأربعاء: دروس في الفقه والأحكام

ليلة الخميس: دروس في الأحاديث والروايات

ليلة الجمعة: منازل العرفان النظري والعرفان العملي

(وقد درَّس سماحته إلى وقت طباعة الجزء الثاني ٤٩٦ منزلا من أصل ١٠٠٠ منزل)

يوم الجمعة: إلقاء خطبة فى مباحث عامة نهار كل جمعة بين صلاتي الظهر والعصر.

هذا ويشارك الكثير من الإخوة المؤمنين والشباب والمثقفين من البلدان المجاورة فى هده الدروس وذلك بالسفر إلص الكويت والحضور شخصيا إلى المسجد الجامع.

ويمكن القول أن هذا الجامع – جامع الإمام زين العابدين عليه السلام – غدا مركزا تثقيفيا وروحيا فريدا من نوعه حيث أنه يغذِّي تلامذته والمنتسبين إليه بالدروس والبحوث الدينية المختلفة وإن كانوا خارج الكويت وكذلك الذين يسافرون إلى الخارج لإتمام دراساتهم العليا فى جميع أنحاء العالم حيث يبقى الجامع على اتصال معهم عبر لجنة ثقافية يتولى سماحته رئاستها والإشراف المباشر عليها.

وتجدر الإشارة هنا أن سماحته امتاز بجلب الأكابر والأفاضل من رجال العلم من الأقطار المختلفة إلى رحاب مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام فى جميع المناسبات الدينية طوال العام حتى يمكن الاستفادة من علومهم وبحوثهم فصار الجامع مهبطا للعلماء ومنهلا للعلوم ومركزا للبحوث

الإسلامية المختلفة.

ومن جملة هؤلاء العلماء: سماحة المرحوم آية الله الشيخ مجد الدين المحلاتي (قده) - زعيم الحوزة العلمية في شيراز - وسماحة آية الله السيد إسماعيل المرعشي وسماحة المرحوم آية الله السيد محمد الفيروزآبادي (قده) وسماحة آية الله الشيخ عبد الجليل الجليلي وسماحة آية الله الشيخ محمد رضا الجعفري وسماحة آية الله العلامة الدكتور السيد مصطفى محقق داماد وسماحة آية الله الأستاذ الشيخ أبوالقاسم الروحاني وسماحة آية الله الشيخ جواد السهلاني وسماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ عباس الجمالي وسماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد باقر المدرس وسماحة حجة الإسلام والمسلمين الشهيد السيد محمد تقي الخوئي (قده) وسماحة حجة الإسلام السيد عبدالمجيد الخوئي وسماحة الشيخ محمد محمدي الاشتهاردي وغيرهم من العلماء الأجلاء.

سائر نشاطاته خارج مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام

إلى جانب نشاطاته العلمية والدينية الدائمة التي قام ويقوم بها سماحته في نطاق مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام فإن له إسهامات وأيادي بيضاء في دعم المشاريع الخيرية والدينية والتربوية الإسلامية وكل ما يخدم الدين الإسلامي الحنيف من قريب أو بعيد، كما أن سماحته بخلقه الكريمة عون للمحتاجين والمعوزين.

وكذلك فإن لسماحته أيضا اهتمامات بمؤسسات دينية خارج الكويت، فقد أنشئ بسعيه المبارك مركز دار الثقلين في الهند ومدارس خاصة للأيتام وحوزة علمية باسم الإمام المهدي (عج) في مدينة بمباي إضافة إلى مراكز علمية أخرى، وإن خدماته الجليلة في تلك المناطق معروفة لدى الجميع.

مؤلفاته

يعتبر سماحته مؤلفا مكثرا إذ ألَّف كتبا ورسائل عديدة تتناول مختلف العلوم والبحوث الدينية وبأسلوب شيِّق ومنطق رصين، وقد طبعت مؤلفاته لأكثر من مرة، ومن الكتب والرسائل التي تم إصدارها ما يلي:

١- العرفان نهج خاص - طبع في الكويت عام ١٩٩٢م

٢- رسالة عقائدية (رد على كتاب «الشيعة والتصحيح» للدكتور الموسوي) - ويتضمن جملة من الأطروحات لمناقشة وتفنيد دعاوى صاحب كتاب «الشيعة والتصحيح» وإبطال حججه استنادا إلى الآيات القرآنية وروايات أهل البيت عليهم السلام - طبع في إيران عام ١٩٩٣م

٣- خطـر الأفيـون - كتـاب مختصر مفيد بيَّن فيـه مؤلفه خطر الأفيون والإدمان وآثاره السـلبية في حياة الإنسان وطرق الوقاية منها وعلاجها - طبع في الكويت عام ١٩٩٣م

٤- الحـج أحكاما وفلسـفة ودعـاء - كتاب توضَّح فيه الأحكام الفقهية لمناسـك الحج والفلسـفة الخاصـة بكل منسـك والتي تهدف إلى تقوية الصلـة الروحية بين الحاج وأعماله ثم تخصيص جانب من الكتاب للأدعية الخاصة بكل الأعمال التي يؤديها الحاج ابتداء من خروجه من دياره متوجهاً إلى الديار المقدسـة ومـروراً بمناسـك الحج وانتهـاءً بعودته إلى ديـاره وكذلك الزيارات الخاصة برسـول الله ﷺ وأهـل بيته الأطهار عليهم السلام والزيارات الخاصة بالأماكن المقدسـة في المدينة المنورة ومكة المكرمة - طبعت الطبعة الأولى في إيران عام ١٩٩٣م والطبعة الثانية في الكويت عام ١٩٩٧م

٥- مبحـث في أصـل التوحيد - دراسـة معاصرة - الحلقة الأولى من سلسـلة دراسـات في أصول الدين - ويشرح فيه المؤلف أقسـام التوحيد وآثارها الحسنة وأنواع الشرك وآثارها السيئة باعتماد رؤية الأفق القرآني العظيم واستقراء الروايات الصحيحة المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام، وكذلك عرض الأدلة الدقيقة والواسعة لمبدأ التوحيد والاستدلال بالشواهد والحقائق الكونية، ويُدَرَّس هذا الكتاب الآن في الحوزات والمراكز العلمية بوصفه مصدرا من المصادر المعتمدة فى دراسة أصول الدين - طبع في لبنان عام ١٩٩٥م

٦- مبحـث في أصـل النبـوة - دراسـة معـاصرة - الحلقة الـثانية من سلسـلة دراسـات في أصول الدين - مبحث في تعريف النبوة وعلة بعثة الأنبياء عليهم السلام والوحي السماوي وأنواعه والبحث في عصمة الأنبياء عليهم السلام ومعجزاتهم وأولي العزم من الرسل وبيان شخصية ومراتب مقامات خاتم الأنبياء الرسول الأكرم محمد ﷺ والتأسي به في

الحياة الفردية والاجتماعية.

٧- مبحـث في أصـل العدل - دراسـة معـاصرة - الحلقة الـثالثة من سلسـلة دراسـات في أصول الدين - ويتطرق فيه المؤلف إلى مفهوم العدل في الشرائع السماوية وبحث حول الوعد والوعيد والجبر والتفويـض والقضاء والقدر بين الفرق الإسـلامية المختلفة وتنزيـه الذات الإلهية عن الظلم - طبع في لبنان عام ١٩٩٦م.

٨- مبحـث في أصـل الإمامة - دراسـة معاصرة - الحلقة الرابعة من سلسـلة دراسـات في أصول الديـن - مبحث فى مفاهيـم الإمامة ودور الإمامة في حياة الأمة والدلائـل العقلية والنقلية من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الموجبة للإمامة وأن المذهب الاثنا عشري هو المذهب الحي الوحيد الذي يمكن أن يكون له إماما حيا وهو الحجة بن الحسن المهدي (عج) - طبع في الكويت عام ١٩٩٧م

٩- مبحث في أصل المعاد يوم القيامة - دراسة معاصرة - الحلقة الخامسة من سلسلة دراسات في أصول الدين - وتطرق المؤلف فيه إلى الدلائل في المعاد والمعاد في القرآن الكريم والروايات الشريفة وتساؤلات وردود حول المعاد والآثار المعنوية والتربوية المترتبة على الاعتقاد بالمعاد - طبع في الكويت عام ١٩٩٨م

١٠- أجود المناظرات - إشراف وتحقيق المترجَم له - تمت ترجمته إلى اللغتين الإنجليزية والأردو ويشمل على نماذج من مناظرات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام وتلامذتهم مع مختلف الطوائف والمذاهب وفي شتى المواضيع والأمور الإسلامية وكذلك نماذج من مناظرات كبار علماء الدين ومفكري الإسلام في الماضي والحاضر مع مختلف الأشخاص والتي تبين طريقة وأسلوب مواجهتهم للمنكرين والملحدين وتأثر الناس بمنطقهم السليم، هذا ويضم الكتاب بين دفتيه ١٠١ مناظرة - طبع في لبنان عام ١٩٩٥م

١١- الإمام المهدي الحقيقة المنتظرة - طبع في إيران عام ١٩٩٥م - يستعرض فيه المؤلف بعض الجوانب الهامة في حياة الإمام المهدي (عج) وأهدافه وبرامج دولته العادلة، ويقدم فيه المواضيع المهمة بشكل يحيط - رغم اختصاره - بأهم الأبعاد الخاصة بهذا البحث الدقيق والمهم، وفصول الكتاب تختص بالمباحث التالية:

- ما يتعلق بولادته عليه السلام وستر أبيه له في ألسنين الأولى من عمره الشريف.
- الغيبة الصغرى وصلته عليه السلام بشيعته.
- الغيبة الكبرى وانتظار شيعته لظهوره عليه السلام.
- تساؤلات مع الإمام المهدي عليه السلام.
- الإمام المهدي عليه السلام غذاء الروح.
- حكومته عليه السلام وعصره المزدهر بالخير والعطاء.

١٢- منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام - تحقيق وإشراف المترجَم له - ويقع هذا الكتاب القيِّم في ثلاثة أجزاء من أربعة عشر مجلد وهو عبارة عن سلسلة ذهبية لامعة في سيرة كل معصوم مع مختارات لطيفة من حياته على مختلف الأصعدة، ويمتاز هذا الكتاب عن غيره بأنه:

- يعرض عرضا شاملا وسريعا ومبسطا لتاريخ حياة المعصوم عليه السلام منذ ولادته ومرورا بمراحل صباه وشبابه وفترة إمامته ومعاصريه من الحكام الى يوم أن اختاره الله عز وجل لجواره.
- يسرد الحقائق التاريخية الجليلة والقيِّمة التي طمستها أقلام المناوئين وألسنة الحاقدين وتجاهلها أكثر المؤلفين والمؤرخين.

- يكشف عمق الأحداث والمصائب التي تجرَّعوها لله وفي الله ولتحقيق العدالة ونشر المعارف الإسلامية.

والأجزاء الثلاثة هي كالتالي:

(١)- تحقيق وإشراف خمسة مجلدات منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر - خمسة أهل الكساء

(٢)- تحقيق وإشراف خمسة مجلدات منتقى الدرر في سيرة ألمعصومين الأربعة عشر - من الإمام السجاد عليه السلام إلى الإمام الرضا عليه السلام

(٣)- تحقيق وإشراف أربعة مجلدات منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر - من الإمام الجواد عليه السلام إلى الإمام المهدي المنتظر (عج)

١٣- زينب الكبرى عليها السلام بطلة الحرية - طبع في الكويت عام ١٩٩٦م - وقد قوبل كتابه هذا باستحسان وإقبال كبيرين وجرى طبعه لعدة مرات، بالإضافة إلى طبعة خاصة بلغة «الأردو»، وقد صنَّف المؤلف مواضيع الكتاب في أربعة فصول رئيسية هي كالتالي:

- زينب عليها السلام من المهد إلى أحداث كربلاء ولمحات من فضائلها.
- زينب عليها السلام وأحداث كربلاء.
- زينب عليها السلام بعد عاشوراء إلى وفاتها.
- مرقد زينب الكبرى عليها السلام وبعض كراماتها.

١٤- العباس بن علي عليه السلام بطل النهضة الحسينية - طبع في الكويت عام ١٩٩٧م - بالإضافة إلى طبعة خاصة بلغة «الأردو»، وأستعرض فيها المؤلف شخصية أخرى من أبطال فاجعة الطف الأليمة وهو العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام حيث تناول فيه أبعاد شخصية قمر العشيرة وساقي عطاشى كربلاء، وقد صنف المؤلف هذا الكتاب فصولا أربعة هي كالتالي:

- العباس عليه السلام في عهد والده أمير المؤمنين عليه السلام - حوالي أربعة عشر عاما.
- العباس عليه السلام في عهد إمامة الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام - حوالي عشرون عاما.
- العباس عليه السلام في واقعة الطف وبطولاته واستشهاده.
- مرقد العباس عليه السلام وما طرأ عليه من التجديدات وبعض كراماته.

١٥- أجوبتنا على مسائلكم الدينية - وفيه يرد على ثلاثمائة سؤال يتعلق بالعقائد والفلسفة والفقه ومواضيع دينية متفرقة، وتم تصنيف الكتاب في عشرة مجلدات كل مجلد يضم ثلاثين سؤالا وجوابا - طبع المجلد الأول في الكويت عام ١٩٩٧م

١٦- القصص الهادفة عن سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام - تحت إشراف الأستاذ المحقق المترجَم له - كتاب مكمِّل لمنتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام ولكنه أقوى تحقيقيا وعلميا - بالإضافة إلى طبعة خاصة بلغة «الأردو» - طبع عام ١٩٩٦م

١٧- المنتخب من قصص المثنوي - تحقيق وإشراف المترجَم له - وهو ترجمة وشرح بعض أشعار العارف والشاعر الكبير جلال الدين الرومي المعروف بـ«مولانا» أو «المولوي» ويحتوي على المنتخب من الآيات والروايات الإسلامية المبينة للحقائق الملموسة والمعنوية التي يحتاج إليها الجسم والروح - طبع عام ١٩٩٦م

١٨- حوار حول الإمام المهدي (عج) - طبع في لبنان عام ١٩٩٧م

١٩- الفتنة العظمى - الحلقة الأولى من سلسلة دراسات تاريخية - دراسة معاصرة للسياسة الأموية في صدر الدعوة الإسلامية - طبع في لبنان عام ١٩٩٨م

٢٠- حقوق الإنسان في الإسلام - دراسة وتحقيق في بحث حقوق الإنسان الإسلامية وأنواعها والمبارزة مع الظلم والسياسات الاستعمارية - طبع عام ١٩٩٩م.

٢١- حقوق المرأة في الإسلام - دراسة معاصرة - كتاب جامع عن شخصية المرأة وحقوقها والحقوق المتقابلة بين المرأة والرجل عامة - طبع عام ١٩٩٩م.

٢٢- مظاهر الفرقة بين المسلمين وعلاجها - مشروع بحث قدمه المترجَم له في ندوة اجتماع دولي لوضع استراتيجية مشتركة للتقريب بين المذاهب الإسلامية - دمشق ١٠-١٢ أبريل ١٩٩٩م.

٢٣- نفحات الرحمن في منازل العرفان - الجزء الأول - (المنزل ١ - المنزل ٢٠) من أصل ١٠٠٠ منزل - طبع في ٢٠ جمادى الآخرة عام ١٤٢٠ هجرية الموافق ٣٠ سبتمبر ١٩٩٩م

٢٤- فضائل ومناقب علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام في مسانيد أهل السنة - الجزء الأول والجزء الثاني - طبع عام ١٩٩٩م.

٢٥- سيماء الأولياء وكراماتهم - الجزء الثاني - طبع عام ١٩٩٩م.

٢٦- السيدة خدجة عليها السلام... مقاومة، إيثار، أسطورة، طبع عام ٢٠٠٠م.

مؤلفات تحت الإشراف والتحقيق والطبع

١- دراسة في الفقه الإسلامي - خلاصة الفقه الإسلامي الحي والمبتلى به الناس مع توضيح مبادىء الفقه وأسس الفقه.

٢- دراسة في علم التفسير - بحث في علم تفسير القرآن المجيد وهي دروس طرحها سماحته في

مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد تم تخزينها في الكمبيوتر.

٣- دراسة في الفلسفة الإسلامية - دراسة في مبادىء الفلسفة الإسلامية ومقارنتها بالمكاتب الفلسفية الأخرى.

٤- السنّة النبوية المطهرة - دراسة وتحليل - دراسة وتحليل السنَّة النبوية المطهرة مع بيان أراء الفرق الأسلامية وعلاقتها بالحياة الاجتماعية للمسلمين.

٥- الإمام الحسين عليه السلام رسالة الإنسانية - دراسة معاصرة - كتاب يستعرض شخصية سيد الشهداء أبي عبدالله الحسين عليه السلام وفلسفة ثورته الخالدة، وقد تمت ترجمة شطر كبير من هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية.

٦- دراسة في الأخلاق - دروس ومحاضرات ألقاها سماحته في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام مع توضيح أهم البحوث الأخلاقية مقارنة بالقضايا العلمية والعصرية.

٧- من الجمعة إلى الجمعة - سلسلة محاضرات ألقاها سماحته في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام من خلال خطب الجمعة حسب ما يتطلبه الواقع الاجتماعي مع العلم أن جميع هذه الخطب مسجلة فى أشرطة.

المقدِّمة

الحمـد لله الواحـد بلا عدد والدائم بلا أمد والقائم بلا عمـد المقتدر بالآلاء الممتنع بالكبرياء النائي عـن العيـون لشـدة جماله والمختفـي عن الأنظـار لفرط نوره فلـم تره العيون بمشـاهدة العيـان ورأته القلـوب بحقائق الإيمان ثـم أشرف الصلوات وأنمى البركات على المبعوث مـن تهامة المظلَّل بالغمامة صاحب الشـفاعة يوم القيامة أول الأنبياء نورا وآخرهم ظهورا الأحمد من الأوصاف والمحمد لسـائر الأشراف المغمـوس في بحـر الفضائـل والملبَّس حلل المفاخر وعلى آل بيته العترة الزكية السـادة الولاة والأئمـة الهداة والقادة الحماة لا سـيما نامـوس الدهر وإمام العصر بقيـة الله في الأرضين والقائم بالحق المبين صاحب الزمان وإمام الإنس والجان الحجة بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

اعلمـوا عبـاد الله أن الله تعـالى جلَّـت عظمته خلـق الخلائق وهو غنـي عن خلقهـم لا لغاية إلا ما أشارإليها في مكنون كتابه حيث قال جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الإنسَ وَالْجِنَّ إلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1] فالعبادة غايـة الخلقة والتكوين وفي حد ذاتها وسـيلة للقرب إلى الكمال المطلـق والذات الأحدية المتعالية، ومن هنا كان قوله عز من قائل في حديث قدسي: « كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِيّاً فَأَحبَـبْـتُ أنْ أعـرَفَ فَخـلَـقْـتُ الخَـلْـقَ لكَـي أعــرَفَ»[2]، ومـع الجمع بين الآيـة والحديث نخرج بهـذه الحصيلة النورانيـة الملكوتية وهي أن العبادة الحقيقية ليست حركات الأبدان وسكناتها فحسب إنما هي معرفة الله حق معرفته وعبادته حق عبادته كما قال سـيد الموحديـن وقطب العارفيـن أميـر المؤمنيـن علي بن أبي طالبعليه السلام: «أوَّلُ الـدِّيـنِ مَـعْـرِفَـتُــهُ»[3]، فمعرفة الله تبارك وتعالى هي الوسـيلة المؤديـة إلى التوحيد الخالص له دون غيره، ولا يخفى أن معرفة الله تبارك وتعالى محدودة في نعوته وصفاته الجلالية منها والجماليـة وأما التفكـر في ذاته وإدراك كنهه فلا سـبيل لأحد إليه كما قال سـيد البشرصلى الله عليه وآله: «مَا عَرَفْناك حَقَّ معْرِفَتِك»[4]، وكذلك قول الإمـام الحسـين بن عليعليه السلام: «إنَّ اللهَ احْـتـَجَـبَ عَنِ الـعُـقـولِ كَـما احْـتَـجَـبَ عَنِ الأبصـار»[5]، بـل

منهـيٌّ عنه كما قـال الإمـام عليعليه السلام: «تـفَـكَّــرُوا في آلاءِ الله وَلا تـفَـكَّـرُوا في ذاتــهِ»[٦]!! وأما دون ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يحجب الخلائق عن وجوب معرفته بل كلَّفهم ذلك كلٌّ حسب قابليته وطاقاته واستعداداته، وقد قال الإمام الصادقعليه السلام في ذلك: «إنَّ أفـهـامَ النـاسِ وعقـولـهُمْ مُـتَفـاوتـةٌ في قَبـولِ مَـراتبِ العِـرْفـانِ وتحْصيـلِ الاطمِـئـنـانِ كَمًّـا وكَـيْـفـاً شِـدَّةً وضـعْـفـاً سُـرْعَـةً وبـطْـئـاً حـالاً وعلْماً وكَـشْـفاً وعيـاناً وإنْ كانَ أصْـلُ المعـرِفَـةِ فِـطْـريـا إمَّـا ضـروريٌّ أو يُـهْـتَـدَى إليهِ بأدنى تَـنْبيــهٍ فلِـكُلٍّ طَـريقَـةٌ هَـداهُ اللهُ عـزَّ وجَـلَّ إلَيْـها إنْ كانَ مِـنْ أهْـلِ الهـدايـةِ والطُّـرُقُ إلى اللهِ بعَـدَدِ أنـفـاسِ الخَـلائـقِ وهمْ دَرَجـاتٌ عِنـدَ الله»[٧]!!

ولابد الإشـارة هنا إلى أن هناك فرق بين العلم والعرفان فالعلم هو الاطلاع على ذات الشيء وأما العرفان فهو العلم بآثار الشيء ومصاديقه أو هو إدراك الشيء بفكر وتدبر وهو أخص من العلم وضده الإنكار وما أحسـن ما قاله الأسـتاذ العلاّمة السيد محمد حسـين الطباطبائيرضي الله عنه في معنى العرفان أنه: «تـطـبـيـقُ الصـورَةِ الحـاصلَـةِ في المُـدْركَـةِ على مـا هـو مَـخْـزونٌ في الذهـنِ ولذا قـيـلَ أنــَّهُ إدْراكٌ بعْـدَ عِـلْـمٍ سـابـقٍ»[٨].

يقول العرفاء أن الإنسـان يشـعر على الـدوام بالنقص والاحتياج، وبفطرتـه الأصيلة يميل إلى من يسـد نقصـه واحتياجه، ولجبران هاتـين النقيصتين يتحرك نحـو الكمال، هذه الحركـة المعنوية الباطنية والذاتية الخفية التي تنشـأ في روح الإنسـان وقلبه وترتقي بهما تجاه الذات القدسـية وكل الكمال تُعرَف بالسير والسلوك إلى الله.

عِـبـاراتـنا شـتَّـى وحُـسْـنُـكَ واحِـدٌ
وكُــــلٌّ إلــَى ذاكَ الـجَـمـالِ يُـشِـيـرُ[٩]

فالسـلوك هـو طـي الطريق للوصـول إلى لقـاء جمال ذي الجـمال المطلق والسـير هو مشـاهدة آثار وخصائص المنازل التي يطويها السـالك منزلا بعد منزل والمترتبة بعضها على بعض وكلما يطوي منزلا يرقى إلى الكمال أكثر فأكثر حتى يصل إلى أوج الكمال وهو مقام الإنسان الكامل.

وعلى هذا فمبدأ السـير والسـلوك إلى الله هـو النقص والاحتياج الفطري كما قال سـبحانه وتعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَـعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[١٠]، ومنتهاه جناب الحق المنزه عن كل نقص: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾[١١].

ولا شك أن الجذبة الإلهية والنفحات الرحمانية هي التي تدفع الإنسان إلى التعرف على عوالم الغيب وكشـف حقائـق عالم الوجـود، فحينما خلـق الله العباد وهو ذو المـن القديم هيأ لهم الأسـباب والعلل ليفيض عليهم من شـمائم ألطافه الغيبية ونسـائم نفحاته القدسـية التي تهبُّ عليهم بين حين وآخر كما

قال سيد المرسلين ﷺ: «إنَّ لِرَبِّكُمْ في أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحاتٌ ألاَ فَتَعَرَّضوا لَها»[١٢]، فعلى العبد أن يقف في مَهَبِّ تلك النسائم والأطياب الإلهية ويشد رحله للسير فيها والسفر إلى الله حتى تسلك به إلى لقاء مبدأ الفيض الأزلي والوجود السرمدي.

ولما كانت المعرفة والعرفان وسيلة السالك إلى الله في السير والسلوك إلى حظيرة القدس ورياض الأنس فلابد من تجرد القلب والروح من مظاهر الطبيعة المادية وكدوراتها وتطهير النفس من علائق الدنيا الدنية وشوائبها والتخلص من الإنِّية والأنانية والآثار الوجودية شيئا فشيئا والدوام في جهاد النفس ومراقبتها ومحاسبتها ثم التزين بزينة الأخلاق والتحلي بحسنات الصفات والعروج نحو التكامل المعنوي والسمو الروحي بالاستمداد من العون الإلهي والمدد الرحماني حتى تُرفع الحجب الظلمانية الناشئة في النفس وتُفتح من هذا العالم المادي منافذ تطل على ما وراء الطبيعة والعوالم العلوية والعقول المجردة عن المادة وتتصل الروح بأنوار الملأ الأعلى وتُنال بذلك المدارج العليا في الكمالات إلى أن يصل إليمقام الفناء في الله فيخرق بصر قلبه حجب النور ويكون مظهرا من مظاهر تجليات الحق تبارك وتعالى وينتهي به المقام إلى رَوْح الله ورضوانه والخلود في جنة لقائه.

والسالك في سفره إلى الله تعالى يحتاج إلى مرشد ودليل لكي يأخذ بيده ويرشده إلى الطريق المستقيم حينما تفترق أمامه الطرق فينقذه من المتاهات والظلمات والوقوع في خطر الآفات والمهلكات ويكون سبيل الله في هدايته والوصول إلى مقصده: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا....﴾[١٣]، وخير الأدلاء على الله نور الله الأعظم النبي الخاتم الهادي البشير والسراج المنير محمد بن عبدالله ﷺ الذي قال فيه الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ....﴾[١٤]، ومن بعده قطب العارفين ودليل القاصدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وذريته الأئمة المعصومين عليهم السلام وهم العروة الوثقى وحبل الله المتين، ثم أولياءالله الصالحين والعلماء العاملين والعرفاء الكمَّلين الذين وصلوا إلى حقائق عالم الوجود وأسرار المُلك والملكوت وتغلغلوا في المكاشفات والمشاهدات باتباع أحكام الله من أوامره ونواهيه وجاهدوا بالرياضات الشرعية والتكاليف الإلهية حتى صاروا مظهرا من مظاهر تجليات رب العالمين، فعلى السالك أن يتخذ أحدهم مرشدا يرشده ويأخذ بيده ويوصله من حالة القوة والاستعداد المحض إلى الفعلية المعنوية.

وأما سلسلة مراشدنا الأعاظم الذين وصلوا إلى المقامات الإلهية المثلى والمراتب المعنوية العليا في عصرنا هذا فهي كما يلي:

١- الحكيم الإلهي والعارف الرباني العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي رضي الله عنه صاحب كتاب «الميزان في تفسير القرآن» (١٣٢١ هـ - ١٤٠٢ هـ).

٢- الأستاذ الأعظم عبقري الأخلاق والعرفان السيد علي القاضي التبريزي رضي الله عنه (١٢٨٥ هـ - ١٣٦٦ هـ).

٣- العارف الكامل والحكيم الإلهي السيد أحمد الكربلائي رضي الله عنه (؟ - ١٣٣٢ هـ).

٤- العالم الرباني والعارف الصمداني جمال السالكين الملا حسينقلي الهمداني رضي الله عنه (١٢٣٩ هـ - ١٣١١ هـ).

٥- العالم الفقيه والعارف الجليل السيد علي الششتري - التستري - رضي الله عنه.

٦- الملا قلي الجولا - الجولائي - رضي الله عنه.

إلى أن تنتهي حلقات سلسلة أهل العرفان إلى قطب العارفين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولقد كان المسلك العرفاني لكل مرشد من هؤلاء المراشدالعظام مطابقا للمسلك العرفاني لأستاذه والمبني أساسا على الحديث النبوي الشريف المتواتر: «مَنْ عَرَفَ نفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[١٥] فمعرفةالنفس مقدمة لمعرفةالرب وكلما عرف الإنسان نفسه تخلى عنها حتى تتلاشى تماما وتُمحى ولا يبقى منها رسم أو أثر «وعندَ الفَناءِ عَنِ النَّفْسِ بمَراتِبِها يَحْصُلُ البَقاءُ بالرَّبِّ»، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وآله كيف الطريق إلى معرفة الحق فقال صلى الله عليه وآله معرفة النفس فقيل فكيف الطريق إلى موافقة الحق فقال صلى الله عليه وآله مخالفة النفس!! ولا يمكن الحصول على هذا المقام إلا بالالتزام بالمراقبة الدائمة والمناسبة لكل مرحلة من مراحل السير والسلوك إلى الله.

ويجدر بالذكر هنا أن المنهج العرفاني الذي اتبعه سلسلة مراشدنا الأعلام قائم على آيات القرآن الحكيم وأحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وآله وروايات أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ولا يشذ عنه ولو بمقدار حبة من خردل، فالخروج عن مسار الشريعة المحمدية الغراء والولاية العلوية البيضاء ليس إلا الوقوف على مفترق الطريق ثم الوقوع في المهالك وقد يؤول إلى الكفر والعياذ بالله.

وأما المسافة التي يقطعها السالك في سفره إلى الله فتنقسم إلى مراحل ومقامات علمية وعملية متتالية ويسمى كل مقام من هذه المقامات منزلا، وما لم يطوِ السالك أي منزل من المنازل لا يمكنه الانتقال إلى المنزل التالي.

وقد اختلفت أقوال العارفين في عدد المنازل وترتيبها مستندين في أقوالهم على الآيات القرآنية والروايات، فقال البعض أنه منزل واحد لا غير وهو «الفصل والوصل» أو «القطع والوصل» أو «معرفة النفس»، وقال بعضهم أنه منزلان هما الظاهر والباطن أو الشريعة والطريقة أو الشهود والغيب أو الحجب الظلمانية والحجب النورانية، وقال البعض الآخر أنه ثلاث منازل بعدد العوالم وهي عالم الطبيعة وعالم المثال وعالم العقل أو عالم المُلك وعالم الملكوت وعالم الجبروت، وقال البعض أن الحجب

والمنازل أربعة وهي ترك الدنيا وترك العقبى وترك المولى وترك الترك، والبعض قال أنه خمسة منازل وهي الحضرات الخمس أو العوالم الخمس الطبيعة والمثال والروح والسر والذات، وعدَّد آخرون سبعة منازل استنادا إلى ما ذكر من الآيات في «السماوات السبع والأرضين السبع» فالسماوات السبع دالة على الحجب النورانية التي تتناسب مع مراتب النفس والأرضين السبع دالة على الحجب الظلمانية التي تتناسب مع حواس الإنسان الظاهرية أو عوالم الحس والمثال والعقل والسر والسر المستتر والسر المقنَّع بالسر والذات، وبعضهم قسمها إلى عشر منازل حسب مراتب الإيمان «الإيمان عشر درجات وسلمان في العاشرة» (منهم الملا هادي السبزواري رضي الله عنه)، والبعض استند إلى عدد الحجب التي كشفت عن رسول الله في المعراج فقال أنها سبعون منزلا، واستنادا إلى أسماء الله المائة قسَّم البعض طريق السير والسلوك إلى مائة منزل (وقد قسَّم الشيخ عبدالله الأنصاري رضي الله عنه المنازل إلى عشرة أقسام في كل قسم عشرة أبواب فكان مائة منزل)، واستند البعض الآخر إلى روايات أخرى في عدد أسماء الله فذكر ثلاثمائة وواحدا وستين منزلا، وذكر آخرون ألف منزل (كالمرحوم الشيخ الشاهآبادي رضي الله عنه)، وذهب آخرون في تقسيم منازل السالكين إلى سبعين ألف منزل.

وأما منهجنا العرفاني فقد بُنِي على أساس ألف منزل من منازل السالكين إلى الله - كما استفدنا ذلك من فيوضات وبركات مراشدنا الأجلاء، ولدعوة الخلق إلى معرفة الله تبارك وتعالى بدأنا بحول الله وقوته بطرح هذه المنازل كدروس عرفانية منذ عام ١٤٠٥ هـ في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام ولا زالت مستمرة إلى وقت طباعة الجزء الأول من الكتاب والذي يحتوي على عشرين منزلا (من المنزل ١ إلى المنزل ٢٠).

هذا وقد ارتأينا التصرف في متون هذه الدروس ومحتوياتها مع الحفاظ على قالبها وجوهرها حسب ما يقتضيه الحال.

اللهم إنا نسألك يا دليل المتحيرين ويا غاية همم العارفين ويا نور قلوب المشتاقين أن تصلي على محمدوآله الطيبين الطاهرين وأن تسلك بنا سبل الوصول إليك وتمهد لنا طرق الوفود عليك وتملأ ضمائرنا من حبك وتُشرب قلوبنا بشراب أنسك وتقرَّ أعيننا بفرحة لقائك وتجعلنا من صفوتك الذين أحللتهم بحبوحة جنانك آمين إله الحق رب العالمين.

١٥ شعبان ١٤٢١ هجرية

الهوامش

(١) سورة الذاريات: آية ٥٦
(٢) كشف الأسرار: ج ٨ ص ٣٨٧، بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ٣٤٤
(٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٧٢
(٤) مشارق أنوار اليقين: ص ١١٢، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٣
(٥) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٣٠١ نقلا عن تحف العقول
(٦) الوافي: ج ٤ ص ٣٨٣
(٧) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ١٣٧، علم اليقين: ج ١ ص ١٤
(٨) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢ ص ٢٤٨
(٩) للشيخ البهائي&
(١٠) سورة النحل: آية ٧٨
(١١) سورة النجم: آية ٤٢
(١٢) بحار الأنوار: ج٧١ ص ٢٢١
(١٣) سورة العنكبوت: آية ٦٩
(١٤) سورة آل عمران: آية ٣١
(١٥) غرر الحكم: ص ٢٦٨

منازل العرفان

(المنزل ٢١ - المنزل ٣٥)

المنزل (٢١)

مَعْرِفَةُ الشَّأنِ عِنْدَ المُحِب

قال الراغب في مفرداته: الشأن هو الحال والأمر الذي يتفق ويصلح، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور[١].

وقيل: أنَّ الشأنَ عبارة عن مراتب الإنسان ومقاماته الحاصلة في الكامل والمكمونة في الناقص والأحوال الطارئة له بحسب مقاماته[٢]!!

ويقول العرفاء أن الشأن مرتبة من مراتب الوجود، ولا يمكن للوجود أن يتحرك ويتجه إلى الكمال إلا بعد معرفة الشأن، وما لم يعرف الإنسان شأنه ومرتبة وجوده فهو يُقْدم على أعمال دون شأنه كالذي يملك قطعة من ذهب يريد بيعها وهو لا يعرف قيمتها فيبيعها بثمن قليل دون ثمنها الحقيقي.

ويُعَدُّ عدم معرفة الإنسان شأنه من المهلكات، فهو يبيع إنسانيته وشخصيته وحريته وشرفه وكرامته بثمن بخس في سبيل الحصول على لذة داثرة منقطعة وهو يحسب أنها غاية السعادة وكمالها.

يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسينعليه السلام في دعائه: «سَيِّدي أَخْرِجْ حُبَّ الدُّنْيا مِنْ قَلْبي واجْمَعْ بَيْني وبَيْنَ المُصْطَفَى وآلِهِ»[٣]، فإخراج حب الدنيا من القلب مفتاح لاجتناب المحارم واقتراف الذنوب والمعاصي كما في قول رسول اللهصلى الله عليه وآله: «حُبُّ الدُّنْيا رَأسُ كُلِّ خَطيئَةٍ»[٤]، وكلما ازداد الإنسان حبا للدنيا ازداد بعدا عن الله تبارك وتعالى، بل لا يجتمع حب الله وحب الدنيا في قلب، ومن مواعظ المسيحعليه السلام: «إنَّ العَبْدَ لا يَقْدِرُ عَلَى أن يَخْدِمَ رَبَّين ولا مُحالَةٌ أن يُؤثرَ أحَدَهُما عَلَى الآخَرِ وإن جَهِدَ، كَذلِكَ لا يَجْتَمِعُ لَكُمْ حُبُّ الله وَحُبُّ الدُّنْيا»[٥]، و قيل أن الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء: «إذا اطَّلعتُ عَلَى قَلْبِ عَبْدٍ فَلَمْ أجِدْ فيه حُبَّ الدُّنْيا والآخِرَةِ مَلأتُهُ مِنْ حُبّي»!!

كذلك لا يجتمع حب الدنيا وحب رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، فقد جاء في قول مولانا أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «وَاللهِ ما أَحَبَّ (اللهُ) مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيا ووَالَى غَيْرَنا»[٦] وقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ أَحَبَّنا أَهْلَ البَيْتِ فَلْيُعِدَّ لِلْفَقْرِ جِلْباباً»[٧]، أي ليزهد في الدنيا ويبتعد عن الخوض في ملذاتها وهواها ويخالف النفس ولاتها وعُزَّاها حتى يُحشَرَ يوم القيامة في زمرة المصطفى ﷺ وآله عليهم السلام، والحشر مع المصطفى وآله عند العرفاء حشر خاص ينافي حب الدنيا والتعلق بها.

واللذات في هذه الدنيا ثلاث:

الأولى: اللذة الحسية بقضاء شهوتي البطن والفرج وما يتعلق بالحواس الظاهرية من النظر والسمع والشم والتذوق واللمس.

الثانية: اللذة التخيلية (الخيالية)، الحاصلة من الظن والشك والأنانية وحب المال والجاه والرياسة والشهرة وما شاكلها.

الثالثة: اللذة العقلية، الحاصلة عن طريق معرفة الأشياء والوقوف على حقائقها.

وأقوى اللذات عند عامة الناس الذين يعتقدون أنها أسباب الوصول إلى غاية السعادة وكمال البهجة هي اللذات الحسية كلذة الأكل والشرب والوقاع وهي لذة يشاركه فيها الحيوان.

وعلى هذا فالميزة التي يمتاز به الإنسان عن الحيوان ويرفعه عن حضيض الخساسة والبهيمية هو العقل الذي يحبسه ويحدُّه في قضاء الشهوات المادية والإنسانية فيمنعه من الخوض فيها ويدفعه إلى التقليل منها، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أَبْعَدُ ما يَكونُ العَبْدُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ إذا لَمْ يَهُمُّهُ إلاَّ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ»[٨]، وما يعنيه الإمام عليه السلام بالاهتمام بهاتين الشهوتين هو الإفراط فيهما وإلا فالشرع والعقل يحكمان بقضائهما في حدودهما وذلك إبقاءً للنوع وحفاظا على سلامة للبدن.

وتُعرَف شدة الحرص على الأكل والجماع وغيرهما من الشهوات بالشَّرَهِ، وتقابله العفَّة وهي -كما يقول الراغب في مفرداته - حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، وتطلق غالبا على عفة البطن والفرج ومنعهما عن المحرمات والشبهات والصبر عليها وهي فضيلة بين رذيلتي الخمود والفجور.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ طائِفَةً مِنَ المَلائِكَةِ عابُوا وُلْدَ آدَمَ في اللَّذّاتِ والشَّهَواتِ - أعْني الحَلالَ لَيْسَ الحَرامَ - فَأَنِفَ اللهُ لِلْمُؤمِنينَ مِنْ وُلْدِ آدَمَ مِنْ تَعْييرِ المَلائِكَةِ لَهُمْ، فَأَلْقَى اللهُ في هِمَّةِ أولئِكَ المَلائِكَةِ اللَّذّاتِ والشَّهَواتِ كَيْ لا يَعيبُوا المُؤْمِنينَ، فَلَمَّا أَحَسُّوا ذلِكَ مِنْ هَمِّهِمْ عَجُّوا إلَى اللهِ مِنْ ذلِكَ، فَقالوا رَبَّنا عَفْوُكَ عَفْوُكَ رُدَّنا إلَى ما خُلِقْنا لَهُ وَأَجْبَرْتَنا عَلَيْهِ، فَإنَّا نخافُ أنْ نصيرَ في أمْرٍ مَريجٍ، فنَزَعَ اللهُ ذلك مِنْ هِمَمِهِمْ،

فَـإذا كانَ يَـومُ القِـيـامـةِ وصارَ أهْـلُ الجنَـةِ في الجنَـةِ اسْـتَـأذَنَ أولـئـكَ الـمَلائِـكَـة على أهْـلِ الـجنَـةِ فيُؤذَنَ لـهُـمْ فيَـدْخـلـونَ عَـلَيْـهِـمْ فيُسَـلِّـمونَ عَلَيْهِـمْ ويَقولونَ لَهُمْ ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِـمَا صَبَرْتُـمْ﴾ في الدُّنْـيا عَنِ اللَّذّاتِ والشَّـهَواتِ الحَلالِ»[٩].

وأما اللذات التخيلية فهي من حيث المرتبة أعلى من اللذات الحسية لوجوه كثيرة، فعلى سبيل المثال حينما يشعر طالب الماء بالإهانة والتصغير عندما يعرض عليه الماء فإنه يرفضه ويتحمل ألم العطش مراعاة لحشمته وعلو نفسه والتي هي آثر عنده من الارتواء بالماء، أو حينما يتنافس البعض على مقاعد الرئاسة والمنصب فإن عرض عليهم المطعوم أو المشروب فإنهم يرفضونه في مقابل التلذذ بالغلبة الوهمية، إلى غير ذلك من الوقائع التي تشير إلى استعلاء اللذات الخيالية والباطنية على اللذات الحسية والظاهرية.

واللذات التخيلية وإن كانت أعلى مرتبة من اللذات الحسية والشهوات المادية إلا أنها الخطر الذي يهدد سير السالك إلى الله ويجعله في مواقف إن لم ينتبه لها ويحذر منها يؤول أمره إلى الوقوع في خطر عظيم لا يسلم منه، ويمكن القول أن جميع اللذّات التخيلية دون شأن السالك والعارف.

ولكن كيف يمكن علاج حب الدنيا والميل إليها بالملذات والشهوات؟!

علاج ذلك بالإكثار من ذكر الله تبارك وتعالى وذكر أسمائه وصفاته الجلالية والجمالية، وكذلك الإكثار من ذكر الموت كما قال سيد المرسلين صلى الله عليه وآله: «أكْثِـروا ذِكْـرَ الـمَـوْتِ فَـإنَّـهُ هـادِمُ (هـاذِمُ) اللَّـذّاتِ حـائِـلٍ بَـيْـنَـكُمْ وبَيْنَ الـشَّـهَـواتِ»[١٠]، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أكْثِـروا ذِكْـرَ المَوْتِ عِنْدَما تُـنـازِعُكُـمْ إلَـيْـهِ أنفُسُكُمْ بالـشَّـهَـواتِ وكَـفَـى بالـمَـوْتِ واعِـظاً»[١١] وما قاله الصادق عليه السلام: «ذِكْـرُ الـمَـوْتِ يُـمـيـتُ الـشَّـهَـواتِ فـي الـنَّـفْـسِ ويَـقْـلَـعُ مَـنـابـتَ الـغَـفْـلَـةِ ويُـقَـوِّي الـقَـلْـبَ بمَـواعِـدِ الله ويَـرِقُّ الـطَـبْـعَ ويَـكْـسِـرُ أعْـلامَ الـهَـوَى ويُـطْـفـئُ نـارَ الـحِـرْصِ ويُـحَـقِّـرُ الـدُّنْـيـا»[١٢]!!

واعلم أيها السالك إلى الله أن الكف عن ملذات الدنيا وعلائقها ومجاهدة النفس بدفعها عن شهواتها توجب صفاء القلب وطهارته، ومع صفاء القلب وطهارته يتوجه الإنسان إلى ربه ويأنس بذكره، ولا يكون ذلك إلا بالمعرفة وكثرة ذكر الله وذكر أسمائه وصفاته الجلالية والجمالية والاستغراق فيها والمواظبة عليها والتخلق بأخلاق الله عزَّ وجلَّ وكمالاته، وذلك بتقليص الحاجات وتقليل اللذات والشهوات وترْك المخالفات وتكثير الخيرات وحسنات الصفات بالعبادات والرياضات حتى تنمو فيه الاستعدادات الإلهية وترتفع الحجب بينه وبين ربه سبحانه وتعالى، فيقر بجهله وفقره وعجزه ونقصه في مقابل العلم والغنى والقدرة والكمال المطلق وتذوب إرادته في إرادة الله وعلمه في علم الله

وقدرتـه في قدرة الله ويسلِّم زمام أمره بيد الله ويكـون الله هو المدبر في بدنه وقلبه وعقله وروحه فيرى بنور الله ويسـمع بسـمع الله ويريد بإرادة الله ولا يشاء إلا ما شـاء الله ويصل إلى مقامٍ يتصرف في عوالم الملك والملكوت بإرادة الله وقدرته وتظهر به المعجزات وخوارق العادات والكرامات.

أتـــَزْعَـــمُ أنـــَّـــكَ جـــــــرْمٌ صَـــغـــيــــرٌ
وفَـــيـــكَ انـْـطَـــوَى الـعَــالَــمُ الأكْـبَـــــرُ
وأنـــْـتَ الـكِـتـــابُ الـمُـبـيــنُ الَّـــــذي
بـــأحْـــرُفِـــهِ يَـظْـهَـــرُ الـمُـضْـمَـــرُ

يقول العرفاء أن لمعرفة الشأن أربع مَراحل:

١- دمـوع الشـوق: فالإنسـان بطبيعته يشـتاق إلى المبدأ الأعـلى والموطن الأصلي وهـو جوار رب العالمين، فيبكـي، وبـكاؤه - وإن كان يخلـو من المعرفة - بكاء شـوق إلى الحبيب، ومع دموع الشـوق يتوجَّه إلى الله عزَّ وجلَّ، وبالمعرفة - وهي أقرب الطرق إلى الله - يُصْقَل هذا التوجُّه ويُرْشـَد السالك إلى الصراط المسـتقيم، ويمكن القول أن دموع الشـوق تنشـأ من توجُّه القلب نحو معرفة صفات الله اللُّطفية وأسمائه الجمالية وتجلِّياته الرحمانية.

ديـــدها از شـــوق او در گريـــه اســـت
نـــالْـهـــا از روى او در مـــويـــــه اســـت
اشـــك وآه مـــن گـــــواه من بس اســـت
شـاهـد اين شـعله آه من بس اسـت[١٣]

٢- دمـوع الخـوف: والخوف من ضروريات حياة السـالك إلى الله، ودموع الخوف تنشـأ من توجُّه القلب نحو معرفة صفات الله القهرية وأسمائه الجلالية.

آب چـشـــم وآتـــش دل بـا هـــم اســـت
ايـــن دو همـــره منفصل از هـــم كـــم اســـت[١٤]

عـن يونس بن يعقوب قال سـمعت الصادق جعفر بن محمدعليه السلام يقـول: مَلْعونٌ مَلْعونٌ كُلُّ بَـدَنٍ لا يُـصـابُ في كُـلِّ أربعيـنَ يـومـاً، قلت: ملعون!! قالعليه السلام: مَـلْـعـونٌ، فلما رأى عِظَم ذلك علي قال لي: يا يونُسَ إنَّ مِنَ البَلِيَّـةِ الخَدْشــَةَ واللَّطْـمَـةَ والعـثْـرَةَ والنَّكْـبَةَ والقَـفْـزَةَ وانـْقِـطـاعَ الـشَّـسْـعِ وأشْـبـاهَ ذلك، يا يونُسَ إنَّ الْمُؤْمِـنَ أكْـرَمُ عَلَى الله تعالَى مِـنْ أنْ يَـمُـرَّ عَلَـيْـهِ أرْبَـعـونَ لا يُمَـحَّـصُ فيها مِـنْ ذُنـوبِـهِ ولَـوْ بِـغَـمٍّ يُـصـيـبُـهُ لا يَـدْري مـا وَجْـهُـهُ، والله إنَّ أحَـدَكمْ لَـيَـضَـعُ الـدَّراهِـمَ بَـيْـنَ يَـدَيْـهِ فـيَـزِنــُها فـيَـجِـدُها نـاقِـصَـةً فـيَـغْـتَـمُّ بذلِـكَ ثـمَّ يَـزِنــُهـا فـيَـجِـدُهـا سَـواءً ذلـك

حَطّاً لِبَعْضِ ذُنوبِهِ[١٥]!!

فإذا كان هذا القدر من الغم والحزن يحطُّ الذنوب والخطايا فكيف بمن يُبتَلى بداهية عظمى ومصيبة كبرى!! فلا تعجب إن قلنا أن للخوف والحزن مقاما رفيعا عند العارفين.

٣- المقام المحمود: بعد معرفة الأسماء الجلالية والجمالية لرب العالمين وتحقق اللذات الروحية يبدأ دور المقام المحمود الذي لا يُنال إلا بإحياء الليالي وصلاة الليل كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[١٦]، وقد ورد عن الإمام أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ ما افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وإنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّافِلَةِ (بالنَّوافِلِ) حَتَّى أحِبَّهُ فإذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بِها إنْ دَعاني أجَبْتُهُ وإنْ سَألَني أعْطَيْتُهُ»[١٧]!! فكيف بصلاة الليل وهي أعظم النوافل وأرفعها شأنا كما بيَّن ذلك الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «ما مِنْ حَسَنَةٍ يَعْمَلُها العَبْدُ إلاَّ ولَها ثوابٌ مُبينٌ في القُرْآنِ إلاَّ صَلاةَ اللَّيْلِ فَإنَّ اللهَ لَمْ يُبَيِّنْ ثوابَها لِعِظَمِ خَطَرِها عِنْدَهُ فقالَ ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾»[١٨]!!

والمقام المحمود - كما اتفقت على تفسيره الروايات من طرق الفريقين - هو مقام خاص وعد الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وآله ليشرِّفه به يوم القيامة دون الخلائق أجمعين، وهو مقام الشفاعة الكبرى له صلى الله عليه وآله، فيحمده عليه الأوَّلون والآخرون، وذلك بعدما يثني رسول الله صلى الله عليه وآله على ربه تعالى بثناء إلهي خاص لم يثْنه عليه من قبل أحد، وبعد الفراغ من الثناء يقال له: سَلْ تُعْطَه واشْفَعْ تُشَفَّع، فيشفع في الشافعين أن يشفعوا، فيشفع الشافعون لمن هو أهل للشفاعة، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وآله أسوة وقدوة للمؤمنين في أقواله وأفعاله كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[١٩] فعلى المؤمنين السالكين إلى الله أن يسلكوا مسلكه وينهجوا نهجه ويتشبَّهوا به قدر المستطاع حتى تستقبل قلوبهم وأرواحهم تشعشعات أنواره القدسية ويسألون الله تعالى أن يبلغهم المقام المحمود الموعود له كما نقرأ في زيارة عاشوراء: «وأسْألُهُ أن يُبَلِّغَني المَقامَ المَحْمودَ لَكُمْ عِنْدَ الله».

ولا غرابة في هذا القول حيث أنه يماثل قول الأئمة عليهم السلام في التخلق بأخلاق الله لا من باب الألوهية والربوبية الخاصة به سبحانه لا شريك له في ذلك ولكن من باب أفعاله الكمالية التي تزيد من القرب إليه والزلفى لديه وكونه مصداقا لقول نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام: «مَنْ يُذَكِّرُكُمُ اللهَ رُؤيَتُهُ»[٢٠]!!

وكما قال صدر المتألهين (قده) في أسفاره: «فـرَسولُ اللهﷺ هُوَ الأَصْـلُ في الوُجـودِ، والمُـؤمِـنـُـونَ بالله تعـالَى والـيَوْمِ الآخِـرِ تـابـِـعُـونَ لَـهُ في المَـقَـامِ المَـحْـمُـودِ، والمُؤمِـنُ مَـنْ صَـحَّـتْ لَـهُ نِـسْـبَـةُ الـتـابـِـعِـيَّــةِ كَـمِــرْآةٍ وَقَـعَــتْ فــي مُـحــاذاةِ مِــرْآةٍ حَــاذَتِ الـشَّــمْـسَ فيَـتَّـحِـدُ مَـعَـهُ فـي الـنـــُّـورِ»[٢١].

٤- مقام التصرف في عالم الوجود: بعد الوصول إلى المقام المحمود ينال السالك مقام التصرف في عالم الوجود لأن إرادته أصبحت في إرادة الله ولا يشاء إلا ما يشاء الله، وهذه هبة إلهية ومنحة ربانية لمن أخلص لله تعالى وخلَّص نفسه من تعلقات الدنيا الدنية وسما بروحه إلى أعلى المراقي المعنوية، فيتصرف في ظاهر العالم وباطنه بل يتصرف في الخيال والتخيل، فيكون مسيطرا على وجوده بحيث يصبح بدنه تابعا لروحه لا العكس، ومن هنا يبدأ مقام طيّ الأرض، وفي شواهد التاريخ أمثلة حية لمن نال هذه المرتبة العلياء من أولياء الله الصالحين كالعارف الرباني والعبقري الإلهي السيد علي القاضي رضي الله عنه - على ما نقله الخواص من تلامذته[٢٢].

وكذلك مقام خلع الروح من البدن، وقد صرَّح الحكيم الإلهي المحقق ميرداماد رضي الله عنه أن الرجل لا يقال له حكيما ما لم تكن لديه مَلَكة التجرد وخلع الروح من البدن «وحَـرامٌ عَلَى الأجْـسـادِ المُظْـلِـمَـةِ أنْ تَــلِـجَ مَـلَـكـوتَ الـسَّـمـاواتِ»[٢٣].

وأكثر من هذا وذاك أن السالك إلى الله في المراتب العرفانية السامية إذا أراد شيئا أن يكون يكون!! ولا عجب في ذلك، فقد ورد في الحديث القدسي أن الله عزَّ وجلَّ قال: «يا ابْـنَ آدَمَ أنا غَـنِـيٌّ لا أفْـتَـقِـرُ أطِـعْـنِـي فيمـا أمَـرْتـُـكَ أجْـعَـلْـكَ غَـنِـياً لا تــَفْـتَـقِـرُ يـا ابْـنَ آدَمَ أنـا حَـيٌّ لا أمـوتُ أطِـعْـنـي فـيـمـا أمَـرْتـُـكَ أجْـعَـلْـكَ حَـيًّا لا تــَمـوتُ يـا ابْـنَ آدَمَ أنــا أقـولُ لِـلـشَّــيْءِ كُـنْ فَـيَـكـونُ أطِـعْــنـي فـيـمـا أمَـرْتـُـكَ أجْـعَـلْـكَ تــَقـولُ لِـلـشَّـيْءِ كُـنْ فَـيَـكـونُ»[٢٤]!!

ومـن المصاديـق القرآنيـة المشـهورة لهـذا المعنـى الآيـة الكريمة: ﴿قَـالَ يَا أَيُّهَـا الْمَـلأُ أَيُّكُـمْ يَأْتِينِي بِــعَـرْشِــهَا قَبْـلَ أَن يَـأْتـُـونِي مُـسْـلِمِيـنَ * قَـالَ عِـفْـرِيتٌ مِـنَ الْـجِـنِّ أَنَــا آتِـيـكَ بِـهِ قَـبْـلَ أَنْ تَــقُــومَ مِـن مَـقَـامِـكَ وَإِنـِّـي عَـلَـيْـهِ لَـقَـوِيٌّ أَمِيـنٌ * قَالَ الَّـذِي عِـنـدَهُ عِـلْـمٌ مِـنَ الْـكِـتَـابِ أَنَــا آتِـيـكَ بِــهِ قَـبْـلَ أَن يَرْتــَدَّ إِلَـيْـكَ طَـرْفُـكَ....﴾[٢٥]!!

وقد قال البعض في تفسير ﴿قَـبْـلَ أَن يَرْتــَدَّ إِلَـيْـكَ طَـرْفُـكَ﴾ أي قبل انضمام جفني العينين بعد فتحهما للنظر، ولكن السيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه جاء بمعنى أدق وألطف في تفسيره حيث قال: إن الطَّـرْف على ما قيل هو اللحْظ والنظر، وارتداد الطَّرْف وصول المنظور إليه إلى النفس وعِلْم الإنسان به، والمراد أنا آتيك به في أقل من الفاصلة الزمانية بين النظر إلى الشيء والعلم به!!

وقال أحد الكُمَّل من مشايخ العرفان: «وأما فضلُ العالِمِ مِنَ الصِّنْفِ الإنسانيِّ عَلَى العالِمِ مِنَ الجنِّ بأسْرارِ التصْريفِ وخَواصِّ الأشياءِ فَمَعْلومٌ بالقَدْرِ الزَّمانيِّ، فَإنَّ رُجوعَ الطَّرْفِ إلَى الناظِرِ بِهِ أسْرعُ مِنْ قِيامِ القائِمِ مِنْ مَجْلِسِهِ، فكانَ عَيْنُ قَوْلِ آصِفِ بْنِ بَرْخِيا عَيْنَ الفِعْلِ في الزَّمَنِ الواحِدِ».

ثم قال في تفسير انتقال عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في لحظة واحدة: لَمَّا كانَ تحقُّقُ الموجوداتِ في عالَمِ الوجودِ مُتَعَلِّقاً بتَجَلِّياتِ الحَقِّ تعالَى وفُيوضاتِهِ فَقَدِ انْقَطَعَ الفَيْضُ الخاصُّ بوجودِ العَرْشِ في اليَمَنِ وتَحَقَّقَتِ الإفاضَةُ عِنْدَ سَيِّدِنا سُليمانَ عليه السلام في فِلِسْطينَ، أوْ بمَعْنى آخرَ أنَّ الَّذي حَدَثَ هوَ خَلْقٌ جَديدٌ لِلْعَرْشِ، أيْ إعْدامٌ لَهُ في مَكانِهِ الأصْلِيِّ وإيجادٍ لَهُ في مَجْلِسِ سُلَيْمانَ، وعَلَى هذا لا يُمْكِنُ القَوْلُ أنَّ انْتِقالَ العَرْشِ كانَ بنَحْوِ «طَيِّ الأرْضِ» بَلْ بنَحْوِ «الإيجادِ بَعْدَ الإعْدام»، فتأمل!!

وهذا مقام من ﴿عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾، فكيف بمن ﴿عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ كلِّه!!

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[٢٦]!! وقد وردت أحاديث من أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الآية نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان أعلم الأمة بكتاب الله تعالى، فعن أبي سعيد الخدري أنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال صلى الله عليه وآله: ذلكَ وَصِيُّ أخي سُلَيمانَ بْنِ داوُد، فقلت له: يا رسول الله فقول الله ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؟! قال صلى الله عليه وآله: ذاكَ أخِي عَلِيُّ بْنُ أبي طالِبٍ[٢٧]!!

هذا هو شأن الإنسان ومقامه الذي خلقه الله عزَّ وجلَّ من أجله، فمن عرف شأنه ومقامه وبذل ما أعطاه الله تعالى من المال والصحة والعلم والعزة في سبيل الله ورضاه أبدله الله تعالى من الأموال أضعافا مضاعفة ومن القوة الروحانية ما تتحقق بها المعجزات والكرامات ومن العلم اللَّدُنيِّ ما يرفع به مقامه وشأنه ومن العزة الحقيقية الخالدة السرمدية التي لا ذلة بعدها أبدا في داري الدنيا والآخرة.

ويقول العرفاء أن آفة معرفة الشأن معاشرة الأضداد، فكل شيء كان ضد شأنيَّة العارف والسالك إلى الله فهو آفة تهدم البناء الذي بناه الإنسان وكان أساسه الإيمان والإخلاص.

وبعد معرفة الشأن كيف لا ندخل في مكتب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام والتابعين لهم الذين عرفوا شأنهم ووصلوا إلى تلك المقامات ونالوا من الله الدرجات!!

قال الراوي: لما أُلحِد أمير المؤمنين عليه السلام وقف صعصعة بن صوحان العبدي رضي الله عنه على القبر ووضع

إحدى يديه على فؤاده.... (فقد يكاد يتفطر فؤاده من شدة وقْع المصيبة عليه، لأنه عرف شأنه وشأن مولاه أمير المؤمنين عليه السلام وعرف أن في هذا اليوم يُدفَن قطب المعرفة والعرفان)[٢٨].... والأخرى قد أخذ بها التراب ويضرب به رأسه ثم قال: «بأبي أنْتَ وأمِّي يا أميرَ المُؤمنينَ، هَنيئاً لكَ يا أبا الحَسَنِ، فَلَقَدْ طابَ مَوْلِدُكَ وقَوِيَ صَبْرُكَ وعَظُمَ جِهادُكَ وظَفَرْتَ بِرَأيِكَ ورَبِحَتْ تِجارَتُكَ وقَدِمْتَ عَلَى خالِقِكَ فَتَلَقَّاكَ اللهُ بِبَشارَتِهِ وحَفَّتْكَ مَلائِكَتُهُ واسْتَقْرَرْتَ في جَوارِ المُصْطَفَى فأكْرَمَكَ اللهُ بجِوارِهِ ولَحِقْتَ بدَرَجَةِ أخيكَ المُصْطَفَى وشَرِبْتَ بكَأسِهِ الأوْفَى فَأسْألُ اللهَ أنْ يَمُنَّ عَلَيْنا باقْتِفائِنا أثَرَكَ والعَمَلِ بسيرَتِكَ والمُوالاةِ لأوْلِيائِكَ والمُعاداةِ لأعْدائِكَ وأنْ يَحْشُرَنا في زُمْرَةِ أوْلِيائِكَ فَقَدْ نِلْتَ ما لَمْ يَنَلْهُ أحَدٌ وأدْرَكْتَ ما لَمْ يُدْرِكْهُ أحَدٌ وجاهَدْتَ في سَبيلِ رَبِّكَ بَيْنَ يَدَيْ أخيكَ المُصْطَفَى حَقَّ جِهادِهِ....»، وأخذ يعدِّد مناقبه وفضائله عليه السلام واحدة تلو الأخرى، ثم بكى بكاء شديدا وأبكى كل من كان معه، ثم عدلوا إلى الحسن والحسين ومحمد وجعفر والعباس ويحيى وعون وعبدالله عليهم السلام فعزُّوهم في أبيهم صلوات الله وسلامه عليه[٢٩].

لقد دخل صعصعة بن صوحان رضي الله عنه وأمثاله من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام في مكتب مولى الموحدين وقطب العارفين عليه السلام فاستمدوا من فيوضات أنواره وتلَقَّوا من إشراقات معارفه وعرفوا شأنه عند الله تعالى ومنزلته وشأنهم ومنزلتهم عنده حتى لم يجدوا في أنفسهم حرجا في أن يتكلموا مع روحه الطاهرة الزكية بعد استشهاده.

الهوامش

(١) تفسير الميزان: مجلد ١٠ ص ٨٧
(٢) تفسير بيان السعادة (للجنابذي): مجلد ٢ ص ٣٠٨ ط ٢
(٣) من دعاء الإمام زين العابدين الذي علّمه أبا حمزة الثمالي والمشهور باسمه.
(٤) بحار الأنوار: ج ٥١ ص ٢٥٨، أصول الكافي: ج ٢ ص ١٣٠
(٥) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٣٠٧، تحف العقول: ٥٠٣
(٦) تفسير كنز الدقائق: مجلد ٣ ص ٦٧، الكافي: ج ٨ ص ١٢٩
(٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٢٧٥
(٨) أصول الكافي: ج ٢ ص ٣١٩، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٢٠
(٩) تفسير العياشي: مجلد ٢ ص ٢١٠ ط طهران، ومنه بحار الأنوار: ج ٨ ص ١٤١
(١٠) أمالي الشيخ المفيد: المجلس ٣١ ص ٢٦٤ ومنه بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٣٢، هَذِم: غيَّب أو قطع
(١١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٦ ص ٦٩، أمالي الشيخ المفيد: المجلس ٣١ ص ٢٦٤
(١٢) بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٣٣
(١٣) أبيات لصدر المتألهين الشيرازي (قده)، وترجمتها:

العيون من شدة الشوق إليه باكية
والنايات* من جماله نائحة
تكفيني دموعي وزفراتي دليلا عليَّ
وشاهدي على هذه الشعلة زفراتي

* (النايات: جمع ناي وهي آلة موسيقية)

(١٤) بيت لصدر المتألهين الشيرازي (قده)، وترجمته:

دمعة العين ونار القلب متلازمتان
ويندر أن تنفصلا عن بعضهما

(١٥) بحار الأنوار: ج ٧٦ ص ٣٥٤
(١٦) سورة الإسراء: آية ٧٩
(١٧) مستدرك الوسائل: ج ٣ ص ٥٨، أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٥٢، محاسن البرقي: ص ٢٩١، رياض الصالحين (للنووي): ص ٦٣
(١٨) مستدرك الوسائل: ج ٦ ص ٣٣٣، والآية ١٧ من سورة السجدة: ﴿تَتَجافَى جُنوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنفِقونَ * فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٩) سورة الأحزاب: آية ٢١

(٢٠) قال الحواريون لعيسى عليه السلام: يا روح الله من نجالس؟ قال عليه السلام: «مَنْ يُذَكِّرُكُمُ اللهَ رُؤيَتُهُ ويَزيدُ في عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ ويُرَغِّبُكُمْ في الآخِرَةِ عَمَلُهُ» - أصول الكافي: ج١ ص٣٩، مستدرك الوسائل: ج١ ص٤٠٠

(٢١) الأسفار: مجلد ٧ ص ٢٢

(٢٢) سنذكر طرْفا من هذا المقام للسيد علي القاضي (قده) في المنزل التالي.

(٢٣) تاريخ ابن خلكان: ج ٣ ص ٢٥٨

(٢٤) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٧٦

(٢٥) سورة النمل: آية ٣٨ - آية ٤٠

(٢٦) سورة الرعد: آية ٤٣

(٢٧) بحار الأنوار: ج ٣٥ ص ٤٢٩، وقد سئل أبوعبدالله عليه السلام عن الذي عنده علم من الكتاب أعلم أم الذي عنده علم الكتاب، فقال عليه السلام: ما كانَ عِلْمُ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ عِنْدَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ إلاَّ بِقَدْرِ مَا يَأخُذُ بَعُوضَةٌ بِجَناحِها مِنْ ماءِ البَحْرِ - تفسير علي بن إبراهيم القمي: مجلد ١ ص ٣٦٧، وعن بريد بن معاوية قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام في قوله ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ﴾ قال عليه السلام: إيَّانا عَنَى وعَلِيٌّ أوَّلُنا وأفْضَلُنا وخَيْرُنا بَعْدَ النبِيِّ صلى الله عليه وآله - أصول الكافي ج ١ ص ٢٢٩

(٢٨) ما بين المعقوفتين تعليق المؤلف

(٢٩) بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ٢٩٥

المنزل (٢٢)

مَعْرِفَةُ دَارِ المَقَرِّ عِنْدَ المُحِب

لا نجد شيئا من خـلْق الله تعالى جاء مـن العدم إلى الوجود من محسوسـات ومعقولات وكليَّات وجزئيات إلا وله حركة جِبِلِّية نحو البقاء والدوام، والحركة ليست إلا الخروج من القوة إلى الفعلية، أو بمعنى آخر السير حسب القابلية والاستعداد والشرف والفضيلة طلبا للرقي والكمال وتوجها إلى الجمال الأعظم والنور الأبهر والخير المحض الذي تتشوق إليه كل الممكنات وتنتهي إليه كل الحقائق وهو الحق تبارك وتعالى الغني بالذات والمنزَّه عن كل عيب ونقص جلَّ ذكره وعز شأنه.

والحركة بلا هدف أمر محال، ومعرفة الهدف والمقصد من ضروريات الحركة والتوجه إليه، فلا يزال الشيء في حركة دائمة وتحوُّل مستمر حتى يصل إلى الهدف والمقصد فيسكن ويستقر، وإذا لم يكن في الهدف قرار وثبات فليس هو الهدف النهائي والمقصد الغائي بل هدف متوسط ومسير بين المبدأ والغاية والذي هو بذاته - كما هو الحال لسائر الأغراض الجزئية والغايات العَرَضية - في سير نحو الغاية الحقة والكمال المطلق كما نطق بذلك القرآن المجيد: ﴿أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[1].

والإنسان - وهو شيء من الأشياء التي خلقها الله تبارك وتعالى - في حركة دائمة واضطراب مستمر وتوجه إلى الغاية ومعاد إلى المبدأ حتى يصل إلى دار المقر، ومتى ما وصل إلى دار المقر هدأ واستقر.

والسالك إلى الله تعالى في سير طولي دائم ومعراج مستمر نحو الكمال المطلق بقطع المراحل وطي المنازل حتى يصل بقوة السلوك ونور العرفان إلى المطلب الأعلى والهدف الأقصى وهو مجاورة المعبود المتعال ومشاهدة جمال ذي الحسن والجمال.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم أن الحركات كلها تؤول إلى الانتهاء يوم القيامة

وعرَّف الآخرة أنها دار القرار كما جاء في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿.... وإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[٢]، والقرار مصدر أريد به المقر مبالغة، وجاء بكلمة ﴿هِيَ﴾ للتأكيد على أن الآخرة هي دار القرار دون سواها، وما كان قبل الآخرة فليس بدار قرارٍ ومقرٍّ بل دار عبورٍ وممرٍّ، ولذا سبق في مقدمة الآية بقوله: ﴿.... إنَّمَا هذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ....﴾[٣].

وقد وصف سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿.... إنَّمَا هذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾: «أنه السَّنادُ الَّذي يسْتَنِدُ إليهِ سُلوكُ سَبيلِ الرَّشادِ والتَدَيُّنُ بدينِ الحقِّ لا غِنَى عنهُ بحالٍ وهو الاعتقادُ بأنَّ للإنسانِ حَياةً خالدَةً مُؤَبَّدَةً هي الحياةُ الآخرَةُ وإنَّ هذِهِ الحياةَ الدُّنْيا مَتاعٌ في الآخِرَةِ ومُقَدِّمَةٌ مَقْصودَةٌ لأجْلِها»[٤].

وكذلك قوله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿.... وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٥]، فالله تبارك وتعالى ينبئ عباده أن الاستقرار في الأرض في حدٍّ محدود، ومتاعه إلى أجل معدود، والبقاء فيه غير مقصود، ولا نسبة بين المتناهي واللامتناهي، ليزول بذلك اللبس والعماية عن الذين سلكوا في الحياة الدنيا إلى الغايات المجازية والمبالغ الوهمية وقصرت مساعيهم في تشييدها وعمارتها فاتخذوها دارا للمقر بلا بصيرة قلب ولا دراية عقل إلى أن يأتيهم الموت بغتة فيفسد عليهم دنياهم وآخرتهم.

قال سيد المرسلين صلى الله عليه وآله: «ما لي والدُّنْيا إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنْيا كمَثَلِ راكِبٍ مَرَّ للقَيْلولَةِ في ظِلِّ شَجَرَةٍ في يَوْمِ صَيْفٍ ثُمَّ راحَ وتَرَكَها»[٦]!!

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ أهلَ الدُّنْيا كرَكْبٍ بَيْنا هُمْ حُلُولٌ إذ صاحَ بهم سائِقُهُمْ فارتَحَلُوا»[٧]!! وقال عليه السلام محذِّرا: «وأحَذِّرُكُمُ الدُّنْيا فإنَّها دارُ قُلْعَةٍ وليسَتْ بدارِ نُجْعَةٍ، دارٌ هانَتْ على رَبِّها فخَلَطَ خَيْرَها بشَرِّها وحُلْوَها بمُرِّها لَمْ يَرْضَها لأوليائِهِ ولَمْ يَضْنِ بها على عبادِهِ»[٨]!!

وعن الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال يوما لأصحابه: «أوصيكُمْ بدارِ الآخِرَةِ ولا أوصيكُمْ بدارِ الدُّنيا فإنكُمْ عليها حَريصُونَ وبها مُتمَسِّكونَ، أمَا أبْلَغَكُمْ ما قالَ عيسَى بْنُ مَرْيَمَ عليه السلام للحَوارِيِّينَ!! قالَ لهمْ الدُّنيا قَنطَرَةٌ فاعْبُرُوها ولا تعَمِّرُوها»، وقال عليه السلام: «أيُّكُمْ يَبْني على مَوْجِ البَحْرِ داراً تِلْكُمُ الدَّارُ الدُّنيا فلا تتَّخِذوها قَراراً»[٩]!!

وهناك شواهد كثيرة من القرآن الكريم تدل على مجازية الحياة الدنيا وتوسطها بين المبدأ والمعاد، كقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[١٠]، وقوله تعالى: ﴿.... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ

﴿وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[١١]، فعلى الإنسان أن يعرف العوالم السابقة لنشأته في عالم الدنيا والمادة والطبيعة والعوالم اللاحقة لها.

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «رَحِمَ اللهُ امْرِءاً عَرَفَ مِنْ أَيْنَ وفي أَيْنَ وإِلَى أَيْنَ».

ويفسر صدر المتألهين (قده) الحديث العَلَوي بقوله: فالأين الأولى إشارة إلى حال النفس قبل الكون والثانية إلى ما مع الكون والثالثة إلى ما بعد الكون[١٢]، ويقول الحكيم السبزواري(قده) في تعليقه: الأين الأول إشارة إلى المبدأ في قوله تعالى: «كانَ اللهُ ولَمْ يَكُنْ مَعَهُ شيءٌ»[١٣] وهو قوس النزول والهبوط والأين الثاني إشارة إلى المنتهى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[١٤] وهو قوس العروج والصعود والأين الثالث إشارة إلى يوم الوسط ويوم السير في قوله تعالى: ﴿....فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا....﴾[١٥] وهو يوم التدبُّر في آيات الله جلَّ سلطانه وبهر برهانه[١٦]، فالدنيا دار غرور كتب الله تعالى لها الفناء والدثور ولم يؤمر الإنسان بعمارتها والركون إليها بل أمر بجوازها وتركها وعدم استعظامها لأنها دار هدم وخراب والتأهب لدار النشور فهي العامرة التي لا تخرب والباقية التي لا تنفد.

روزي كه پيشگاه حقيقت شود بديد
شرمنده رهروى كه عمل بر مجاز كرد[١٧]

قال بعض العارفين: «لو كانت الدنيا ذهباً فانياً والآخرةُ خَزَفاً باقياً كانت الآخرةُ خيْراً من الدنيا، فكيف والدنيا خَزَفٌ فانٍ والآخرةُ ذهبٌ باقٍ»[١٨]!!

من هنا يرى العارفون أن آفة معرفة دار المقر هي دار الممر، ويا حسرة على العباد الذين زيَّن لهم الشيطان الدنيا ليجرَّهم إلى حبها والميل إلى زينتها وليشتغلوا بمتاعها ومشتهياتها عن ذكر الله، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[١٩]، فسولت لهم أنفسهم واتبعوا أوهامهم ورضوا بالحياة الدنيا وركنوا إليها ظانين أنهم يخلدون فيها واتخذوها دار مقر وكانوا عن دار الآخرة غافلين، فكان أن قال لهم ربهم: ﴿....اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[٢٠]!!

وأما السالك إلى الله فإنه يشعر بالغربة في الدنيا والبعد عن دار القرار ومحال القدس وموطن القرب من الحق تعالى فيصرف همته في طلبها والرحيل إليها، ولذا ترى الخواص من الناس يرغبون في الخلوة للمناجاة مع الله عزَّ وجلَّ والبَون عن الخلق بباطنهم وسريرتهم، ويتفكرون دوما في صنع الله ومحاسن تصويره وبدائع خلقه وفسيح ملكوته، ولا يكونون كالذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا

بها، بل يتقربون بالمعارف الإلهية إلى الله تعالى بالشوق والأنس والسرور حتى تكره نفوسهم البقاء في هذه النشأة المجازية، وتتمنى الخروج منها إلى دار الآخرة وهي دار البقاء ومحل المشاهدة واللقاء وجوار الله تبارك وتعالى في منازل الرحمة ومواقع البركة، فما كان تعبهم في الدنيا للدنيا بل لنيل سعادة الآخرة ونعيم عقبى الدار كما أشار إلى ذلك مولانا علي بن الحسين عليه السلام في قوله: «ما تَعِبَ أولياءُ الله في الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا بَلْ تَعِبُوا في الدُّنْيَا لِلآخِرَةِ»[٢١]، فكانوا خير المصاديق لَقول مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام: «صَحِبُوا الدُّنْيَا بأبْدانٍ أرْواحُها مُعَلَّقَةٌ بالمَحَلِّ الأعْلَى»[٢٢]!!

تا نسوزى در فراق روى يار
كى بود جاى تو در دار القرار[٢٣]

واعلم أيها السالك إلى الله أن الحياة في الدنيا تكون حقة إذا كانت مقدمة موصلة لنيل خير الآخرة، وقد قال مولانا علي المرتضى عليه السلام: «إنَّمَا الدُّنْيَا دارُ مَجازٍ والآخِرَةُ دارُ قَرارٍ فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ»[٢٤]، وقال مولانا أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «نِعْمَ العَوْنُ عَلَى الآخِرَةِ الدُّنْيَا»[٢٥]، فالدنيا مزرعة الآخرة، من زرع فيها خيرا جنى في الآخرة خيرا ومن زرع فيها شرا جنى شرا.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤمِنِ وجَنَّةُ الكافِرِ والمَوْتُ جِسْرُ هؤلاءِ إلَى جِنانِهِمْ وهؤلاءِ إلَى جَحِيمِهِمْ»[٢٦]، فالدنيا دار تكليف وعمل والآخرة دار جزاء بلا عمل ونعوذ بالله من دنيا تمنع خير الآخرة وسعادتها.

وقد وصف أهل الله الدنيا أنها دار تجارة تُباع فيها النفوس وتُشترى، والكل فيها تاجر بنفسه لا تخلو تجارته من كسب أو خسارة كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «الدُّنْيَا دارُ مَمَرٍّ إلَى دارِ مَقَرٍّ والنَّاسُ فِيها رَجُلانِ رَجُلٌ باعَ نَفْسَهُ فأوْبَقَها ورَجُلٌ ابْتاعَ نَفْسَهُ فأعْتَقَها»[٢٧]!!

وعلى هذا الأساس ينقسم الناس في تجارة أنفسهم في الحياة الدنيا إلى طائفتين:

الطائفة الأولى

وهم أهل الدنيا والغفلة الذين أخطأوا دار المقر وفرحوا بالدنيا وركنوا إليها، فباعوا أنفسهم في مقابل الهوى والشهوات الزائلة واللذات الداثرة، وهي متاع يتمتعون به أياما قلائل: ﴿... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾[٢٨] وهم عن الآخرة غافلون

﴿.... ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ....﴾[٢٩] وهي الباقية الأبدية: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[٣٠]، مع العلم أن الإنسان بطبعه يجتهد أن لا يبيع المادة في أسواق الدنيا إلا بما يعود عليه بالربح والفائدة ويخاف أن يتركها خشية كسادها، ولكن انظر إلى هؤلاء كيف باعوا أنفسهم بأبخس الأثمان وقد قال الله تعالى في شأن الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ....﴾[٣١]، وكانوا عبادا أذلاء للقوى الشهوية والغضبية والسبعية ومنقادين لأغراضها وأمانيها ففسدت معاملتهم وكسدت تجارتهم التي ذمَّها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «ولَبِئْسَ المَتْجَرِ أن تَرَى الدُّنْيا لنَفْسِكَ ثَمَناً»[٣٢]، فكانت العاقبة فساد أنفسهم وتَبارها: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٣٣]!!

فيا حسرة على العباد الذين أبدلوا دار المقر بدار الممر فكان جزاؤهم الضلال والخسران المبين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٣٤]، بل أشد من ذلك ابتلاؤهم بالخذلان والعذاب الأليم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[٣٥]!!

الطائفة الثانية

وهم أهل الآخرة الذين ابتاعوا أنفسهم وأعتقوها من رق الدنيا وخلَّصوها من أسر الهوى وأخرجوها عن مقارها الحيوانية وأنجوها من مألوفاتها الشهوانية ابتغاء مرضات الله، ثم دخلوا في معاملة رابية مع الله وباعوا أنفسهم من الله لا لهوى نفسي ولا لغرض مادي بل قربة خالصة إلى الله تعالى، فقبلها منهم ربهم بأحسن القبول واشتراها منهم خير شراء وأمضى لهم ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ....﴾[٣٦].

ولكل بيعٍ بائع ومشتري وسلعة وثمن، فالبائع هو المؤمن العارف بالله، والسلعة هي الأنفس والأموال، فماذا يكون الثمن في مثل بيعٍ يكون المشتري فيه هو الله عزَّ وجلَّ؟!

الثمن ما وعدهم الله تعالى بوعده القطعي في قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ....﴾، ولكن أية جنة يبتغيها العارف بالله؟! هل هي جنة الحور والقصور!! أم جنة الأُكُل والنَّهَر!! أم جنة الحرير واللؤلؤ والفضة!!

العارف وغير العارف في ما ينعم الله تعالى عليهما من الجنة المحسوسة على السواء، ولكن العارف يفوز بما يزيد على غير العارف بالجنة المعنوية، فله الجنتان، قال تعالى: ﴿... وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[٣٧] وهي جنة القرب، جنة الأنس، جنة الزلفى، جنة اللقاء، جنة الوصال، بل أعظم من ذلك، أن جنته خالق الجنة الذي قال فيه تعالى سيد الساجدين عليه السلام: «يا نَعِيمِي

وجَنـــَّــتـــي ويـــا دُنْـــيـــايَ وآخِـــرَتـــي»[٣٨]، وتلك هـي التجارة الرابحـة المنجيــة، كيف لا وقد هنـأهم ربهم بذلك البيع وبشَّرهم به ووصفه بالفـوز العظيـم: ﴿.... فَاسْتَــبْشِرُوا بِــبَيْـعِكُمُ الَّذِي بَايَـعْـتُـمْ بِــهِ وَذَلِـكَ هُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِـيـمُ﴾[٣٩]!!

فاعلم أيها السالك إلى الله – وهذا أمر غاية في الدقة – أن في المعاملات الدنيوية يكون كل من البائع والمشـتري والسلعة والثمن مسـتقلا عن الآخر، وأما في المعاملات الأخروية فتكون السلعة هي نفس البائع وهو العارف بالله والثمن هو المشتري وهو الله سبحانه، أليس الله تعالى يقول في حديثه القدسي: «الـصَّـوْمُ لي وأنـَا أُجْـزَى بِــهِ»[٤٠]!!

وقد تتساءل وتقول: إن الله تَبارك وتعالى هو مالك الْمُلْك يؤتي الْمُلْك من يشاء وينزع الْمُلْك ممن يشاء فكيف يكون هو المشتري لما يملك والمشتري إنما يشتري لما لا يملك؟!

نعـم، ذلـك ليس ببعيد عمن هو لطيـف بعباده أن يأتيهم بصورة المشـتري للأنفس والأموال وهو مالكهـما ومالـك كل شيء حتى يثبت لهم الجزاء ويضمن لهم الثـواب ويَمُنَّ عليهم بالعطية، فأي تنزُّل أعظم من التنزُّل الإلهي الموصوف بالرأفة والرحمة!!

ثـم يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لَـيْـسَ لأنـفُـسِـكُـمْ ثـَـمَـنٌ إلا الـجَـنـَّـةُ فَـلا تـَـبَـيـعـوهـا إلا بــِـهـا»[٤١] فـكل بيـع لم تكن فيـه الجنة للنفس ثمنـا كان بيعا خـاسرا والبائع فيه مغبـون والثمن خسـيس، ومثل هذه المعاملة الرخيصة لا تكون إلا نتيجة الغفلة والجهل والغور في الذنوب والمعاصي المهلكـة التي تعمـي القلوب وتحجبها عـن معرفة النفس وحقيقتهـا وتقدير ثمنهـا والغاية في خلقها، وبالتالي بيعها بالشهوة والهوى ودراهم معدودة.

وفي أبيات منسوبة إلى الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

أُثـامِـنُ بـالـنـفـسِ الـنـفـيـسـةِ ربَّـهـا
فـلـيـس لـهـا فـي الـخَـلْـقِ كـلِّـهـم ثـمَـنُ
بـهـا تـُشْـتَـرَى الـجَـنـَّاتُ إنْ أنـا بـعْـتُـهـا
بـشَـيءٍ سِـواهـا إنَّ ذِلِـكُـمْ غَـبْـنُ
إذا ذهَـبَـتْ نـفْـسي بـدُنْـيـا أصَـبْـتُـهـا
فَـقَـدْ ذهَـبَـتْ نـفْـسي وقَـدْ ذهَـبَ الـثـَّـمَـنُ

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام على أتم المعرفة لهذه المفاهيم والمقادير والموازين، ولذا قالوا عليهم السلام: «مَـنْ عَـرَفَ نفْـسَـهُ فَـقَـدْ عَـرَفَ رَبَّـهُ»[٤٢]، وقالوا عليهم السلام: «مَـعْـرِفَـةُ الـنـَّـفْـسِ أنـْـفَـعُ الـمَـعـارِفِ»[٤٣]، فمن عرف نفسه عرف شأنها وثمنها وعرف كيف يبيعها ولمن يبيعها.

وعلى هذا فجنة العارف هي جنة القرب واللقاء وجوار الله تعالى في دار المقر وتجلي أنوار جماله سبحانه في رياض القدس بصورة دائمة متوالية، وناره نار البعد والهجران، وليس أشد على العارف المحب لله من ألم فراق محبوبه والبعاد عن جواره، فتقربه إلى الله كرامة وبعده عنه إهانة، فتراه لا يطيق لذلك صبرا ويردد ما قاله مولاه أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه الملكوتي: «فَهَبْني يا إلهي وسيِّدي ومَولاي ورَبِّي صَبَرْتُ على عَذابِكَ فكَيْفَ أصْبِرُ على فِراقِكَ وهَبْني يا إلهي صَبَرْتُ على حَرِّ نارِكَ فكَيْفَ أصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إلى كَرامَتِكَ»[٤٤]!!

يا عباد الله، متى كان حب العبد لمولاه عزَّ وجلَّ دون حب من كان مخلوقا مثله وهو يرى تقلُّب الأزمان وأثرها على الوجوه الحسان والجسوم والأبدان ويتدبر آيات القرآن حيث يقول المولى عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[٤٥]!! فالمحب الحقيقي من فنى في حب مولاه بشهود جماله الأزلي وحسنه الأبدي وكماله السرمدي فلم يَرْضَ بحبه بدلاً، بل لا يتصور فراقه وهجْره أبدا.

وقد يكون العبد ممتثلا لأوامر الله تعالى بالطاعة فيكون من أهل القرب والسعادة أو مخالفا لها بالمعصية فيكون من أهل البعد والشقاء، وقد صنَّف الله تبارك وتعالى عباده في منازل الآخرة إلى أصناف ثلاثة المقرَّبين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فأما أصحاب الشمال فهم أصحاب الشؤم الضالون المنكرون والمكذبون الجاحدون الذين تؤول عاقبتهم إلى الشقاء في عذاب الجحيم، وأما أصحاب اليمين فهم المتوسطون بين الصنفين الآخرين وهم أهل السلامة من الأمراض النفسانية والأخلاق الذميمة وأصحاب اليُمن والسعادة ولكن في مراتب دانية أو متوسطة، وأما المقرَّبون فهم أصحاب النفوس المطمئنة الذين سبقوا أفراد نوعهم في السلوك إلى الله تعالى والرجوع إليه بكمال الحب إليه ففازوا بقربه كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ *﴾[٤٦]، فالزاهد من شأنه تجنب المحرمات خوفا من عذاب النار وحريقها والعابد من شأنه الالتزام بالواجبات طمعا في كرامة الجنة ونعيمها وأما العارف بالله الذي يرى الله تعالى أهلا للعبادة ومالكا لكل إرادة يعبده عبودية راسخة يريد به وجهه ويعمل عملا صالحا حبا وكرامة يرضي به ربه فيطهِّر قلبه من كل تعلُّق بغير الله سبحانه وتعالى ويقصر تعلُّق قلبه بالله وبما ينسب إليه من نبي أو ولي أو عمل صالح أو أمر حسن ممدوح عند الله تعالى، فمن أحب شيئا أحب آثاره، ومن ثم يصبح وليا من أولياء الله الذين خصَّهم في دار القرار بالسعادة القصوى وجنة نعيم.

ويقول العلامة الطباطبائي (قده) أن النعيم بحقيقة معناه في القرآن الكريم هو الولاية الإلهية وأن جنة النعيم هي جنة الولاية، فالمقرَّبون هم أهل ولاية الله.

ويقول صدر المتألهين الشيرازي (قده): «وإنْ غَلَبَ عليه رَجاءُ يومِ الآخِرَةِ والميلُ إلى ما وعَدَه اللهُ ورسولُهُ من الجنَّةِ ونعيمِها وسرورِها وحورِها وقصورِها والخوفُ مِنْ عَذابِ الآخِرةِ ونارِ جهنَّم وآلامِها والعَمَلُ بمُقْتَضَى الوَعْدِ والوَعيدِ فمَآلُهُ الوصولُ إلى نَعيمِ الجنَّةِ والخلاصُ من عذابِ النارِ، وإنْ غَلَبَت عليه القوَّةُ العقليَّةُ واستكمَلَت بإدْراكِ العقْليَّاتِ المَحْضةِ والعِلْمِ باليقينيَّاتِ الحقيقيَّةِ مِنْ طريقِ البراهينِ والأسْبابِ العَقْليَّةِ الدائِمَةِ فمآلُهُ إلى عالَمِ الصُّوَرِ الإلهيَّةِ والمُثُلِ النوريَّةِ والانْخِراطُ في سِلْك المقرَّبين والقيامُ في صَفِّ الملائِكَةِ العِلِّيِّين بشَرْطِ أنْ تكونَ عَقائِدُه مَشْفوعةً بالزهْدِ الحقيقيِّ خالِصَةً عَنْ أغْراضِ النفْسِ والهَوَى وعَنْ مُشْتَهَياتِ الدُّنْيا فارِغَةً عَنْ جَميعِ ما يشْغَلُ سِرَّهُ عَنِ الحَقِّ وذلك هُوَ الفَضْلُ العَظيمُ والمَنُّ الجَسيمُ»[(٤٧)]!!

وإلى هذا المعنى أشار بابا طاهر العريان في بعض كلماته: «التقرُّبُ إلى الله تعالى ببَذْلِ الدنْيا فِعْلُ الصَّالِحينَ والتقَرُّبُ إلى الله تعالى ببَذْلِ النفْسِ فِعْلُ المُريدِينَ»!!

وقال شارح هذه الكلمات أبو المعالي الهمداني الملقب بعين القضاة: «أرادَ بالصالحين أهْلَ الشريعةِ الَّذينَ أعْجَزوا ظاهِرَهُمْ وباطِنَهُمْ بالصَّلاحِ، وبالمُريدينَ أهْلَ الطَّريقَةِ الَّذين خَرَبُوا وجودَهُمْ بكَسْرِ النَّفْسِ وإفْناءِ حُظوظِها».

قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «ما كُنْتُ إلا كقارِبٍ وَرَدَ وَطالِبٍ وَجَدَ»[(٤٨)]، والقَرَب طلب الماء ليلا، ولا يقال ذلك لطالب الماء نهارا، وقيل أن القارب الذي يسير إلى الماء وقد بقي بينه وبينه ليلة واحدة، وقال الأصمعي: قلت لأعرابي ما القَرَب؟! فقال: سير الليل لِوِرْد الغد، وليلة القَرَب هي الليلة التي يصبحون منها على الماء، وعلى هذا وصف أمير المؤمنين عليه السلام نفسه أنه وصل إلى صبح لقاء محبوبه الأزلي بطلوع شمس الوصال، كيف لا وهو صاحب الكلمة النورانية العرشية: «لَوْ كُشِفَ الغِطاءُ ما ازْدَدْتُ يَقيناً»[(٤٩)]!!

وهنا نشير إلى نقطة عرفانية دقيقة وهي أن كل بائع حينما يريد البيع لابد أن يرى المشتري ليبيعه سلعته،كذلك في بيع الأنفس، فالعارف بالله حينما يعرض سلعته وهي نفسه في معرض البيع لابد أن يصل إلى المقام الذي يرى فيه ربه تبارك وتعالى بما يَرِد عليه في هذه الدار من تجليات جماله ونور قدسه وإشراقات وجهه وما يحصل له من المعارف الإلهية، ومن ثم ينعقد البيع وتتم الصفقة، وهذا المقام الأسنى والمرقى الأعلى عزيز لا يناله إلا الأوحدية من عباد الله!!

نرجو من الله تعالى أن يرزقنا التوفيق في طاعته والعمل الصالح في مرضاته ولتحصيل رأس المال

والـزاد لتهيئة أنفسـنا وتطهيرها من الذنـب والعصيان وحفظها عن المخالفـة والخذلان، حتى نحظى بمقام الكشـف والشـهود، وتكون أنفسـنا قابلة للشراء مـن قِبَل الرب المعبود، ونكـون عنده من أهل المكارم والسعود، فبتوفيقه وعناياته يتم كل شيء في عالم الوجود.

نقل السـيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه أن أسـتاذه آية الحق ونادرة الدهر سـيد العلماء الإلهيين المرحوم السيد علي القاضي (قده) ربما وصل إلى مقام طي الأرض (وإن كان السيد القاضي (قده) يستنكر ذلك بشدة)، ونقل هذه الحكاية:

كان لحضرة لمرحوم السـيد علي القاضي برنامجا خاصا في النجف الأشرف في شهر رمضان المبارك، فقد كان معتادا على اسـتقبال رفاقه والخواص من أصحاب السر من تلامذته في منزله بعد مرور أربع ساعات من الليل، وفي العشرة الأولى من الشهر كان يعقد مجالس دروس الأخلاق والعرفان والوعظ والإرشاد لمدة ساعتين، وبعد انتهاء المجلس وتفرُّق الحاضرين يتفرغ للخلوة بينه وبين ربه، وكان الأمر على هذا المنوال في العشرة الثانية من الشهر مع اختلاف وقت الدرس ومدته، وأما في العشرة الأخيرة من الشهر فقد كان السيد يعطِّل المجلس فلا يراه أحد إلى آخر شهر رمضان، ولم يكن أحد يعلم مكانه ولم يكن متواجدا في بيت أي من زوجاته الأربعة وكذلك لم يكن متواجدا في مسجد الكوفة أو مسجد السهلة حيث كان يكثر المبيت فيهما، وفي الوقت نفسه لم يكن أحد منهم يتجرأ أن يسأله في ذلك!!

وقد نقل السيد العلامة الطباطبائي (قده) أمر اختفاء المرحوم القاضي في أوقات أخرى علاوة على شهر رمضان!!

ونقل السيد العلامة الطباطبائي (قده) حكاية أخرى عن أستاذه العظيم المرحوم السيد علي القاضي (قده) في هذا المقام وقال:

لقد كان المرحوم القاضي يتشرف بالذهاب إلى كربلاء أيام الزيارات، ولم يره أحد يركب السـيارة، ولم يطَّلع على هذا السر إلا تاجر من تجار السـاعات في السـوق الكبير الذي تشرف بالذهاب إلى مشهد المقدسة، فشاهد السيد علي القاضي هناك، وطلب منه حلَّ مشكلة جواز سفره المنتهية صلاحيته للسفر بـه، فأعطى جواز السـفر إلى السـيد القاضي وقال له السـيد ارجـع إلى دائرة الشرطة غـدا وخذ جواز سـفرك من هناك!! ولما ذهب في اليوم التالي إلى دائرة الشرطة اسـتلم جوازه بسـهولة ويسر، وسـافر به إلى النجف الأشرف، ولما أطْلَع أصدقاءه بالمشـكلة وحلِّها قال له أصدقاؤه أن السـيد القاضي لم يغادر النجف، فأسرع الرجل إلى السـيد القاضي وأخبره بما جرى عليه في مشـهد، ولكن السيد القاضي أنكر ذلك وقال: الكل يعلم أني كنت في النجف ولم أسـافر!! ولكن التاجر أبلغ بعض العلماء الفضلاء بهذا الأمـر، ولمـا جاء العلماء إلى السـيد علي القاضي واسـتفسروا عنه الأمـر أنكر مجدَّدا، هنالـك طلبوا من

سماحته أن يخصص لهم دروسا في الأخلاق.

فاعلـم أيها الطالـب للحق أن من عرف دناءة الدنيا وخسَّـتها عرف شرف الآخـرة وكرامتها، ولا تكـون هـذه المعرفـة إلا بالمهاجرة عـن دار الفناء والزهـد فيها والشـوق إلى دار البقـاء والحركة إليها، فتجـافَ عـن دار الغـرور وأخرج حب الدنيا من قلبـك ولا ترجو فيها مقرا ولا مُقامـا وأنزلها كمنزل نزلتـه ثم ارتحلت عنه، واسْـعَ بقلبك إلى منـازل الأبرار والمقربين، وكُنْ من أهـل الآخرة ولا تكُنْ من أهـل الدنيـا تكُنْ من الفائزيـن المفلحين في جنة النعيم، ﴿إِنَّ هٰذِهِ تَـذْكِرَةٌ فَمَن شَـاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾[٥٠]!!

الهوامش

(١) سورة الشورى: آية ٥٣

(٢) سورة غافر: آية ٣٩

(٣) سورة غافر: آية ٣٩

(٤) تفسير الميزان: مجلد ١٧ ص ٣٥١

(٥) سورة البقرة: آية ٣٦، سورة الأعراف: ٢٤

(٦) روضة الواعظين: ص ٤٨٢ ط ١٩٨٦، ومنه بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١١٩

(٧) روضة الواعظين: ص ٤٨٣ ط ١٩٨٦، ومنه بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١١٩

(٨) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٢٣، دار قُلعة أي ليس بمستوطَن بل دار تحول وارتحال والنُّجعة في الأصل طلب الكلأ ثم سمي كل من قصد أمرا يروم النفع فيه منتجعا، وتقول انتجعت فلانا إذا أتيته تطلب معروفه.

(٩) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٠٧، أمالي الشيخ المفيد: المجلس ٦ ص ٤٣، والظاهر أن العبارة الأخيرة لعيسى عليه السلام أيضا، وجاءت الفقرة الأولى في روضة الواعظين: ص ٤٨٣ ط ١٩٨٦.

(١٠) سورة الأعراف: آية ٢٩

(١١) سورة الأنبياء: آية ١٠٤

(١٢) الأسفار الأربعة: مجلد ٨ ص ٣٥٥

(١٣) «كانَ اللهُ ولا شيءٌ مَعَهُ» أو «كانَ اللهُ تعالى ولا شيءٌ غَيْرُهُ» أو «كانَ اللهُ تعالى وليس شيءٌ غَيْرُهُ» أو «كانَ اللهُ تعالى ولَمْ يَكُن شيءٌ غَيْرُهُ» - الكافي: ج ١ ص ١٠٧، توحيد الصدوق: ص ١٤٥ ح ١٢، المحجة البيضاء: ج ١ ص ٢١٧، صحيح البخاري: ج ٤ ص ١٢٩، كنز العمال: ج ١٠ ص ٣٧٠، ورواه الحاكم في المستدرك: ج ٢ ص ٣٤١، الدر المنثور للسيوطي: ج ٣ ص ٣٢٢، وروى سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رحمه الله نقلا عن كتاب محاسن البرقي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كانَ ولاَ شيءٌ غيرُهُ نوراً لا ظَلامَ فيه» - الميزان: مجلد ٨ ص ٢٦٤

(١٤) سورة العلق: آية ٨

(١٥) سورة آل عمران: آية ١٣٧، سورة النحل: آية ٣٦

(١٦) الأسفار الأربعة: مجلد ١ ص ٢٢ - التعليق

(١٧) الترجمة: في اليوم الذي تتجلى فيه الحقيقة (يوم القيامة) سيشعر كل سالك عمل على المجاز دون الحقيقة بالحياء والخجلة.

(١٨) مقتنيات الدرر: مجلد ٩ ص ٢٦٢

(١٩) سورة آل عمران: آية ١٤

(٢٠) سورة التوبة: آية ٣٨

(٢١) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ٩٢

(٢٢) بحار الأنوار: ج ١ ص ١٨٧

(٢٣) الترجمة:

مــا لم تحــترق في فــراق وجــه المــحبوب
كـيف يـكون مـستقرك في دار الــقرار!!

(٢٤) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١١ ص ٣

(٢٥) فروع الكافي: ج ٥ كتاب المعيشة ص ٧٢ حديث ٩

(٢٦) تحف العقول للحراني: ص ٥٣، معاني الأخبار: ص ٢٨٩، وعنه بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٢٩٧، عوالم العلوم: ج ١٧ ص ٣٥١، أمالي الطوسي: ج ٢ ص ١٤٢، مكارم الأخلاق للطبرسي: ص ٤٦١

(٢٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٣٢٩، باع أي شرى وابتاع أي اشترى.

(٢٨) سورة يونس: آية ٢٣

(٢٩) سورة يونس: آية ٢٣

(٣٠) سورة الأعلى: آية ١٧

(٣١) سورة الإسراء: آية ٧٠

(٣٢) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢ ص ١٧٤

(٣٣) سورة البقرة: آية ١٠٢

(٣٤) سورة البقرة: آية ١٦

(٣٥) سورة البقرة: آية ٨٦

(٣٦) سورة التوبة: آية ١١١

(٣٧) سورة الرحمن: آية ٥٤

(٣٨) من مناجاة المريدين للإمام زين العابدين عليه السلام

(٣٩) سورة التوبة: آية ١١١، وتمامها: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وفي تفسير هذه الكريمة المباركة قال العلامة الطباطبائي (قده): «وَقَدْ قَلَبَهُ سُبْحانَهُ في قالِبِ التمْثيلِ فَصَوَّرَ ذِلِكَ بَيْعاً وَجَعَلَ نفْسَهُ مُشْترياً والمُؤمنينَ بايعينَ وأنفُسَهُمْ وأمْوالَهُمْ سِلْعةً ومَبيعاً والجَنّةَ ثمَناً والتَّوْراةَ والإنجيلَ والقُرْآنَ سَنَداً لِلْمُبايَعَةِ وهُوَ مِنْ لَطِيفِ التمْثيلِ» – تفسير الميزان: مجلد ٩ ص ٤١٨

(٤٠) المحجة البيضاء: ج ٢ ص ١٢٣، الكافي: ج ٤ ص ٦٣، كنز العمال: ج ٨ ص ٤٤٥، وقد سبق شرح هذا الحديث في المنزل (١٣) – بداية السفر عند المحب

(٤١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ١٧٣، بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٣٢

(٤٢) غـرر الحكـم ودرر الكلم: دار القارئ بـيروت ص ٤٠٣ ح ٨٠٤٨، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٣٢، شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٢٩٢، الصراط المستقيم: ج ١ ص ١٥٦

(٤٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٥٢ ح ٣٠٢٦

(٤٤) فقرة من دعاء أمير المؤمنين‏ﷺ الذي علَّمه كميل بن زياد النخعي واشتهر بدعاء كميل

(٤٥) سورة يس: آية ٦٨

(٤٦) سورة الواقعة: آية ١٠ – آية ١١

(٤٧) الأسفار: مجلد ٩ص٢٣٠

(٤٨) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٥ ص ١٤٣

(٤٩) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٧ ص ٢٥٣، مناقب ابن شهرآشوب: ٢ ص ٤٧، شرح المائة كلمة للإمام عليﷺ: ص ٥٢

(٥٠) سورة المزمل: آية ١٩، سورة الإنسان: آية ٢٩

المنزل (٢٣)

مَعْرِفَةُ الحُبِّ عِنْدَ المُحِب

اعلـم أيهـا السـالك إلى الله أن للحب مرتبة عظيمـة ومقام شريف عند أهل الله، فهـو القاعدة التي بُنِـي عليهـا بيت العرفان والسـبيل الوحيد عند العرفـاء لمعرفة الله والتقـرب إلـيه والزلفى لديه، وكل الحـالات والمقامـات والمعـارف والكمالات التي ينالها العـارف بـالله في جميع مـراحـل سـيـره إلى الله تـعـالى إنـما أساسه الحب، ولهذا يعتـبر البحث في هذا المقام مـن المباحث المحورية والأسـاسـيـة في الـعرفان.

يقـول العرفـاء أن علة خلق عالم الوجود عامة والإنسـان بوجه خاص -وهـو العلـة الغائية لإيجاد العـوالم- لم يكـن لتكميل الـذات الإلهية، فهو الكمال المطلـق ومطلق الكمال المنزَّه عـن كل نقص وهو الغنـي عـن العالمين، بل لحب الجنـاب الإلهـي الأزلي لنفسـه الموجب لظهـور ذوات أسـمائه وصفاته وبـروز حقائقهـا وكمالاتها التي تطلـب المظاهر والمجالي فتظهر بها الجواهـر المكنونة والأسرار المصونة والكـمالات المخزونة إلى عـالم الكثرات فيمكن للخلق إدراكه ومعرفته، ولهـذا لما قرأ القارئ في مجلس الشـيخ أبي سعيد بن أبي الخير[1] قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[2] قال: لَعَمْري يُحِـبُّـهُـمْ ويَـحِـقُّ أنَّـه يُحِـبُّـهُـمْ لأنَّـه إنَّـما يُحِـبُّ نـَفْـسَـه!![3]

وعـلى هـذا فإن الحركة التي دار عليها مـدار الوجود من العدم إلى أبد الدهـر هي في الحقيقة حركة حبيَّـة، ولـولا هذا الحب ما ظهـر العالم بوجوده العيني، وبوجود العالم ظهرت أسـماء الله تبارك وتعالى وصفاتـه، قـال تعالى في حديث قـدسي: «كُنْـتُ كَـنْـزاً مَـخْـفِـيَّـا فأحْـبَـبْـتُ أنْ أُعْـرَفَ فخـَلَـقْـتُ الـخـَلْـقَ لِـكي أُعْـرَفَ»[4]، فالحب مبدأ الخلق وسرُّه وعلَّته، وكما قيل لولا الحب ما وجد بر ولا بحر ولا أرض ولا سماء.

وقـد ورد الحب والمحبة في كثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وروايات أهل البيت عليهم السلام منقسمة إلى جانبين: حب الحق للخلق وحب الخلق للحق، وأما تفصيل ذلك:

الجانب الأول: حب الحق للخلق

لما تجلى الحق تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته في جميع صور الوجود كان تجليه في الإنسان - وهو الجامع لجميع حقائق الوجود - أكمل التجليات وظهوره أتم الظهورات، والحق سبحانه إنما يحب عباده لحبه ذاته المقدسة المتعالية، وكما قيل أن «مَنْ أَحَبَّ شيئاً أَحَبَّ آثارَهُ»، فكان الإنسان أكثر الخلق استحقاقا لمحبة الله، ومما أوحى الله به لموسى في التوراة: «يا ابْنَ آدَمَ إنِّي وحَقِّي لَكَ مُحِبٌّ فبحَقِّي عَلَيْكَ كُنْ لي مُحِبًّا»[٥]!!

مـن از دلبستگی های تو با آئينه دانستم
كه بر ديدار طاقت سوز خود عاشق تر از مائی[٦]

هذا وقد أثبت الحق تبارك وتعالى مفردات الحب في كتابه الكريم، وذكر في طي بعض آياته المباركات أصناف المحبوبين عنده وصفاتهم وكذلك الذين لا يحبهم وصفاتهم.

فقال في الأصناف التي يحبها وصفاتهم أنه: ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾، وغيرها.

وقال في الأصناف التي لا يحبها وصفاتهم أنه: ﴿لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ و ﴿لاَ يُحِبُّ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، وغيرها.

وكما ترى أن الله تعالى يحب الأصناف المُحلاَّة بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة المَرْضيَّة ولا يحب الأصناف المَشُوبة بالرذيلة وسفساف الأخلاق ومذمومها، لأنه الربُّ المتعال ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا يحب الخير والصلاح والإحسان ويبغض الشر والفساد والإساءة، ويريد أن يطهِّر عباده عن كل قذارة معنوية وقُبْح باطني ويعصمهم عن كل ظلم ومعصية وينعم عليهم بالكمال والرفعة، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ»[٧]، فهو تعالى جميل في أسمائه وجميل في صفاته وجميل في أفعاله وكل جميل منه ويحب أن يرى أثر جماله على عبده، فإذا تجمَّل العبد بالصفات

الحسنة والمقامات الرفيعة وتخلَّق بالأسماء الإلهية وظهر بالكمالات الحقانية كان محبوبا عند الله سبحانه وتعالى.

وعلى أي حال فإن حب الله تعالى لخلقه إنما هو في الحقيقة حب ذاته المقدسة لذاته ولجماله الأزلي الباقي، وهذه مدحة محجور عليها للحق ممنوعة على غيره لا يشركه بها أحد ولا تنبغي لسواه جلَّ ثناؤه وحسنت صفاته وعظمت آلاؤه.

ويقسم العرفاء المحبوبين عند الله تعالى من جهة إلى قسمين:

القسم الأول:

من أحبَّهم الله تعالى حب ابتداء وعناية وامتنان، وقدَّم محبته لهم على محبتهم له كما في الآية المباركة: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[٨] وهو خاص بأهل السعادة من الأنبياء والأوصياء والأولياء والكُمَّلين من أهل الله الذين قال تعالى فيهم: ﴿.... الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الْحُسْنَى....﴾[٩]، فأخلصهم ربهم لذاته واجتباهم لنفسه وتولاهم بعنايته الخاصة وهدايته السابقة ومحبته الأزلية.

يك طايفه را بهر مكافات سرشتند
يك سلسله را بهر ملاقات گزيدند[١٠]

القسم الثاني:

الذين أحبهم الله تعالى حب جزاء وكرامة، وهم التابعون لرسول الله ﷺ والمطيعون له حبا لله تعالى، وكذلك التائبون الذين رجعوا من المخالفات إلى الموافقات، فكانت ثمرة اتباعهم وجزاء طاعتهم لرسول الله ﷺ وتوبتهم محبة الله إياهم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١١].

ولا يخفى عليك أن أهل العناية الإلهية الخاصة تشملهم المحبة الثانية كما شملتهم المحبة الأولى، فالمحبة الابتدائية وسيلة لنيل المحبة الجزائية، فبالنسبة للأنبياء والرسل فهو باتباع الوحي: ﴿.... إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ....﴾[١٢] واتباع الهدى الإلهي الذي اهتدى به الأنبياء من قبل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ....﴾[١٣]، وبالنسبة لما دون الرسل فبطاعة الرسول والتأسي به واتباعه في سيرته وأخلاقه وأحواله وفيما جاءهم بأداء الفرائض ورغَّبهم بلزوم النوافل، ففيما رواه النبي ﷺ عن ربه: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ»[١٤]، فهم محفوظون بين محبتين إلهيتين، محبة عناية ومحبة كرامة.

ويقول بعض أرباب العرفان: كما أن لمحبة المحب مراتب متفاضلة كذلك لمحبة المحبوب درجات متفاوتة:

فمحبته للعوام: باختصاصهم بالرحمة والغفران والتجلي عليهم بالأفعال والآيات.

ومحبته للخواص: باختصاصهم بتجلي صفات الجمال وستر ظلمة صفاتهم بأنوار صفاته.

ومحبتـه لأخص الخواص: باختصاصهم بالجذبات وسـتر ظلمة وجودهم بأنـوار الوجود الحقيقي فيتجـلى أولا بنـار الجلال فيحرق عن قلوبهم جميع ما كان فيهـا (منها) ثم يتجلى بنور الجمال فيمحوهم ويثبتهم به ويسلب عنهم السمع والبصر والنطق[١٥].

وهذه المراتب كما ترى متفاوتة حسـب مراتب الفناء في الله سـبحانه وتعالى، وسـيأتيك تفصيلها في المنازل القادمة إن شاء الله تعالى[١٦].

تـا كـه از جـانـب مـعـشـوق نـبـاشـد كـشـشـى
كوشـش عاشـق بـيـچـاره بـه جـائـى نـرسـد[١٧]

الجانب الثاني: حب الخلق للحق

وفي معنـى هـذا الجانب من الحب أقوال عرفانية مختلفة للمحبين تنصَبُّ كلها في بوتقة واحدة وهي الحب الخلقي للخالق عزَّ وجَلَّ، نذكر جملة منها:

قال بعضهم: المحبة إمحاء القلب عما سوى المحبوب.

وقال بعضهم: نار في القلب تحرق ما سوى المراد المحبوب.

وقال بعضهم: الموافقة في جميع الأحوال.

وقال بعضهم: ما لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر والإحسان.

وقال بعضهم: بذل الجهد والحبيب يفعل ما يشاء.

وقال آخرون: ميل العبد بالكلية إلى المولى الحق وإيثاره له على نفسه وروحه وماله وولده ثم الموافقة له سرًّا وجهراً فيما سَرَّه أو أساءه ثم العلم بالتقصير في حق المحبوب ومحبته.

ويقـول العرفـاء أن الجمال محبوب لذاتـه، وأن الحب هو الميل إلى الجمال والانجـذاب إليه، ولما كان البـاري عـزَّ وجلَّ هو الجميل على الإطـلاق ولا أجمل منه كان العالم كله محبـا لله تعالى ولجماله في خلقه وحسنه في إبداعه.

وكل معلـول يعشـق علتـه، وكل ناقـص يميـل إلى من هـو أكمل منـه، وكل موجـود ينجذب إلى موجـده، وواجـب الوجـود تقدسـت أسـماؤه علـة العلل والكـمال الأكمل، فـكل موجـودات العالم في حركـة رجوعيـة وسـير ارتقائي وعَود فنائي إليه، ولهـذا قال الحكماء أن «الـواجـِـبَ بالـذَّاتِ هُـوَ المَـعْـشـوقُ الأوَّلُ»!!

وعلى هذا قيل أن المحبة من الوجدانيات التي لا تحتاج إلى تعريف حقيقي بل يمكن أن يقال أنها إدراك الكمال من حيث إنه مؤثر، وكلما كان الإدراك أتم والمدرَك أشد كمالية مؤثرة كانت المحبة أكمل.

والنوع الإنساني هو أكثر أنواع الموجودات اختلافا بين أفراده وذلك لفوارق الاستعدادات في نيل الكمالات الإنسانية، فمنهم من يرتقي إلى مرتبة الملائكة المقربين أو أرفع منها ومنهم من يهبط إلى مرتبة البهائم أو أدنى منها، ولهذا تختلف محبوبات النفس الإنسانية حسب اختلاف مراتبها الوجودية ومعارفها الإلهية وحالاتها النفسانية من شهوانية وغضبية وشيطانية ومَلَكية[١٨].

والحب عنوان كلي ذو شئونات متفاوتة، ومَثَله كالبحر ينظر إليه رجلان فيقول أحدهما هذا بحر ويقول الآخر هذا موج وكلاهما في الواقع ينظران إلى حقيقة واحدة وهي البحر، كذلك الحب هو حقيقة واحدة وأصل كلي مركزه القلب ولكنه ذو مراتب وشئونات تختلف من شخص إلى آخر، ولذا قسَّم العرفاء هذا المقام إلى مراتب ثلاثة:

المرتبة الأولى: الحب

وهو الخلوص في الولاء والخلو عن شوب الأغيار والصفاء عن كدر العوارض والأستار الذي يعيق اتصال المحب بمحبوبه، فلا ولاء للحق إلا بالبراءة من الخلق.

المرتبة الثانية: العشق

وهو الحب المفرط الذي يعمي صاحبه عن كل شيء سوى محبوبه ويسري في جميع بدنه وروحه حتى لا يبقى متَّسع لغيره، فلا يسمع إلا منه ولا ينطق إلا به ولا يرى شيئا غيره إلا رآه فيه، أو كما قال بعض العرفاء: «العِشْقُ هُوَ الْتِفافُ الحُبِّ عَلَى الُمحِبِّ حَتَّى خالَطَ جَميعَ أَجْزائِهِ واشْتَمَلَ عَلَيْهِ اشْتِمالَ الصَّمَّاءِ»[١٩]، وقد عبر عنه الحق تعالى في كتابه بالحب الشديد: ﴿.... والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ....﴾[٢٠]، وكذلك قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام وزليخا: ﴿.... قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا....﴾[٢١] أي صار حبها ليوسف عليه السلام كالشغاف على قلبها وهي الجلدة الرقيقة المحيطة بالقلب.

وقد نفى الكثيرون صفة العشق لله تعالى وقالوا أن العشق إفراط المحبة وتجاوُز الحد فيه، وهو مخصوص بمحبة غير الله، وأما البارئ سبحانه فهو أجَلُّ وأكرم من أن يوصف بأنه قد تجاوَز أحد الحد في محبته، فلا يجوز استعمال كلمة العشق في حبه، ولكن السيد صدر الدين كاشف الدزفولي رضي الله عنه يرد هذا القول ويقول في بعض رسائله في السير والسلوك:

«اعْلَمْ أَنَّ أَقْوالَ أَرْبابِ الطَّريقَةِ في مَعْنَى العِشْقِ وحَقيقَتِهِ كَثيرَةٌ، والظَّاهِرُ أَنَّ حقيقةَ مَعْنَى العِشْقِ مُبْهَمٌ بَلْ مَجْهولُ الكُنْهِ، ويُمْكِنُ القَوْلُ أَنَّ العِشْقَ

مِـثْـــلُ الوجودِ الَّـذي وإنْ كـانَ غـيـرَ مَـعْـلـوم مِـنْ حَـيْـثُ الـكُـنْـهِ والـذَّاتِ إلاَّ أنَّ آثـارَهُ تـــدُلُّ عَلَـيْـهِ، كَما أنَّ آثـارَ نورِ الشـمْـسِ وإشْـراقِـها عَلَى ذرَّاتِ مـاهِـيَّاتِ المَـوْجـوداتِ تـــدُلُّ عَلَى وُجـودِ ونـورانِـيَّةِ الشـــمْـسِ، ومُـخْـتَـصَـرُ الكَـلامِ في هـذا المَـطْـلَـبِ أنَّ الـعِـشْـــقَ يُطْـلَـقُ عَلَى إفْـراطِ المَـحَـبَّـةِ، والمَـحَـبَّـةُ إدْراكُ المُنـاسِـبِ، ويُـنْـكِـرُ بَعْـضُ عُـلَـماءِ الظـاهِـرِ نِسْـبَـةَ المَحَـبَّـةِ إلَى الخـالِـقِ عَـزَّ وَجَلَّ في حينِ أنَّ بَعْضَ فَـقَـراتِ أدْعِـيَـةِ الأئِـمَّـةِ الأطْـهارِ(عليهم السلام) تُـظْـهِـرُ تماماً كظُـهـورِ الشـــمْـسِ في رابِـعَـةِ النـهـارِ في الشـوقِ والمَحَبَّـةِ الإلـهِـيَّـةِ، بَلْ إنَّـهُـمْ(عليهم السلام) في مَـحَـبَّـةِ الخـالِـقِ عَـزَّ وَجَـلَّ كانُـوا في مَـرْتَـبَـةِ العِـشْـقِ، والزيـارَةُ الجـامِـعَـةُ - وهي أفْـضَـلُ الـزياراتِ المُـعْـتَـبَـرَةِ - تـــدُلُّ عَـلَـى ذلِكَ، قـالَ الإمـامُ(عليه السلام) في حَـقِّ أئِمَّـةِ الـديـنِ(عليهم السلام): «والـتـامِّـيـنَ فـي مَـحَـبَّـةِ اللهِ»، ولا شَـكَّ أنَّ المُرادَ مِنْ تَـمامِ المَحَـبَّـةِ هُـوَ العِـشْـقُ، والمَـحَـبَّـةُ الَّتي لا تَـصِـلُ إلَى مَـرْتَـبَـةِ الـعِـشْـقِ ناقِـصَـةٌ غَـيْـرُ تـامَّـةٍ، وهذا المَـعْـنـى لِلْعِـشْـقِ - أي إفْـراطُ المَـحَـبَّـةِ - مُـتَّـفِـقٌ عَلَيْهِ أصْـحـابُ الـقُـلـوبِ، ومَـتَـى ما حَصَـلَ الإفْـراطُ في المَـحَـبَّـةِ فالمَـحَـبَّـةُ في غـايَـةِ كَـمـالِـهـا».

المرتبة الثالثة: المحو

وهو حال من أحوال الحب وهو عدم ركون العبد إلى الأسباب وفناؤه عن نفسه واستهلاكه في الله تبارك وتعالى وقربه الحقيقي منه حتى يتجلَّى له، فإنما يتجلَّى الحق لمن انمحى رسمه وزال عنه اسمه، ويعبِّر عنه بعض العرفاء بـ «غليان القلب»[٢٢].

وفي الحديث أن النبي(صلى الله عليه وآله) نظر إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به فقال(صلى الله عليه وآله): «انْظُـرُوا إلَى الرَّجُـلِ الَّـذِي قَدْ نَـوَّرَ اللهُ قَـلْـبَـهُ، لَقَـدْ رَأيْـتُـهُ بَـيْـنَ أبَـوَيْـنِ يَـغْـذُوانَـه بـأطْـيَـبِ الـطَّـعـامِ والـشَّـرابِ فَـدَعـاهُ حُـبُّ اللهِ ورَسُـولِـهِ إلَى مـا تَـــرَوْنَ»[٢٣]!!

وقد صنَّف بعض العرفاء كصدر المتألهين الشيرازي (قده) العشق الإنساني إلى صنفين: حقيقي ومجازي، فالعشق الحقيقي هو لله تعالى ولأسمائه وصفاته وأفعاله وهذا لا يكون إلا للمتألهين الكاملين الذين حصل لهم الفناء الكلي، وأما العشق المجازي فينقسم إلى عشق نفساني وعشق حيواني، والعشق النفساني عشق عفيف تقتضيه لطافة نفس العاشق وهو ما كان مبدؤه مشاكلة نفس العاشق والمعشوق في الجوهر فيكون الإعجاب بشمائل المعشوق وآثاره[٢٤] ومعرفة قدره، وغايته التشبه بالمحبوب، وأما العشق الحيواني فتقتضيه النفس الأمارة بالسوء، وهو ما كان مبدؤه شهوة بدنية وغايته حصول لذة بهيمية.

وكما قيل أن الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق، وغاية الطرق كلها هو الله سبحانه وتعالى: ﴿.... وَإِلَيْـهِ يُرْجَـعُ الأمْـرُ كُلُّـهُ....﴾[٢٥]، وأقرب الطرق إليه معرفته، وكلما ازدادت معرفته اشتعل

القلب بنور محبته وتجليات جماله أكثر فأكثر، فمن تحبَّب إلى الله تعالى وتقرَّب إلى جنابه وتخلَّق بأخلاقه علماً وعملاً غَدَا عالِمًا إلهيًّا وعارفاً ربَّانيًّا ومَظهَرا من مظاهر أسماء الله ومن المقربين.

وفيما أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى نبيِّه داودعليه السلام: «يا داود!! ما أَحَبَّني أَحَدٌ أَعْلَمُ ذلكَ يَقيناً مِنْ قَلْبِهِ إلاَّ قَبِلْتُهُ لِنَفْسي وَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لا يَتَقَدَّمُهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقي»[٢٦]!!

رضوان الله تعالى على روح سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي الذي كان يدعو دائما بهذا الدعاء ويوصينا به: «اللَّهُمَّ أذِقْنا حَلاوَةَ مَحَبَّتِكَ»!! فهو العارف الواصل الذي عرف معنى الحب والعشق والفناء في الله تعالى ولم ينْفَك من طلب مزيد شراب الحب بكأس الحب عند لقاء المحبوب.

وعلى هذا يمكن القول أن كمال الحب على قدر كمال المحبوب، فكلما قوي كمال المحبوب وشأنه كان حبه أرفع مرتبة وأعظم مقاما، مثلا إذا كانت الدنيا وحطامها هي المحبوب فهذا الحب خسيس ودنيء ولذَّته فانية زائلة، وأما إذا كان الله تبارك وتعالى هو المحبوب فحبه أصدق أنواع الحب وأحقه، وإذا استولى على قلب المحب طهَّره عن حب من سواه، وكانت درجة محبته لله تعالى أعلى درجات المقرَّبين، فنعم المحبوب ونعم جزاء المحبين المقرَّبين حين يتجلى لهم جمال رب العالمين.

وقد يعمل البعض - حسب مرتبتهم الوجودية وهم الأكثرية الغالبة - في طاعة الله وعبادته والامتثال لأوامره طمعا في نعيم الجنة أو خوفا من عذاب النار أو كلاهما معا، وإن كانت الأعمال بنيات صادقة وصحيحة وخالية من الرياء - أي الطمع والخوف - ولا تفسد بغاياتها - أي حصول نعيم الجنة والخلاص من عذاب النار - إلا أن محبتهم لتلك الطاعات والعبادات لا تندرج تحت مقام محبة الله الخالصة، لأن عملهم لم يكن إلا لحظوظ أنفسهم ومشتهياتها ونيل اللذات المحسوسة في اليوم الآخِر من مشارب ومآكل وأنهار وحور وقصور، وأما المحب الحقيقي الذي عرف الله بجماله وجلاله فمطلوبه الحق تبارك وتعالى ويعبد الله ويرى الله تعالى أهلا للطاعة والعبادة فيطيعه ويعبده حق عبادته حتى يتنعم بلذة لقائه وجنة قربه ووصاله.

قال العارفون: نحن نحب الله تعالى لذاته لا لغرض ولو كان كل شيء محبوبا لأجل شيء آخر دار أو تسلسل، وإذا كنا نحب الرجل العالم لعلمه والشجاع لقوته وغلبته والزاهد لبراءة ساحته عن المثالب فالله تعالى أحق بالمحبة لأن كل كمال بالنسبة إلى كماله نقص والكمال مطلوب لذاته محبوب لنفسه، وكلما كان الاطلاع على دقائق حكمة الله وقدرته وصنعه أكثر كان حبه له أتم، وبحسب الترقي في درجات العرفان تزداد المحبة إلى أن يستولي سلطان الحب على قلب المؤمن فيشغله عن الالتفات إلى غيره ويغني عن حظوظ نفسه، فبه يسمع وبه يبصر وبه ينطق وبه يبطش وبه يمشي، فلا يفعل إلا ما أحبه وأراد ولا يختار إلا ما أمره ورضيه، ولا يثق إلا به، ولا يسكن إلا إليه، ولا يتكلم إلا عنه، ولا

يتفكر إلا فيه، ولا يتنفس إلا معه، وهذه أحوال تلْطف عن العبارة وتدق عن الإشارة[٢٧].

ونعم ما قيل في هذا المقام:

يا حبيبَ القُلوبِ مَنْ لي سِواكَا ... ارْحَمْ اليومَ زائِراً قَدْ أتاكَا

أنْتَ سُؤْلي وبُغْيَتي وسُرُوري ... قَدْ أبَى القَلْبُ أنْ يُحِبَّ سِواكَا

يا مُنايا وسَيِّدي واعْتِمادي ... طالَ شَوْقي مَتَى يَكونُ لِقاكَا

لَيْسَ سُؤْلي مِنَ الجنانِ نَعِيماً ... غَيْرَ أنِّي أريدُها لأراكَ

قال أبو جعفر عليه السلام لجابر الجعفي في وصف أهل التقوى: «قَطَعُوا مَحَبَّتَهُمْ بمَحَبَّةِ رَبِّهِمْ ووَحَشُوا الدُّنْيا لِطاعَةِ مَليكِهِمْ ونَظَرُوا إلَى الله تعالَى وإلَى مَحَبَّتِهِ بقُلوبِهِمْ وَعَلِمُوا أنَّ ذلك هُوَ المَنْظورُ إلَيْهِ لِعَظيمِ شَأنِهِ»[٢٨].

وقال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «حُبُّ الله إذا أضاءَ عَلَى سِرِّ عَبْدٍ أخْلاهُ عَنْ كُلِّ شاغِلٍ وَكُلِّ ذِكْرٍ سِوَى الله وَالْمُحِبُّ أخْلَصُ الناسِ سِرًّا لله»[٢٩]!! ولذا حينما ينظر العارف إلى غير محبوبه أو يتوجه إلى غيره يعدُّ نفسه من الظالمين الخاطئين!!

ثم إن قوة الحب في المحب تدفعه إلى حب لقائه وتوقان رؤيته والأنس به والراحة لديه، وقد جاء في حديث إلهي: «يا ابْنَ عِمْرانَ كَذَبَ مَنْ زَعِمَ أنَّهُ يُحِبُّني فَإذا جَنَّهُ اللَّيْلُ نامَ عَنِّي ألَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبيبِهِ، ها أنا ذا يا ابْنَ عِمْرانَ مُطَّلِعٌ عَلَى أحِبَّائي إذا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ حَوَّلْتُ أبْصارَهُمْ في قُلوبِهِمْ ومَثَّلْتُ عُقوبَتي بَيْنَ أعْيُنِهِمْ يُخاطِبوني عَنِ الْمُشاهَدَةِ ويُكَلِّموني عَنِ الحُضورِ»[٣٠].

وقد قال الله تعالى في حديث قدسي: «مَنْ أحَبَّ لِقاءَ الله أحَبَّ اللهُ لِقاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقاءَهُ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ»[٣١].

فزِنْ قلبك أيها المحب وانظر إلى أي صنف تنتمي، فإن كنت من الصنف الأول فطوبى لك ثم طوبى لك واشكر ربك على توفيقه لك ومنِّه عليك، وأما إن كنت من الثاني - والعياذ بالله - فاستيقظ عن نوم الغفلة وانتقل عنه بالتوبة وادع الله تعالى أن يطهِّرك عن كل لذَّة سوى لذَّة محبته ولقائه!!

ولما كان العبد لا يلقى ربه إلا بالموت ترى العارف بالله يستعجل لقاء ربه حبًّا له، فيموت عن نفسه وإنيَّته وإرادته وتصرفاته في الحياة الدنيا حتى يتحقق اللقاء، ومن هنا قيل: «مَنْ أحَبَّ اللِّقاءَ اخْتارَ

الفَناءَ عَلَى البَقاءِ»!!

کـــی در آیـــی در صـــف آزادگـــان

ایـــن قـیـامـت بـر تـو کـی گـــردد عیـان[٣٢]

لقيت عالما عارفا في آخر أيام عمره يكرر هذه الكلمة (بالفارسية): «او جويَم!!»، أي أبحث عنه!! - وكان يعني الحق سبحانه وتعالى - فلم يكن يبحث عن مقصود في الوجود سوى الحق تبارك وتعالى إلى أن مات.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿أولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾[٣٣]، فالأمر عظيم والمقام خطير، ومن كذَّب بلقاء الله تعالى فإن أعماله محبوطة ولا قدر له عند الله تعالى يوم القيامة!! فزادُك الذي تحمله معك عند الميزان هو حبك لله تعالى وكل عمل سواه يندرج تحت هذا المقام فيكون له وزن عند الله.

فالمِلاك الحقيقي والمحور الذي تدور عليه كل الأعمال هو حب الله تعالى، فإن أحببت شيئا لله كان ذلك حبا لله، وإن أبغضت شيئا لله كان ذلك أيضا حبا لله، وهذا الحب هو الباقي وما سواه زائل وفاني، قال الحكيم في كتابه: ﴿الأخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[٣٤]، فالخلة التي كانت في ذات الله ومن جهة التقوى هي الثابتة الباقية النافعة يوم القيامة وما سواها ممنوعة مقطوعة.

وقد يسأل سائل: إذا كان حب العبد لله تعالى في أعلى مراتبه فهل يجوز أن يكون في قلبه حب غير الله سبحانه؟!

يقول العارف الصمداني الملا حسينقلي الهمداني (قده)[٣٥] في بعض رسائله:

«لا شَكَّ أنَّ المَحْبوبَ الأوَّلَ هُوَ ذاتُ الكِبْرِياءِ جَلَّ جَلالُهُ، بَلْ وكُلُّ مَحَبَّةٍ لا تَرْجِعُ إلَى مَحَبَّتِهِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ»!!

نعم فالمحبوب بالأصالة والحقيقة هو الله تبارك وتعالى ويجوز حب غير الله تعالى على أن يكون أساس حبه للغير هو حب الله تعالى وأن يكون الغير من المخلصين لله ومن أحبائه وأودائه، وهنا يصدق القول أن ليس في القلب سوى حب الله.

ثم يقول الملا حسينقلي (قده):

«ثمَّ بَعْدَهُ مَحَبَّةُ مَنْ كانَ لِلسُّلْطانِ العَظيمِ الشَّأنِ أكْثَرَ حُبًّا، لِذا فَإنَّ أوَّلَ مَحْبوبٍ بَعْدَ واجِبِ الوجودِ هو الوجودُ المُقَدَّسُ لِخاتَمِ الرُّسُلِ وخاتِمِ الرِّسالاتِ مُحَمَّدٌ صَلَواتُ الله تعالَى عليهِ وآلِهِ ثمَّ بَعْدَهُ أميرُ المُؤْمنينَ عليه السلام ثمَّ الأئِمَةُ المَعْصومونَ عليهم السلام ثمَّ الأنبياءُ والمَلائِكَةُ ثمَّ الأوصياءُ ثمَّ العُلَماءُ والأوْلياءُ»!!

قال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «المُحِبُّ في الله مُحِبُّ الله والمَحْبوبُ في الله حَبيبُ الله لأنـهُّما لا يَتَحابَّانِ إلاَّ في الله»[٣٦]!! فكيف إذا كانت المحبة لمن جعلهم الله تعالى حُججاً على عباده وأمَرَ العباد بمحبتهم وجعل رضاه في ولايتهم وهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله: إني أحبُّك، فقال صلى الله عليه وآله: إنك لتحبُّني!! فقال الرجل: إي والله، فقال النبي صلى الله عليه وآله: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ[٣٧]!!

قيل لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك إنَّا نسمِّي بأسمائكم وأسماء آبائكم فينفعنا ذلك؟! فقال عليه السلام: إي والله، وَهَلْ الدِّينُ إلاَّ الحُبّ[٣٨]!!

وجاء في تفسير مولانا علي بن موسى الرضا عليه السلام للآية المباركة: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾: «أنَّ النَّعيمَ حُبُّنا أهْلِ البَيْتِ ومُوالاتُنا»[٣٩]!!

فمن أراد نعيم الدنيا والآخرة فليعرف إمام زمانه وليتمسك به ويعقد قلبه بحبه وموالاته ويجعله أسوة له في حياته الدنيا فيتبعه في أعماله وعباداته كما أمره الله تعالى حتى يكون محبوبا عند الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٤٠]!!

وفي ختام البحث في معرفة الحب نبين مقامات الحب بإيجاز كما طرحها مراشدنا العظماء ومشايخنا الفضلاء، وفي كل مقام منها بحث يطول شرحه، وهي كالتالي:

- درجة المحبة
- حلقة المحبة
- سلطان المحبة
- دعوى المحبة
- جزاف المحبة
- علامة المحبة
- نداء المحبة
- عُلْقة المحبة
- قطرة المحبة
- ورد المحبة
- روائح المحبة
- دور المحبة
- أحكام المحبة
- رقم المحبة
- ارتباط المحبة
- كأس المحبة
- شراب المحبة
- سُكْر المحبة
- ياقوت المحبة
- يد المحبة
- بلاء المحبة
- انبساط المحبة
- شطرنج المحبة
- مَقْمَرة المحبة
- طست المحبة
- بوتقة المحبة
- معدن المحبة
- أوراد المحبة
- حقيقة المحبة
- أسرار المحبة
- نار المحبة
- المحروقون في نار المحبة

وفي مقامات المحبين حكايات كثيرة ومصاديق عديدة نذكر ما نقله لنا شيخنا الأستاذ آية الله

العظمى الشيخ مرتضى الحائري رضي الله عنه وقال:

كان الشيخ الأردكاني عالما مجتهدا ومرجعا يـؤم المؤمنين للصـلاة في مسجد من مساجد يزد، وكان المسجد يغصُّ بالمصلين الذين يفِدون على المسجد للصلاة خلف هذا العالم الجليل الذي كانوا يتبركون به وبأنفاسه الطيبة.

وذات يـوم رآه بعض خواصه جالسـا في مقهى شـعبي يشرب الدخان، فقالوا لـه: مولانا، ما هذه الحالة؟! ولـــمَ أنت جالس هنا؟!

قـال لهـَم: لقد خلَّصت نفسي من الجحيـم!! فتعجبوا من قوله وقالوا: وكيـف يكون ذلك؟! قال: حينما دخلت المسجد آخر مرة ورأيت الجموع الغفيرة المحتشدة داخله وخارجه بدأ الشيطان يوسوس في صدري وكاد يدخل في قلبي من العُجْب ما لا يُحمَد عقباه، فرأيت أن أخلِّص نفسي من هذه المصيدة المهلكة.

من يقدر أن يفهم هذا المنطق؟!

قـد يـرى البعض أن هـذا العمل خلاف وقار العالم وهيبته ومنزلته وشـأنه عنـد الناس، لكن العالم العـارف هو الذي يعـرف معنى الحب الحقيقي والمحبوب الحقيقي، فيتجرد عن إرادته ويخالف نفسـه ومراضيه ويخرج عنها بالكلية في سبيل محبوبه ويسارع إلى طاعته ويفر من معصيته لا بمشقة وعناء بل بلذة وحلاوة وطيب نفس حتى لا يقدح في قربه إليه طرفة عين أبدا.

يا مَـنْ أنـوارُ قُـدْسِـهِ لأبْـصـار مُـحِـبِّيـهِ رائِقَـةٌ وسُـبُحاتُ وَجْـهِـهِ لِقُـلـوبِ عارِفيـهِ شـائِـقَـةٌ يـا مُنَـى قُـلـوبِ الْمُشْـتـاقيـنَ ويا غـايَـةَ آمـالِ الْمُحِـبِّيـنَ أسـأَلُـكَ حُـبَّـكَ وَحُـبَّ مَـنْ يُحِـبُّـكَ وَحُـبَّ كُلِّ عَمَـلٍ يُـوصِـلُـني إلَى قُـرْبِـكَ وأنْ تـجْـعَـلَـكَ أحَـبَّ إلَـيَّ مِـمَّـا سِـواكَ وأنْ تـجْـعَـلَ حُـبِّـي إيَّـاكَ قائِـداً إلَى رِضْـوانِـكَ وشَـوْقي إلَيْـكَ ذائِـداً عَنْ عِـصْـيـانِـكَ وامْـنُـنْ بالنَّـظَرِ إلَيْـكَ عَلَيَّ وانْـظُـرْ بعَيْـنِ الـوُدِّ والعَطْـفِ إلَيَّ ولا تَـصْـرِفْ عَنِّـي وَجْهَـكَ واجْعَلْـني مِـنْ أهْـلِ الإسْـعـادِ والحُـظْـوَةِ عِـنْـدَكَ يـا مُـجـيـبُ يـا أرْحَـمَ الـرَّاحِـمـيـنَ[٤١].

الهوامش

(١) أبو الخير حسن بن بهنام بن بابا بن سوار بن بهنام المشهور بـ «أبي سعيد أبي الخير النيشابوري» تلميذ أبي الفضل السرخسي ومن أبرز العرفاء في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، توفي عام ٤٤٠ هـ.

(٢) سورة المائدة: آية ٥٤

(٣) رياض السالكين: ج ٢ ص ٢٥٧، إحياء العلوم: ج ٤ ص ٣٢٨

(٤) بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ٣٤٤، كشف الأسرار: ج ٨ ص ٣٨٧، جامع الأسرار ومنبع الأنوار: ص ٦٦٥، وقيل أن هذا الحديث جواب على سؤال نبي الله داودﷺ (أو نبي الله موسىﷺ كما جاء في أوصاف الأشراف: ص ١٧١) لحضرة جمال الحق سبحانه: لماذا خلقت الخلق؟! فقال سبحانه - الحديث.

(٥) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١١ ص ٧٩

(٦) الترجمة:

عرفت من تعلقك وحبك لَمرائيك
أنك أشد حبا لذاتك من حبنا إليك

(٧) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٩٢، الكافي: ج ٦ ص ٤٣٨

(٨) سورة المائدة: آية ٥٤

(٩) سورة الأنبياء: آية ١٠١

(١٠) الترجمة:

طائفة خُلِقَت (فُطِرت) للمكافأة والجزاء
وطائفة أخرى اخْتِيرَت للِّقاء

(١١) سورة آل عمران: آية ٣١

(١٢) سورة الأنعام: آية ٥٠، سورة يونس: آية ١٥، سورة الأحقاف: آية ٩

(١٣) سورة الأنعام: آية ٩٠

(١٤) مستدرك الوسائل: ج ٣ ص ٥٨، أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٥٢، محاسن البرقي: ص ٢٩١، رياض الصالحين (للنووي): ص ٦٣

(١٥) رياض السالكين: ج ٢ ص ٢٥٩

(١٦) في المنزل (٢٥) - فناء المحب

(١٧) الترجمة:

ما لم تكن من جانب المعشوق جذبة
فلن يصل سعي العاشق المسكين إلى غاية

(١٨) فأتم حالات النفس الشهوانية أن تتمتع أبدا بلَذّاتها من الأكل والجماع، وأتم حالات النفس الغضبية أن

تكـون رئيسـة وغالبة على غيرها عاشـقة للقهر والانتقام، وأتـم حالات النفس الشـيطانية أن تكون ماكرة حيالـة كاذبـة تلبس الحق بالباطل، ومن أتم حالات النفس الملكيـة أن تعرف الحقائق وترغب في الخلوة مع الله ومناجاته فتكون عاشـقة للمعارف الإلهية مسرورة بذكر الله متشـوقة إلى جوار الله ولقائه – مقتبس من الأسفار الأربعة مجلد ٧ ص ١٨٥

(١٩) العشق مأخوذ من العشقة اللبلابة التي تلتف على شجرة العنب وأمثالها.

(٢٠) سورة البقرة: آية ١٦٥

(٢١) سورة يوسف: آية ٣٠

(٢٢) قسَّـم بعـض العرفـاء صفة الحـب إلى أربعة أحـوال لكل حال اسـم تُعرَف بـه وهي: الهوى والـودّ والحب والعشـق، فأول سـقوطه في القلب وحصوله يسمى هوى وأسبابه كثيرة كالنظر والخبر والإحسان وغيرها، ثم الودّ وهو ثباته، ثم الحب وهو صفاؤه عن كدورات العوارض وخلاصه من إرادته فهو مع إرادة محبوبه، ثم العشـق وهو التفافه بالقلب حتى يعميه عن النظر إلى غير محبوبه، وقسَّـم بعض العرفاء المحبة من حيث المقامات إلى ثلاثة: الصدق، السُّكْر، الفناء

(٢٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ ص ١٥٦

(٢٤) هذا وقد أشـار الحكيم الشيرازي (قده) أن العشق النفساني يجعل نفس العاشق لينة شيقة ذات وجْد وحزن ورقـة قلب كأنها تطلب شـيئا باطنيا مختفيا عن الحواس فتنقطع عن الشـواغل الدنيويـة جاعلة جميع الهموم همًّـا واحـدا، فلأجل ذلك يكون الإقبال على المعشـوق الحقيقي أسـهل على صاحبه وأقـرب إليه فلا يحتاج إلى الانقطاع عن أشـياء كثيرة، ثم يقول (قده): ولا يخفى في هذا المقام أن هذا العشـق وإن كان معدودا من الفضائل إلا أنه لا يكون محمودا وشريفا على الإطلاق في كل وقت وعلى كل حال ومن كل أحد من الناس، بـل ينبغي اسـتعمال هذه المحبة في أواسـط السـلوك العرفاني لترقيـق النفس وإخراجها عن بحر الشـهوات الحيوانية، وأما عند اسـتكمال النفس بالعلوم الإلهية وصيرورتها عقلا بالفعل محيطا بالعلوم الكلية لا ينبغي لها الاشـتغال بعشق الشـمائل البشرية اللطيفة، ولهذا قيل «المَجازُ قَنْطَرَةُ الحَقيقَةِ» وبعد عبور القنطرة يكون الرجـوع إلى المجـاز أمرا قبيحـا ويُعَدُّ من الرذائل بعدما كان من الفضائل الأسـفـار الأربعـة: مجلد ٧ ص ١٧٤

ويستند العارف السيد صدر الدين الكاشف الدزفولي (قده) في مقام العشق العفيف إلى رواية نقلها الشيخ الصـدوق في علل الشـرائع في باب العشـق الباطـل ص ١٤٠، وهي: أن مفضل بـن عمر روى عن مولانا الصـادق﷣ وقد سـأله عن عشـق الباطل فقال﷣: «قُلـوبٌ خَلَتْ عَنْ ذِكْـرِ الله فَأذاقَها اللهُ حُـبَّ غَيْرِهِ»، ثم يقول السـيد صدر الدين: وإن كان ظاهر الحديث يذم العشـق الباطل أو العشق المجازي عفيفا كان أو غير عفيف – ولكن قد يكون المعنى وحقيقة الأمر مدحاً لا ذمًّا بشرط العفة، وأن لا يكون على أسـاس الشـهوة الحيوانية، لأن أصحاب الطريقة وأرباب القلوب يعتقدون أن العشـق العفيف يُعِين القوة الشوقية والقوى الروحانية للتوجه إلى المحبوب الحقيقي بسبب تطهير وتلطيف السر والباطن من الأفكار الزائفة والخيالات

الكاسدة وجعْل الهموم كلها همًّا واحدا، ولا تبقى من الحجب الظلمانية سوى حجاب المعشوق المجازي، فيكون كل خياله وفكره ونظره متوجها إليه، مما يسهل على صاحبه التخلي عنه والتوجه إلى الحق بإمدادات الفيوضات الربانية والتوفيقات السبحانية وبالرياضة والمجاهدة، إلا إذا لم يكن مقترنا بالعفة أو أن يصل بصاحبه إلى مرحلة الفناء في المعشوق المجازي إلى حد نسيان المحبوب الحقيقي بالكلية. لذا فمؤدَّى معنى كلام مولاناﷺ - والله ورسوله وأوصياؤه أعلم - هو مدح العشق العفيف، وإن كان باطلا في مقابل عشق المعشوق الحقيقي، فبعض القلوب خلَت عن ذكر الله ولم تتوجه بالشوق والمحبة إلى الله لأنها لم تجد حقيقة معنى المحبة والشوق ولم تذُقْ حلاوة لذتها في حق المعشوق الحقيقي، ثم يقول: وليس المراد من «ذِكْرِ الله» الذكر اللساني ولا الذكر القلبي الخالي عن المحبة والشوق، فإذا كان المراد الذكر اللساني لقال الإمامﷺ: ألسنة خلت عن ذكر الله!! وإذا كان المراد الذكر القلبي لكان ذلك يتطلب المحبة والشوق ومن دونهما أمر ممتنع!! والحقيقة هي أن حضرة الجمال والكمال المطلق مشتاق إلى جذب قلوب عباده إلى حسنه وجماله وحبهم له من غير حاجة إليهم وهو الغني الذات عن العالمين حتى يعشقوه ويصلوا إلى كمال اللذة وعظيم الابتهاج به، وفي حديث المعصومﷺ دلالة صريحة لهذا الادِّعاء، ومثل ذلك - بلا تشبيه - كمثل الوالد المشفق على ولده حينما يراه مائلا إلى غيره ملتفتا إلى سواه ولجذبه إلى نفسه يقدِّم له شيئا حسنا يعلم أنه يحبه وبسببه يتوجه إليه، لذا فعلة «فَأَذاقَها اللهُ حُبَّ غَيْرِهِ» هي اللطف والرحمة لا القهر والإبعاد.

(٢٥) سورة هود: آية ١٢٣

(٢٦) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٦

(٢٧) رياض السالكين: ج ٢ ص ٢٥٤

(٢٨) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ٣٦، وقال العلاَّمة المجلسي (قده) في تفسير الحديث: قَطَعُوا مَحَبَّتَهُمْ أي عن كل شيء أو عمَّا لا يُرضي الله، بمَحَبَّةِ رَبِّهِمْ أي بسببها أو جعلوا محبتهم تابعة لمحبة الله ولا يحبون شيئا إلا لحب الله له، ونَظَرُوا إلَى الله وإلَى مَحَبَّتِهِ بقُلُوبِهِمْ أي لم ينظروا بعين قلوبهم إلا إلى الله أي رضاه أو معرفته ومراقبته وذكره وعدم الالتفات إلى غيره، وَعَلِمُوا أنَّ ذلِكَ أي الله ومحبته هُوَ الْمَنْظُورُ إلَيْهِ أي هو الذي ينبغي أن ينظر إليه لا غيره لِعَظَمَةِ شَأْنِهِ وحقارة ما سواه.

(٢٩) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٣

(٣٠) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٣٢٩، ج ٧٠ ص ١٤، أمالي الشيخ الصدوق: ط ١٩٧٠ المجلس ٥٧ ص ٣١٨

(٣١) بحار الأنوار: ج ٨١ ص ٢٦٧، نهاية ابن الأثير: ج ٤ ص ٢٦٦

(٣٢) الترجمة:

متى تدخل في صفوف الأحرار!!

ومتى ترى هذه القيامة عيانا!!

(٣٣) سورة الكهف: آية ١٠٥

(٣٤) سورة الزخرف: آية ٦٧

(٣٥) ذكرنا نبذة عن سيرته الشريفة في المنزل (٢) - الإخلاص عند المحب - فراجع

(٣٦) بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٢٥١

(٣٧) بحار الأنوار: ج ٢٧ ص ١٢٢

(٣٨) تفسير العياشي: مجلد١ ص١٦٨ ط طهران ومنه بحار الأنوار: ج٢٧ ص٩٥ في تفسير الآية ٣١ من سورة آل عمران

(٣٩) عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج ٢ ص ١٢٩، والآية ٨ من سورة التكاثر

(٤٠) سورة آل عمران: آية ٣١

(٤١) من مناجاة المحبين لمولانا زين العابدينعليه السلام

المنزل (٢٤)

دَرَجَاتُ الحُبِّ عِنْدَ المُحِب

كما ذكرنا في المنزل السابق أن كل حب سوى حب الله تبارك وتعالى أو حب ما يُنسب إليه من نبي أو ولي أخلصه الله تعالى واجتباه لنفسه مجازي ومحكوم عليه بالأفول والعدم المحض، لأن المحبوب في هذه الحالة - وهو محور الحب المجازي - هالك لا محالة، فهو القائل سبحانه: ﴿.... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ....﴾[1]!!

والانجذاب إلى الجمال فطري والتوجه إلى الكمال جِبِلِّيٌّ في ذوات ذرات عالم الوجود، ومع ذلك تتفاوت درجات الحب حسب اتجاه السير وقوته إلى الكمال، ولما كان الحب هو «ميلُ النفسِ إلى الشيءِ لكَمالٍ أو جمالٍ أدْرَكَتْه فيه بحيثُ يَحْمِلُها على ما يقرِّبُها إليهِ»[2]، فعلى هذا الأساس قسَّم العرفاء درجات الحب إلى ثلاث درجات:

الدرجة الأولى

لأولئك الذين يرون الجمال وكل الجمال في كمال الأخلاق، فينجذبون إلى كل من اجتمعت فيه مكارم الأخلاق ومحامدها كالأدب والصدق والوفاء والأمانة وغيرها فيتعشقونه ويأنسون بلقائه ويميلون إلى مصاحبته ويتقربون إليه ويتخلقون بأخلاقه.

الدرجة الثانية

لأولئك الذين يرون الجمال وكل الجمال في كمال العقل، وأن كل جميل في عالم الوجود منشأه العقل، وهم الفلاسفة الذين يبنون نظرياتهم وآراءهم حسب قانون العلة والمعلول، فيعيشون في جذبة هذا

الجمال، ولولا نور الإيمان والسلوك في معارج العرفان الإلهي لكانت الغالبية العظمى من الناس مؤيدة لهذه الفرقة وداخلة في مسلكهم وجذْبتهم، ولرأت أن كل ما يؤيده العقل ويجد له سببا وعلة ويعترف به من صنعة واختراع جميل ولا أجمل منه.

الدرجة الثالثة

لأرباب الحقائق والعرفان وأهل الكشف والشهود الذين أنعم الله تعالى عليهم بقوة تفُوق قوة العقل، فهم مستغرقون في شهود نور الجمال الحقيقي ومجذوبون إلى شعاع الكمال الأزلي ويرون أن كل جمال دون الجمال المطلق زائل وبائد وأن نور جماله فوق كل نور ومنوِّر كل نور وليس كنوره نور، ويرون أن جمال وجه الحق الباقي في كل شيء قد تجلَّى في قلوب محبيه فيكونون له عاشقين وفي حبه فانين وبشهوده متنعمين مسرورين.

وأما علامة أصحاب الدرجة الثالثة من الحب هو أدبهم وخضوعهم وخشوعهم في محضر المحبوب، لأنهم يعلمون أن ناصيتهم ونواصي الخلق كله بيده سبحانه وهو معهم أينما كانوا، فيتحركون به ويسكنون به ويعبدونه عن رؤية ومشاهدة وحضور تام.

وبعد بيان درجات الحب وأصناف المحبين نقول أن المجذوب نحو الجمال في كمال الأخلاق يريد الوصف الثبوتي دون الإثبات والتحقق، ويطلب التخلق بخلق الآخرين، في حين أن العارف المجذوب نحو الجمال الإلهي منعوت بالأسماء الإلهية تخلُّقاً وتحقُّقاً، فيكون متخلقا بأخلاق الله ومرآةً للحق ومجلىً للمظاهر الإلهية والنعوت المقدسة[٣].

وأما المشتغل بعلم الأسباب والمتعلق بالمنهج العقلي في التحليل والتركيب والبحث في العلل والمعلولات والتوقف عندها والركون إليها حينما يصل إلى نتيجة ينجذب إلى جمال العقل ويتشدَّق بكماله وهو غافل عن العلم بالله الذي هو رب الأرباب وموجد الأسباب، فيكون تعلُّقُه بما توصَّل إليه عقله ونَفْي ما نفاه عقله صدأً على قلبه ومانعاً من تجلِّي جمال الحق فيه - وهو المتجلِّي بجماله وكماله لعباده في كل حين - وفي عمىً عما دعاه الله تعالى إليه وهو القائل سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٤] أي ليعرفون، فأين هو من العلم الإلهي والمعرفة الربانية التي تتجلى في قلب العارف الكامل فيدرك الحقائق الإلهية بعين القلب ويشاهد جمال الحق وحسنه وبهاءه!!

ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ احْتَجَبَ عَنِ العُقولِ كَما احْتَجَبَ عَنِ الأَبْصارِ»[٥]!!

ولا نعني بقولنا هذا أن العرفان لا يؤيد البحث والاستدلال، فإن كلا من القوة العاقلة - وهي

محـور الأصـول العقلية والعلوم الفلسـفية - والقلب - وهو محـور العلوم الإلهية والعرفانية - سـبيل للإدراك والفهم حسب القابلية في كل إنسان[٦]، ولكن نقول أن القلب أخص من العقل وأن العرفان يرى أن العقل قاصر في إدراك حقائق الألوهية وأسرارها وغير كافٍ للاتكاء عليه في السير والوصول إلى المقصود، ولهذا كان العرفان علما جامعا يجمع بين العلم الكشفي والعلم العقلي والفكري، وبالتالي فهو أعمق رؤيةً وأوسع فضاءً من الفلسفة.

فأصحاب القلوب يرون الله في كل مشـهد ومجْلَى ﴿.... فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ....﴾[٧] ووجه الشيء حقيقته، ولكن العقل لا يدرك هذا المعنى ولا يحتويه، فتقصر عن إدراكه أفهام العقلاء، وأنَّـى يكـون لهـم ذلك وهم يريدون بالدليل العقلي والنتاج الفكري أن يتصوروا من يسـتحيل عليه الصورة والتصور، فترجع عقولهم أمام جمال الحق قاصرة حاسرة خائبة!!

ثم إن العقل يتبع لسـان الظاهر وليس له القدرة على إدراك الحقائق اللامتناهية والمعاني اللامحدودة المجردة عن المادة، وبحسب قوته الفكرية والنظرية لا يدرك سوى المفهومات الذهنية ولوازم الهويات الوجودية دون الحقائق الخارجية، لأنه من عالم التقييد، وهو في حد ذاته ضيق في غاية الضيق، ومحدود بمحدودية الماديات والمحسوسات، وعاجز عن تجريد المعاني عن المواد، ولهذا سمي عقلا من العقال، بخلاف القلب الذي يتقوَّم عليه العرفان ويتبع لسان الباطن فيسع الحق تبارك وتعالى اللامتناهي كما في قوله تعالى في حديث قدسي: «يَسَـعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»[٨] فالقلب يسـع الحق حين ضاق عنه العقل فلم يسعه ولم يدركه!!

من ناحية أخرى فإن الـعـقـل يـحجب الحقائق والمعاني تحت سـتار الكلمات والألفاظ التي يعتني بهـا - أي الكلـمات والألفـاظ - كثيرا في حـين أنه يغفـل عن الحقائـق والمعاني ذاتها، بينـما ينظر قلب العارف - ولا كل قلب - إلى تلك الحقائق والمعاني بذاتها، وقد لا يجد في خزانة الألفاظ ما يسـتخرجه لبيانها فيعبِّر عنها تارة ويمسك أخرى!!

يقـول الحكيـم الإلهي والعارف الرباني صدر المتألهين الشـيرازي (قده): «وإنِّـي لأسْـتَـغْـفِـرُ اللهَ كَثيـراً مِمَّا ضَيَّعْتُ شَـطْراً مِنْ عُمْري في تَـتَـبُّعِ آراءِ الْمُتَفَلْسِـفَةِ وَالْمُجادلينَ مِنْ أَهْلِ الكَلام وتدقيقاتِهِمْ وتعَلُّمِ جَرْبَزَتِهِمْ في القَـوْلِ وتفَنُّـنِـهِمْ في البَحْـثِ حَتَّى تـبَـيَّـنَ لِي آخِـرَ الأمْـرِ بنـور الإيمـانِ وتأييـدِ اللهِ المَنَّانِ أنَّ قياسَـهُمْ عَقـيمٌ وصِـراطَـهُمْ غَيْرُ مُسْـتقيم فألْقَـيْـنـا زمـامَ أمْـرِنا إليـهِ وإلَى رَسُولـهِ الـنَّـذيرِ الْمُنـذِرِ فكُـلُّ ما بَلَـغَـنـا مِـنهُ آمَـنَّا بِهِ وصَدَّقْـنـاهُ ولَـمْ نحْتَـلْ أنْ نُـخَـيِّـلَ لهُ وَجْهاً عَقْـلِـيًّا ومَسْـلَكاً بَحْثِـيًّـا بـلْ اقْـتَـدَيْنا بِهُداهُ وانـتَـهَـيْـنـا بنَـهْـيِـهِ امْتِثالاً لقـولــهِ تعالَى ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَـهَاكُمْ عَنْـهُ فَانتَهُوا﴾ حتَّى فتَحَ اللهُ عَلَى قَـلْبِنا مَا فَـتـحَ فأفْـلَـحَ ببَـرَكَـةِ مُـتـابَعَتِهِ وأنْـجَـحَ»[٩]!!

والمتمسِّك بقاعدة العلة والمعلول المعتمِد على كل ما أحالت إليه أدلة العقول غافل عما وهب الله تعالى بعض عباده من قوة تفوق في فضلها وشرافتها عن قوة العقل وتتسع دائرتها وإحاطتها عن دائرة العقل، فتعطي حكما قد توافق قوة العقل في بعض الأمور وقد تعطي خلاف ما تعطيه، فلا يمكن للعقل إدراكه ويستعصي عليه فهمه فضلا عن الاعتقاد به.

والدليل العقلي قد ينفيه دليل عقلي آخر، وقد يكونان متكافئان في القوة والإقناع فيصعب الترجيح، وقد يصيب العقل ويخطئ، بينما شهود الحق لا يكون إلا عن يقين، فمن تحبَّب إلى الله تعالى بالنوافل بعد كمال الفرائض وكان عند الله تعالى محبوبا وكان الله سمعه وبصره ويده وجميع قواه ولا يتصرف إلا بالحق في الحق للحق لا يخطئ سمعه ولا يرتاب بصره ولا تقدح عقله حيرة ولا شبهة، وكلما تجرد الإنسان عن الخِلَع الحسية الدانية والحجب المادية الفانية ولَبِس لباس البقاء وعَرَج بروحه معارج الارتقاء كان إلى نور الحق أقرب وإلى الجمال السرمد أحب وأعشق.

وعلاوة على ذلك كله فإن حب الجمال نعت إلهي كما ورد في حديث النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ»[١٠]، وجمال الصنعة يعود إلى جمال صانعه، والعقل من مصنوعات الله تبارك وتعالى، فمن أحب العقل أو أي مصنوع أو مخلوق في العالم من هذا المنظار دون استقلال وحسب قاعدة «الحب تابع للحُسن» فقد أحبه بالمحبة الإلهية، ويمكن أن نقول أنه في واقع الأمر قد أحب جمال الله تبارك وتعالى، وأما من استقل بحب العقل وحب جماله وكماله دون حب الله تعالى وحب جماله وكماله فقد ضلَّ ضلالا بعيدا!!

وكل محب - في أي درجة من درجات الحب التي ذكرناها - يدَّعي الحب ويزهو به، ولكن صدق الحب يتبين من ردود فعل صاحبه، والبلاء لا يكون إلا مع الدعوى، والدعوى لا تصْدُق إلا بالشواهد وإقامة الدليل، وهنا محل الامتحان هل المحب حينما يتطلب حبه الفداء والتضحية وقبول المصاعب والمشاكل في سبيل المحبوب صادق في حبه أم لا!!

رضوان الله تعالى على روح سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي الذي كان له تعبير خاص في هذا الباب في المحبتين الأوليتين حيث كان يقول (بالفارسية): «اينجاست كه مشتها باز ميشه، ودستها خالى، وهمه رسوا ميشوند»، أي هنا كلٌّ يفتح قبضته وإذا بالأيادي خالية ويفتضح المدَّعون للمحبة في دعواهم!!

وأما ردود الأفعال فهي كالتالي:

رد فعل المجذوبين إلى جمال الأخلاق:

وهؤلاء يعيشون في جذبة المحبوب ولا يتحملون فراقه ولكن ليسوا بمستعدين لقبول المتاعب

والصعاب والتضحية والفداء في سبيل المحبوب، ومقولتهم: «أحِبُّ الصالحين ولستُ منهم»!!

رد فعل المجذوبين إلى جمال العقل:

وهم الفلاسفة الذين يعيشون في جذبة عشق كمال العقل، وهؤلاء مستعدون لقبول المتاعب والصعاب في سبيل محبوبهم ما لم يتعارض مع مصالحهم الدنيوية، لأنهم يطلبون من وراء محبتهم جلب المنفعة ودفع المضرة والظفر بأسباب السعادة من حيث ما شخَّصته لهم عقولهم التي قصرت فهمها في حب ما خلقه الحق وجهلت حب الحق، فإذا ما شعروا أن ثَمَّ منافاة بين قبول الصعاب مع المصالح الكلية يبتعدون عن محبوبهم بسهولة ويستغنون عنه بيسر.

رد فعل المجذوبين إلى الجمال المطلق:

وهم أهل الله المخلصون في محبة الله المتنعمون بشهود جمال الحق المتنورة قلوبهم بتجليات محاسنه، وكما قيل أن «مَنْ أحبَّ شيئاً أحبَّ آثارَهُ»، والسالك إلى الله في مقام المحبة يتلذذ بطاعة مولاه وخدمة محبوبه ويتحمل أعباءها ومشاقها ابتغاء وجهه، ويشعر بالراحة والسعادة لما وفقه الله تعالى إلى خدمته والعمل من أجله، ويرى أن كل ما يملك في هذه الدنيا أمانة عنده ولابد أن يردها إلى صاحبها، فـ «العَبْدُ وَمَا في يَدِهِ لِمَوْلاهُ»، وليس له مُلك أقرب إليه وأعز عليه من نفسه، مع ذلك فهو على استعداد أن يقدمها قربانا في سبيل محبوبه.

يقول العارف الحقاني بابا طاهر الهمداني رضي الله عنه في كلماته: «المحبَّةُ أوَّلُها اخْتِبارٌ وأوسَطُها افْتِقارٌ وآخِرُها اخْتِيارٌ».

وفي شرحها يقول عين القضاة الهمداني: «مَنْ يدَّعي محبَّةَ الحَقِّ يختبِرْهُ المحبوبُ أوَّلاً بأنواع البَلاء، فإنْ كانَ كاذِباً رَجَعَ رَدًّا على أطْوائِهِ وإنْ يَكُنْ صادِقاً يَخْلُصُ لِمَنْ أبْرَزَ حالَهُ لسَبْكِ الامتحانِ عن غُشوشِ العِلَلِ، فيُعْرِضْ عن غَيْرِه مُقْبِلاً بالكليَّة عليه ويفتقرُ بالحقيقةِ إليه، وظهورُ هذا الافتقارِ في وَسَطِ المَحَبَّةِ، ثمَّ إنْ كانَ مِنَ المُصْطَفينَ بَلَّغَهُ اللهُ تعالى نهايةَ المَحَبَّةِ وخَلَعَ عنه لباسَ وجودِه واختارَه لمُنادَمَته ومُكالَمَتِه».

ويقول العارف الكامل الشيخ عبدالرزاق الكاشاني رضي الله عنه في شرح منازل السائرين: «فمقامُ المحبَّةِ آخِرُ منازلِ العَوامِّ الذي إذا نزَلوه خرَجوا مِنْ رُتبةِ العَوامِّ ودَخلوا في زُمْرَةِ الخَواصِّ فيكونُ أوَّلَ مقامٍ مِنْ مَقامِ الخَواصِّ»[11]!!

ثم يقول الشيخ رضي الله عنه: «المَحَبَّةُ تقتَضِي الوِصالَ وَالأنْسَ بالجَمالِ، والوِصالُ لا يُمْكِنُ إلاَّ بِبَذْلِ الروحِ، والأنْسُ يَمْنَعُ مِنْ الْتِفاتِ القَلْبِ إلَى ما سِوَى المَحْبوبِ»[12].

ولما كان السالك إلى الله يعيش في محبة الله ويمنع قلبه من التعلق بما سوى الله فهو يؤْثِر الفناء في الله عما ينسب إليه من فعل أو صفة أو ذات ويقدِّم روحه رخيصة في سبيله، وبذلك يكون قد وصل إلى أعظم اللذات وأبهجها.

ونعم ما قيل في هذا المقام:

فالروحُ أوَّلُ نَقْدَةٍ تَأتِي بها
في وَصْلِنا إنْ كُنْتَ مِنْ خُطَّابِنا

ويقول مولانا جلال الدين الرومي بالنظم الفارسي:

عشق از اول سركش وخونى بود
تا گريزد هركه بيرونى بود[١٣]

ويقول أهل محبة الله: «لا خَيْرَ في حُبٍّ يُدَبَّرُ بالعَقْلِ»، فالحب لا يجتمع مع العقل في محل واحد لأنه وراء طور مدارك العقل وحكمه يناقض حكم العقل، والمحب لا يعلِّل فعل المحبوب لأن التعليل من فعل العقل كما في قوله تعالى ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ....﴾[١٤]، وكل حب يُبقي في المحب عقلا يعقل به عن غير محبوبه أو تعقلا فليس بحب خالص.

عاقلان نقطه پرگار وجودند ولى
عشق داند كه در اين دايره سرگردانند[١٥]

فلولا نور محبة الله لا يكون للعقل في كشف كنوز الحقائق من نصيب ولا إلى المقصد الحق من سبيل، ﴿.... فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ....﴾[١٦]!!

إذا ما تجلَّى لي فكُلِّي نواظِرُ
وإنْ هو ناجاني فكُلِّي مَسامِعُ

أيها السالك إلى الله، حكِّم قلبك وانظر بعينه ﴿.... أفِي الله شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ....﴾، وهل ترى جمالا يفوق جمال الخالق البارئ المصور وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد!!

إلهي وسيدي ومولاي!!

«أنْتَ الَّذِي أشْرَقَتِ الأنْوارُ في قُلوبِ أوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ ووَحَّدُوكَ وأنْتَ الَّذِي أزَلْتَ الأغْيارَ عَنْ قُلوبِ أحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ ولَمْ يَلْجَأوا إلَى غَيْرِكَ»

«عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقِيباً وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً، إلهي أمَرْتَ بالرُّجوعِ إلَى الآثارِ فأرْجِعْني إلَيْكَ بكِسْوَةِ الأنْوارِ وهِدايَةِ الاسْتِبْصارِ حَتَّى أرْجِعَ إلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إلَيْكَ مِنْها مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إلَيْها ومَرْفوعَ الهِمَّةِ عَنِ الاعْتِمادِ عَلَيْها إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٍ»!!

الهوامش

(١) سورة القصص: آية ٨٨

(٢) تفسير الصافي: مجلد ١ ص ٣٠٣

(٣) يقول الحكيم الإلهي السبزواري (قده): الإنسان بعضه طالب التخلق بخلق بعض آخر، حتى ينتهي إلى التخلق بأخلاق الله تعالى، مثلا يتحرك الإنسان ليكون عالما أديبا وإذا كان يسعى أن يصير فقيها وإذا صار يشتاق إلى أن يغدو متكلما وإذا غدا يجهد أن يكون حكيما إلهيا يعني عالما عقليا مضاهيا للعالم العيني وإذا بلغ إلى هذا المقام الذي هو عزيز المنال يبتغي أن يكون متألّها عارفا ربَّانيًّا متصرفا ذا الرياستين فائزا بالحسنيين متخلقا بأخلاق الله جلَّ جلاله علما وعملا - الأسفار الأربعة مجلد ٦ ص ٤٣ التعليق.

(٤) سورة الذاريات: آية ٥٦

(٥) علم اليقين (للفيض الكاشاني): ج ١ ص ٣٩

(٦) إن العقل والقلب عاملان مهمان للإدراك في الإنسان، ولا يمكن للإنسان أن يستغني عن أحدهما، فالعقل لإدراك الحق من الباطل والحسن من القبيح والنافع من الضار وللحدِّ من الميول النفسانية والرغبات الوهمية، والقلب لإدراك الحقائق بنحو الشهود الموجب للإيمان والتوحيد ومعرفة الله تعالى والاتصال بعوالم الملكوت والجبروت واللاهوت والارتباط بذات الحق جل شأنه، ولكل منهما ميزان خاص في كتاب الله تعالى والأحاديث الشريفة، ففي شأن العقل قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ - سورة العنكبوت آية ٤٣، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ - سورة البقرة آية ٢٤٢، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ - سورة المؤمنون آية ٨، وقال رسول الله ﷺ: «ما قَسَمَ اللهُ لِلْعِبادِ شَيْئاً أَفْضَلَ مِنَ العَقْلِ» - محاسن البرقي: باب العقل ص ١٩٣ ح ١١، وقال أمير المؤمنين ؑ: «لا عُدَّةٌ أَنفَعُ مِنَ العَقْلِ وَلاَ عَدُوٌّ أَضَرُّ مِنَ الجَهْلِ» - بحار الأنوار: ج ١ ص ٩٥، وفي شأن القلب قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ - سورة الحج: آية ٤٦، وقال النبي ﷺ: «في القَلْبِ نورٌ لا يُضِيءُ إلاَّ مِنْ اتِّباعِ الحَقِّ وقَصْدِ السَّبيلِ وهُوَ نورٌ مِنَ المُرْسَلينَ الأنبياءِ مُودَعٌ في قُلوبِ المُؤْمِنينَ» - بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٦٥، وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إلَى أمْوالِكُمْ وإنَّما يَنظُرُ إلَى قُلوبِكُمْ وَأَعْمالِكُمْ» - مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ٢٦٤، وغيرها من الآيات والروايات.

(٧) سورة البقرة: آية ١١٥

(٨) غوالي اللآلئ: ج ٤ ص ٨، بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ٣٩، المحجة البيضاء ج ٥ ص ٢٦

(٩) الأسفار الأربعة: مجلد ١ ص ١١

(١٠) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٩٢، الكافي: ج ٦ ص ٤٣٨

(١١) شرح منازل السائرين: ص ٢١٦

(١٢) شرح منازل السائرين: ص ٢١٥

(١٣) الترجمة:

إن الـدخـول في طـريـق العشق لا يـكـون إلا بالدم

ليفر الأغيار وأهل الخيالات والآثار الذين هم ليسوا أهلا للعشق

(١٤) سورة الأنبياء: آية ٢٣

(١٥) الترجمة:

الـعـقـلاء هـم نقطة المـركـز لـفـرجـار عـالم الـوجـود

ولـكـن العشق يعلم أنهـم في هـذه الـدائـرة متحيرون

(١٦) سورة يونس: آية ٣٢

المنزل (٢٥)

فَنَـاءُ المُحِب

«الـحَـمْـدُ لله الأوَّلِ قـبْـلَ أوَّلـيَّـةِ الأوَّلـيـنَ والـبـاقِـي بَـعْـدَ فَـنـاءِ الـعَـالَـمـيـنَ»!!

اعلم أيها السـالك إلى الله أن الفَناء مرتبة علـيَّة شـامخة معقودة بمحبة الله تبارك وتعالى، ومع تعدد مراتب محبة الله وتفاوت درجات صفائها وكمالها كان التكثر في مراتب الفناء.

ووجـود العـالم عَـرَضي، أي أنه قائم بغيره لا بذاته ومفتقر إلى من يتقوَّم بـه ذاته، وكما قيل أن: «مـا بـالـعَـرَضِ لابُـدَّ وأنْ يـنـتَـهـي إلَى مـا بـالـذَّاتِ»، والـذات الأزلية المتعالية هـي ذات الله الأول الـذي ليـس لأوَّليته ابتداء، والآخر الـذي ليس لأبديته انتهاء، ولكل موجود غايـة ينتهي إليها، ولهذه الغاية غاية، إلى أن تنتهي كل الغايات إلى الوجود الحق الذي لا غاية له، لذا كانت المخلوقات في حركة جِبِلِّية وتوجه غريزي في طلب الوجود الصِّرْف الذي لا يشوبه عدم، والتقرب إلى الخير المحض الذي ليس فيه شـرَّ.

وكـما أن آخـر الدائـرة المرسـومة تنتهـي إلى أولهـا فإن كل مخلـوق دائـرة كاملة تنعطـف فاتحته على خاتمتـه وعوده إلى حيـث كان بدؤه كما نطق بذلك القرآن المجيد: ﴿اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْـقَ ثـُمَّ يُعِيدُهُ ثـُمَّ إلَيْهِ تـُرْجَعُونَ﴾[1]، فمآل كل الموجودات هو الرجوع إلى غاية الفيض والجود طبْعاً وإرادةً، والحب الكامن والعشـق الدائم في الخلق تجاه أصل الوجود هو علة شـوق الممكنات إلى واجب الوجود لذاته ورجوع المقيدات إلى الواحد المطلق والمبدأ الفياض المقوِّم له، فكما أنه هو مبدأ كل شيء فهو مرجع كل شيء كما جاء في قوله تعالى: ﴿.... وَإلَيْهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلُّهُ....﴾[2] وقوله تعالى: ﴿.... وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَأنَّ إلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾[4] وما جاء في غيرها من الآيات بخصوص هذا المطلب.

والفنـاء في المفهـوم اللغوي يعني تغير الصفات وزوالها، وأما عند أهـل الله فإن للفناء معانٍ كثيرة،

ويمكـن القول بتعريف عام بسيط أن الفناء هو الاتصـال بالحق جلَّ وعلا والتقرب إليه بعد الافتراق عن كل ما سـوى الله والابتعاد عنه[٥]، وقيل أن الفناء هو عدم شـعور الشـخص بنفسـه ولا بشيء من لوازمها[٦]، بمعنى أن السـالك إلى الله يعلم أن الله تعالى يدير كل إدراكاته وحركاته وأفعاله ويحيط بها ويظهر بها.

والفناء حال يقي الفاني من أن يؤثر فيه ما فَنَى عنه، ولتقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان نرى أن نأتي بأمثلة في الفناء المجازي لأنه كما قيل «المَـجـازُ قَـنْـطَـرَةُ الـحَـقـيـقَـةِ»:

قـال كُثَيِّــر أن ألـذ ما مرَّ عليَّ في حـب عَـزَّة أنه كان معه ركب يريدون الحـج وقد اتفق أن في ذلك الركـب عَــزَّة مع زوجها، وكان كثيِّر لا يعلم بهـا، فبينما هو ذات يوم في الطريق يبري وإذا عَـزَّة واقفة عـلى رأسـه، فطار لـبُّـه لما نظر إليها، وصار يبري أصابعه بالشـفرة والدم يسـيل مـن يده وهو لا يحس به[٧]!!

وحكى الشـيخ البهائي طاب ثراه أن رجلا يهوديا كان عنده جارية وكان مفرطا في حبها ومتعشـقا لهـا، فمرضـت يوما واحتاجـت إلى طبخ طعام لمكان المـرض، فوضع القدر، فلما قرب اشـتواء الطعام احتاج إلى سـوطه (تحريكه)، فأخذ المغرفة وشرع يسـوطه، فكان هو يسـوط الطعام والجارية تئن، فلما سمع أنينها اشتغل قلبه بها، فوقعت المغرفة من يده، وصار يسوط القدر بيده ولم يحس به حتى تساقط لحم يده، فلما سكنت من الأنين ورجع إليه عقله رأى أنه كان يسوط القدر بيده[٨]!!

ثم انظر إلى الفراشة التي تحوم حول الشمع وتتقرب إليه شيئا فشيئا حتى تلقي بنفسها فيه وتحترق، مـا كان غرضهـا من هذا العمل؟! هل كانت تريد أن تبقي لنفسـها هوية أو إنيَّة أو تضيف على تعيناتها شيئا؟! أو كانت تريد أن تصنع لذاتها كمالا صوريا؟! أم أنها كانت تقصد المحو والفناء في الشمع حتى تصير شمعا ونورا!!

وانظر إلى الأم التي حينما ترى ولدها يحترق في النار لا تجد طريقا سوى أن تفدي بروحها في سبيل إنقـاذه، فتلقي بنفسـها في النار بلا أدنى تفكر وتَرَوِّي، هـل كانت تريد بذلك إثبات هويتها أو إنيَّتها؟! أم أنها كانت تريد المحو والفناء في سبيل بقاء ولدها!!

هذا حال الفناء في المخلوق فما ظنك بالفناء في الخالق وهو (أي الفناء) – كما قال الحكيم السبزواري (قده) – قرة عين العارفين!!

ونظـير مـا ذكرنا من مراتب الحب المجازي في مراتب الحب الحقيقـي لله تعالى والفناء في الخالق عزَّ وجـلَّ مـا ورد في أحوال مولانا سـيد العاشـقين أمير المؤمنين عـليعليه السلام، فقد رُوي أنه حينـما وقع نَصْل في قدمـه لم يتمكن أصحابه مـن إخراجه إلا في حين صلاته، لأنهم يعلمون أنهعليه السلام في تلك الحالة يكون

فانيا في الله عن الخلق، ومجذوبا بكل كيانه ووجوده إلى الحق المتعال، وفي أعلى مراتب القرب منه، فلا يؤثر عليه ألم الجراح.

وقد قسَّم العرفاء الفناء إلى ثلاث مراتب:

المحو: وهو فناء أفعال العبد في أفعال الحق بقيام الحق على ذلك.

الطمس: وهو فناء صفات العبد في صفات الحق.

المحق: وهو فناء وجود العبد في وجود الحق وهو مقام أهل الوحدة وأهل الفناء في التوحيد[٩].

وأما تفصيل ذلك:

يقول العرفاء أنه «لا مُؤثِّـرَ في الوُجـودِ إلاَّ اللهُ» ولا فاعل في الوجود إلا الله ولا فعل إلا لله فهو القائل سبحانه: ﴿أفمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ....﴾[١٠]، فالفاعلية الاستقلالية وإفاضة الوجود مختصة بالحق سبحانه، وإن الأفعال كلها بما فيها الأفعال الاختيارية لا تكون إلا بإذنه ومشيَّته وتقديره، والسالك الفاني في الحق عارف بحقيقة «لا حول ولا قوة له إلا بالله»، وأن وجوده وكل ما يتبعه من قوة وفعل وإدراك قائم الذات بالذي فطره ومملوك لمن أوجده ومفتقر إلى من بَرأه، وأن الذات الإلهية المتعالية هو الغني عن العالمين والقاهر فوق عباده والقيوم المطلق القائم على كل شيء والمدبِّر لكل شيء ومنه يبدأ كل شيء وإليه ينتهي كل شيء، فيترك ما في أيدي الخلق ويؤثر جناب الحق ويرجو ما عنده، حتى يكون الحق كل قواه، ويفنى فعله في فعل الله وإرادته في إرادة الله، ويكون الحق متصرفا فيه بالكلية كيف ما يشاء.

وعلى هذا كلما تقرب العبد إلى الحق تعالى بالحب والمعرفة وخرج من قيد الأهواء وأسْر المرادات وغُلِّ الشهوات وكدر الشبهات تصرَّف الحق في نفسه وعقله وقلبه وجميع أعضائه وجوارحه كما هو يريد، وهذا ما يسمى بالفناء في الأفعال، أي فناء رؤية العبد فعله بقيام الله على ذلك، من هنا كان قول مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «عَرَفْتُ اللهَ سُبْحانهُ بِفَسْخِ العَزائِمِ وحَلِّ العُقودِ ونَقْضِ الهِمَمِ»[١١]، وقوله عليه السلام: «والله مَا قَلَعْتُ بابَ خَيْبَرٍ بقُوَّةٍ جِسْمانِيَّةٍ بَلْ بقُوَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ»[١٢]!! فالفناء في الله أن لا ينظر العبد السالك إلى الأسباب المعتادة والعلل الواسطة بل يرى إرادته قد اضمحلت في إرادة الله ولا قدرة له إلا بقدرة الله.

ثم إن العبد السالك إلى الله حينما يتَّصف بطاعة ربه في نوافل الخيرات فإنه ينفي السماع بسمعه والتكلم بلسانه والنظر ببصره والبطش بيده والسعي برجله ويثبت أحكام صفات الحق كالسمع بالله والتكلم بالله والنظر بالله والبطش بالله والسعي بالله وتفنى جميع متعلقات إرادته في إرادة الله تبارك

وتعالى[١٣]، وهذا ما يعرف بالفناء في الصفات، أي فناء الصفات البشرية وبقاء الصفات الإلهية، إذ أن لكل عبد جهتان جهة إلى الخلق وجهة إلى الحق، فكلما ارتفعت عنه صفة بشرية حلَّت محلها صفة ربوبية حتى تغلب عليه أحكام الوجوب، ويظهر فيه باطن الربوبية التي هي كنه جوهر العبودية كما قال صادق آل محمد جعفر بن محمدﷺ: «العُبُودِيَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهُهَا الرُّبُوبِيَّةُ»[١٤]، ولا يكون ذلك إلا باندكاك إنيَّته واضمحلال أثره واسمه ورسمه وحكمه وتعينه وهو نتيجة قرب النوافل.

وعلى هذا فحاصل قرب النوافل هو فناء صفات السالك المجذوب في صفات الحق وأفعاله في أفعال الحق واستهلاك علمه في علم الله وقدرته في قدرة الله حيث أن كل علم وقدرة في عالم الوجود لا توجد إلا بواسطة الفيض الإلهي، وأن مبدأ العلم والقدرة ومنشأهما هو الله تبارك وتعالى، وكذلك باقي الصفات والكمالات، فيكون الحق لسانه وسمعه وبصره ويده وكل حواسه وقواه من غير حصر ولا تشبيه، فالمتكلم والسميع والبصير هو العبد الفاني ولكن لا بنفسه بل بالحق، وبالتالي يكون عارفا بحقيقة كلمة «لا إله إلا الله» حيث أن «الله» اسم جامع لجميع الأسماء الإلهية والصفات الكمالية.

وأما الفناء في الذات فهو مقام أهل الوحدة وأهل الفناء في التوحيد، وهذا النوع من الفناء يحصل بترك الالتفات إلى الذات والإقبال بكلية الذات إلى الحق حتى لا يبقى له جهة خلقية ويستتر وجوده الإمكاني في الوجود الحقاني السرمدي ويفنى عن نفسه في الحق ويبقى به، فلا يرى نفسه ويكون في الدنيا بهيكله وصورته وعند الله بحقيقته ومعناه، ويدخل في زمرة الأولياء الموحِّدين لله الذين جاء في حقهم قول ربهم جلَّ وعلا في حديث قدسي: «أَوْلِيَائِي تَحْتَ قِبَابِي لا يَعْرِفُهُمْ غَيْرِي»[١٥]!!

تا نگردى بيغش وپاك از وجود
ره كجا يابى به خلاَّق ودود[١٦]

وقالت العالمة الجليلة بانو إصفهاني (قده) في معنى الفناء:

«فالمقصودُ مِنْ فَناءِ العبدِ عن نفسِه وبقائِه بربِّه ليسَ فناءَ وجودِه رأساً بل المقصودُ أنَّ العارفَ إذا صارَ مُسْتغرِقاً في الله تعالَى يصيرُ غافِلاً عنْ جهاتِ بشريَّتِه وأنانيَّتِه لا ذاتِه ووجودِه رأساً فيكونُ سيْره في الله ومع الله، فكلُّ شيءٍ اَسْتَنَدَ إلى نفسِه قَبْلَ ذلك من الأوصافِ والكَمالاتِ يستندُ حينئذٍ إلَى الله لعدم بقاءِ أنانيَّته عنده أبداً فهو لا يزالُ في بهجةٍ وسرور لانتفاءِ ما يُنافي نفسَه من الأمور المُلائمةِ لها وذلك

لأنـــَّه لا يـريـدُ إلاَّ مـا أرادَ اللهُ تعالَى لِمكانِ اسْــتـهْـلاكِ أنـانـيَّـتِـه فيصيرُ هـمُّـه هـمًّـا واحِـداً فـلا يَـلْـتفِـتُ إلَى غـيـرِه تعالَى حـتـَّى إلى نـفسِـه فـضْـلاً عن غـيـرِها».

وقد يسأل البعض: ما هو العرفان؟!

يجيب على ذلك عارف من العرفاء حينما دخل عليه رجل يريد أن يرشده إلى طريق العرفان ومعرفة الله عـزَّ وجـلَّ فقال له: أتريد أن تكـون عارفا حقا؟! قال: نعم، قال العـارف: أين واقف أنت الآن؟! فقـال الرجـل: في الدهليز، فقال العـارف: الدهليز مدفن العرفاء، فـإذا أردت أن تدخل بيت العرفان والعرفـاء والسـالكين إلى الله عليك أن تدفن نفسـك وهويتك وإنيَّتك في دهليـز هذا البيت ثم تدخل، فالعرفان ليس إلا قدمان، القدم الأولى دفن النفس والهوية والإنيَّة والأنانية، والقدم الثانية التوجه إلى الله تعالى، فإذا كنت قادرا على ذلك فافعل وإن لم تقدر عليه فاذهب ولا تشغلني.

يـك قـدم بـر نفـس خـود نـه
ديـگـرى در كـوى دوسـت[١٧]

أو كما قيل:

اوَّل قـدم آنسـت كـه او را طـلـبى
آخـر قـدم آنست كـه بـا او بـاشـى[١٨]

فسـمع بعـض أهل العرفان هـذا الكلام - وكان أعلى مقاما من العـارف الأول - ثم قال: طوَّلَ ما قَصَّرَ الله، بل قدم واحدة على النفس وقد وصَلْتَ!! لأنه متى ما وضع الإنسان قدمه على نفسه وقضى عـلى الجهـة الخلقية والأنانية منها واضمحل اسـمه ورسـمه وفنت هويته وإنيَّته ظهـرت على أثر ذلك تلقائيا الجهة الحقية والرحمانية فيه.

وقـد ورد في حديـث قدسي أنه حينما سـئـل الله تعالى كيـف الطـريق إليـك؟! قال سـبحانه: «دَعْ نـَفْـسَـكَ وتـَـعـالَ»!!

فمـع فناء الذات يعرف العبد السـالك ربه بالبقاء والأبدية كما أشـار إلى ذلـك مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «وبوَجْهِكَ البـاقِي بَعْـدَ فَـنـاءِ كُلِّ شـَيْءٍ»[١٩]!! من هنا كان قول العرفاء بأن الفناء في الحق ليس أمرا عدميا بل يعقبه بقاء بالحق، لأن الفناء - كما ذكرنا في تعريفه - دثور الصفات الخلقية الفانية وظهور الصفات الحقية الأبدية الباقية، ومع الوصول إلى هذا المقام يصل الفاني في الله إلى حقيقة كلمة: «يا هُو يا مَنْ هُوَ هُو يا مَنْ لا هُوَ إلا هُو»[٢٠]، ويشاهد شتات الحسن والجمال المتفرق في الأكوان مجمـوع في الجـمال المطلق فـانٍ فيه، فلا هوية باقية سـوى الهوية الأحدية المطلقـة ولا وجود إلا الحقيقة الحقة الواحدة.

يقول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي:

گفتم که کی ببخشي بر جان ناتوانم
گفت آنزمان که نبود جان در میانه حائل[٢١]

وكما أن الفناء في الصفات من خواص القرب الحاصل من النوافل فإن الفناء في الذات من خواص القرب الحاصل من الفرائض إذا جاء بها العبد السالك موفيا حقها وبالميزان الصحيح، أي كما أن النوافل تعطي العبد السالك الفاني أحكام صفات الحق فيكون الحق سمعه وبصره ويده وجميع قواه فإن الفناء في الذات تجعل نوره مندرجا في نور الله، فيكون كله نورا، فينظر بذاته ويسمع بذاته ويتكلم بذاته لا بصفته كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «اتَّقُوا فَراسَةِ الـمُؤمِنِ فإنَّهُ يَنْظُرُ بنُور الله»[٢٢]، أي أن ذاته عين سمعه وعين بصره وعين بطشه وعين سعيه.

تا نگردی از وجود خویش پاك
دل نگردد از طهارت نورِ پاك[٢٣]

وقرب الفرائض لا يحصل إلا بعد قرب النوافل، لأن نتاج قرب النوافل هو استهلاك الأسماء والصفات بينما نتاج قرب الفرائض هو استهلاك الذات والفناء التام واحتراق الكل بعد فناء الاسم والرسم بالكلية، وإذا شملت العبد عناية إلهية وبقي بعد فنائه ببقاء الله يكون مخفيا في سمع الحق وبصر الحق وكلام الحق وإرادة الحق، فيسمع الحق بسمع العبد ويبصر ببصره ويتكلم بلسانه ويريد بإرادته[٢٤]، وهو أمر أعلى من كون الحق سمع العبد وبصره وكلامه و.... و..... الذي يسببه قرب النوافل.

حينما يقول العارف الفاني في الله قبل البدء بصلاته: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ....﴾[٢٥] فقد أضاف الوجه - وهو في محضر الحق ومقام الشهود - إلى نفسه، لأنه فنى عن نفسه واضمحلت آثاره وصار وجهه وجه الله ولسانه لسان الله، كما قال الحق على لسان عبده «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»!! ثم إن وجه الشيء هو ذاته، والعبد الفاني في كل أحواله لا سيما في صلاته يتوجه بكليَّته إلى الله ويقوم بذاته لله عزَّ وجلَّ دون الالتفات إلى ما سواه، ثم قوله: ﴿...إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢٦] إنما هو تصديق لقوله تعالى: ﴿.... وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ....﴾[٢٧] وإن كان الفاعلَ المباشر لها هو العبد.

فالعارف يعلم أن كل ما يصدر منه من أفعال إنما هي لله تعالى ومن أجله لا من أجل عود المنفعة والخير على نفسه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٢٨]، فالمقصود من العبادة والحياة والممات هو الله عزَّ وجلَّ لا غير كما جاء في قول مولى الموالي أمير المؤمنين عليه السلام: «ولكِن وَجَدْتُكَ

أَهْـلاً لِـلْـعِـبَـادَةِ فـعَـبَـدْتــُـكَ»[٢٩].

والفناء في التوحيد هو منتهى السـفر الأول من الأسـفار الأربعة، وهو السـفر من الخلق إلى الحق، ومـن الكثـرة إلى الوحدة، ومبدأ السـفر الثاني وهو السـفر في الحـق بالحق، وأما البقاء بعـد الفناء فهي مرتبـة لا تحصـل إلا في السـفر الثالث من الأسـفار الأربعة، أي من الحق إلى الخلـق بالحق، ويزول فيه السُّكْر والمحو، ويحصل له الصحو التام، ويبقى ببقاء الله، ويسلك في مراتب الأفعال، ويسافر في عوالم الجبروت والملكوت والناسوت، ويشاهد هذه العوالم بأعيانها ولوازمها، وينبئ عن معارف ذات الحق وصفاته وأفعاله[٣٠].

ومـن جملـة الآيات الدالة على مقام الفنـاء التام في الحق قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يُبَـايِــعُـونَـكَ إِنـَّمَــا يُـبَـايِـعُـونَ اللهَ يَـدُ الله فَـوْقَ أَيْـدِيـهِـمْ....﴾[٣١]، فالله سـبحانه يخاطب نبيهﷺ وهو الإنسـان الكامـل الفـاني في الحـق الباقي به أنَّ يده هو يد الحق كما جعل رميه رمي نفسـه في قوله تعالى: ﴿...وَمَا رَمَيْـتَ إِذْ رَمَيْـتَ وَلَكِـنَّ اللهَ رَمَـى....﴾[٣٢] وجعـل طاعته هو عين طاعتـه في قوله تعـالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ....﴾[٣٣].

وقـد عبَّر خاتم الأنبياءﷺ عن مقامه الإلهي الشـامخ عند فنائـه في ذات الله عزَّ وجلَّ بقوله: «لِي مَعَ الله وَقْتٌ لا يَسَعُـنِي (لا يَسَعُهُ) مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَـبِــيٌّ مُـرْسَـلٌ»[٣٤]!! فلم تكن بينه وبين الله واسطة ولم يَـرَ غير ربه وكان بكليَّته لله تعالى لا بنفسـه ولم يـدْنُ من مقامه مَلَك مقرب كما قال جبريلعليه السلام: «لَـوْ دَنَـوْتُ أَنْـمُـلَـةً لاحْـتـرَقْـتُ»[٣٥] ولا نبي مرسل وهو من جملة النبيين والمرسلين، ففنى في مقامه هذا عن تعينه ونبوته ورسالته!!

وكذلـك مـا جـاء في الأحاديـث النبوية الأخـرى وروايات أهل البيـتعليهم السلام الذين جعـل الله تعالى زيارتهـم زيارتـه وطاعتهم طاعته ومعصيتهم معصيته وولايتهم ولايتـه ومعاداتهم معاداته لا كما يظنه أهل التشبيه تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

قـال خـير البشر النبي المصطفىﷺ: «مَنْ زارَني في حَياتِي أَوْ بَعْـدَ مَوْتِي فَقَدْ زارَ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ»[٣٦]، ومن زار واحدا من الأئمة المعصومين كان كمن زار رسول اللهﷺ[٣٧].

وعـن أبي الحسـن علي بن موسـى الرضاعليه السلام أنه قال: «مَـنْ زارَ قَبْرَ أَبِي عَبْدِالله عَلَيْهِ السَّـلامُ بشَـطِّ الفُراتِ كانَ كَمَنْ زارَ اللهَ فَوْقَ عَرْشِهِ»[٣٨]!!

وقالعليه السلام أيضا: «مَـعْـرِفَـتِـي بِـالـنُّـورانِـيَّـةِ مَـعْـرِفَــةُ الله عَـزَّ وَجَـلَّ»[٤٠]!!

وورد في الأحاديث الإمامية في ذيل تفسـير بعض الآيات كقوله: ﴿فَـلَـمَّـا آسَـفُـونَـا انـتَـقَـمْـنَـا مِـنْـهُـمْ﴾[٤٢] وغيرها من الآيات التي تسـند الغضب والأسـف والانتقام و.... و.... إلى الله تعالى أن

الله تعالى ليس له الغضب والأسف[٤٣] وغيرها بل إن له من العباد والأولياء الفانين عن أنفسهم الباقين بالله الذين كان أسفهم وغضبهم موجبا للانتقام الإلهي ونزول العذاب[٤٤]، كما قال رسول الله ﷺ في شأن الصدِّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام: «إنَّ اللهَ لَيَغْضَبُ لِغَضَبِ فَاطِمَةَ ويَرْضَى لِرِضَاهَا»[٤٥].

وخلاصة القول أن قوس الصعود هو السفر الإلهي الأول من الخلق إلى الحق وهو أن يقطع السالك إلى الله مراحل الكمال الذي يبتدئ من عالم الناسوت وبواسطة الإمدادات الغيبية والفيوضات الإلهية يترقى وجوده فيطوي عالم الملكوت ويتجاوز عن فضاء عالم الجبروت ويدخل في حريم قدس اللاهوت وينتهي إلى الفناء في الله والبقاء بالله.

الهوامش

(١) سورة الروم: آية ١١

(٢) سورة هود: آية ١٢٣

(٣) سورة البقرة: آية ٢٤٥، سورة يونس: آية ٥٦، وغيرهما

(٤) سورة النجم: آية ٤٢

(٥) يقول صدر المتألهين (قده) أن اتصال العارف بالحق يعني حالة روحانية تليق بالمفارقات لا أن هناك اتصال جرمي أو امتزاج ولا اتحاد اثنين ولا بطلان إحدى الهويتين.

(٦) الإنسان الكامل: ج١ ص ٨١

(٧) الأنوار النعمانية: ج ٣ ص ١٧٣

(٨) الأنوار النعمانية: ج ٣ ص ١٦٧

(٩) السحق تغير إلى الدثور والدروس، والمحق نقصان الشيء حالا بعد حال ووقوعه في طريق الفناء والزوال تدريجا، والطمس محو الشيء حتى يذهب أثره.

(١٠) سورة الرعد: آية ٣٣

(١١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٩ ص ٨٤

(١٢) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ٤٨، مناقب ابن شهرآشوب: ج ٢ ص ٢٧٢

(١٣) كما ورد في الحديث القدسي المعروف بحديث قرب النوافل حيث يقول الباري عزَّ وجلَّ: «ما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ ما افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّافِلَةِ (بالنَّوافِلِ) حَتَّى أُحِبَّهُ فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِها ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها إِنْ دَعاني أَجَبْتُهُ وإِنْ سَأَلَني أَعْطَيْتُهُ» - مستدرك الوسائل: ج ٣ ص ٥٨، أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٥٢، محاسن البرقي: ص ٢٩١، رياض الصالحين (للنووي): ص ٦٣

(١٤) مصباح الشريعة: باب ١٠٠ ص ٦٦

(١٥) إحياء علوم الدين: ج ٤ ص ٢٥٦

(١٦) الترجمة:

ما لم تكن مطهَّرا من وجودك
فكيف تجد لك طريقا إلى الخلاق الودود!!

(١٧) الترجمة:

ضع قدماً على نفسك
وقدماً أخرى في فِناء المحبوب

(١٨) الترجمة:

أن تـــكـــون الـــقـــدم الأولى في طـــلـــب الحـــق
حـــتـــى تـــكـــون الـــقـــدم الأخـــــــيرة مـــع الحـــق

(١٩) فقرة من دعاء أمير المؤمنينعليه السلام الذي علَّمه كميل بن زياد النخعي واشتهر بدعاء كميل

(٢٠) عـن أمـير المؤمنـينعليه السلام أنه قال: رأيت الخـضرعليه السلام في المنام قبل بـدر بليلة فقلت لـه علِّمني شـيئا أُنصَر به على الأعـداء، فقـال: قل «يـا هُو يا مَنْ لا هُوَ إلاَّ هُو»، فلما أصبحت قصصتها على رسـول الله صلى الله عليه وآله فقال لي: يا علي عُلِّمـت الاسـم الأعظم، وكان على لسـاني يوم بـدر، وأن أمير المؤمنينعليه السلام قرأ قل هـو الله أحد فلما فرغ قال: «يا هُو يا مَنْ لا هُوَ إلاَّ هُو اغْفِرْ لي وانصُرْني عَلَى القَوْمِ الكافِرينَ»، وكان عليعليه السلام يقول ذلك يوم صفين وهو يطارد، فقال له عمار بن ياسر: يا أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟! قال: اسم الله الأعظم وعماد التوحيد لله لا إله إلا هو ثم قرأ ﴿شَـهِدَ اللهُ أنَّـهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُو....﴾ - بحار الأنوار: ج ٣ ص ٢٢٢، ج ١٩ ص ٣١٠، ج ٦١ ص ٢٤٢

(٢١) الترجمة:

سألته متى تفيض عـلى روحـي المتعَب مـن فيضك
قال في الوقت الـذي لا يكون روحـك حائلا بيني وبينك

(٢٢) الكافي: ج ١ ص ٢١٨، عيون الأخبار: ج ٢ باب ٤٦ ص ٢٠٠

(٢٣) الترجمة:

مـــــا لم تـــــطْـــــهُـــــر مـــــن وجـــــــــودك
لـــن يـــكـــون قـــلـــبـــك مـــن الـــطـــهـــارة نـــورا

(٢٤) يقـول العـارف الإلهي محمد رضا القمشـه اي (قده) أن الفناء في الذات قسـمان: فناء اسـتهلاك كضياء نور الكواكـب في نور الشـمس وحينئـذ يبقى عين الفاني وذاته ويرتفع حكم إنيَّته ويبقى بعد الفناء عند شـمول عنايـة الله وتوفيقه ويكون وجوده حقانيا (ويسـمى أيضا بالصحو بعد المحو أو الإفاقة بعد الصعق)، وفناء هـلاك كفنـاء الأمواج عند سـكون البحر وحينئذ يـزول عين الفاني ويفنـى أثره وليس له البقـاء بعد الفناء لامتناع إعادة المعدوم.

(٢٥) سورة الأنعام: آية ٧٩

(٢٦) سورة الأنعام: آية ١٦٢

(٢٧) سورة هود: آية ١٢٣

(٢٨) سورة الذاريات: آية ٥٦

(٢٩) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ١٨٦، الوافي: ج ٣ ص ٧٠، الحقائق لفيض الكاشاني: ص ١٠٣، روض الجنان: ج ١ ص ٢٧

(٣٠) كـما ذكرهـا الحكيم الإلهي محمد رضا قمشـه اى (قده)، وقد سـبق بيان مراتب الأسـفار الإلهية كما قسَّـمها

أسـاطين العرفـان والتـي ذكرها صدر المتألهين الشـيرازي (قده) في كتابه المشـهور بـ«الأسـفار الأربعة» في المنزل (١٤)، فراجع.

(٣١) سورة الفتح: آية ١٠

(٣٢) سورة الأنفال: آية ١٧

(٣٣) سورة النساء: آية ٨٠

(٣٤) بحار الأنوار: ج ٨٢ ص ٢٤٣، وبلفظ «يَسَعُهُ» في بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٣٦٠

(٣٥) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٣٨٢

(٣٦) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٣، التوحيد: ص ١١٧

(٣٧) عـن زيـد الشـحـام قال قلت لأبـي عبـدالله‰: ما لمـن زار واحـدا منكم؟! قـال‰: «كَمَنْ زارَ رَسُـولَ الله‰» - بحار الأنوار: ج ١٠٠ ص ١١٧

(٣٨) ثواب الأعمال: ص ٨٥ ط٢ قم، ومنه بحار الأنوار: ج ١٠١ ص ٦٩

(٣٩) بحـار الأنوار: ج ٢٤ ص ١٩٤، ونقل الشـيخ الصدوق‰ في التوحيـد ص ١٦٥ أنه‰ قال: «أنا عِـلْـمُ الله وأنا قَـلْـبُ الله الواعِـي ولِـسَـانُ الله النـاطِـقِ وعَـيْـنُ الله وجَـنـبُ الله وأنا يَـدُ الله».

(٤٠) بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ١

(٤١) بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٣٦٧

(٤٢) سورة الزخرف: آية ٥٥

(٤٣) الإيسـاف: الإغضاب، وقال الراغب في المفردات: الأسف الحزن والغضب معا وقد يقال لكل واحد منهما على الانفراد وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا.

(٤٤) عن البرقي عن أبيه يرفعه إلى أبي عبدالله‰ في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَـا انتَقَمْنَـا مِنْهُمْ﴾ قال‰: «إنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالَى لا يأسَــفُ كأسَـفِـنا ولكنــَّهُ خَلَقَ أولياءً لنفْسِهِ يأسَفُونَ ويرْضُونَ وهم مخلوقونَ مُدّبِّرونَ فجعلَ رِضاهُمْ لنفْسِهِ رِضاً وسخَطَهُم لنفْسِهِ سخَطاً وذلكَ لأنــَّهُ جعلَهُمُ الدُّعاةَ إليهِ والأدِلاَّءَ عليهِ ولذلك صـارُوا كذلـك وليْسَ أنَّ ذلك يصِـلُ إلى الله عَـزَّ وجَـلَّ كما يصِــلُ إلى خَلْقِـهِ» - التوحيد: ص ١٦٨ ومنه بحار الأنوار: ج ٤ ص ٦٥

(٤٥) أمالي الشيخ المفيد: مجلس ١١ ص ٩٥، مناقب ابن شهرآشوب: ج ٣ ص ٣٧٢، ومنه بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ٤٤

المنزل (٣٦)

الفَناءُ الاخْتِيارِيُّ عِنْدَ المحب

لما كان لقاء الله تعالى حق محتوم لا ريب فيه وتحققه لا يكون إلا بالموت والفناء فقد اختار العارف بالله التجرد عن حكم نفسه وإنيَّته ومحو تعينه وهويته والخروج عن محبس إرادته وتصرفاته وتزكية نفسه وتطهير قلبه عن كدورات العلائق والعوائق التي تحول بينه وبين محبوبه في حياته الدنيا حتى تجلو مرآة قلبه وتكون قابلة لما يرد عليها من التجليات الإلهية ويتحقق بذلك اللقاء الأبدي والبقاء السرمدي الذي لا فناء بعده، ومن هنا قيل: «مَنْ أحَبَّ اللِّقاءَ اخْتارَ الفَناءَ عَلَى البَقاءِ»!!

والعارف بالله لما عرف حقيقة قوله تعالى: ﴿.... وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ....﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾[2] وعرف حتمية الرجوع إليه سبحانه فهو يرجع إليه محبا مختارا لا كارها مضطرا، والعارف بالله هو الذي يعجل الرجوع إلى الله تعالى في حياته الدنيا بفناء نفسه، قال الله تعالى في حديث قدسي: «مَنْ أَحَبَّ لِقاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقاءهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقاءهُ كَرِهَ اللهُ لِقاءهُ»[3]، ومن اختار لنفسه هذا الرجوع كان من الخواص والسعداء والمقربين في مقعد صدق عند مليك مقتدر!!

وهذا لا يكون إلا بالمحبة والعشق لله تبارك وتعالى، ومع صدق المحبة وخلوص العشق يكون التوجه التام إلى حضرة الإله والاتصال بجناب الحق المتعال، وبالمحبة والعشق تقوى جهة حقِّيَّة العبد وتضعف جهة خلقيَّته إلى أن تفنى خَلقيَّته في حَقِّيَّته ويكون وجوده وجودا حقانيا ويدور مع الحق أينما دار، فلا يرى إلا الحق ولا يفكر إلا في الحق ولا يشغله شيء عن الحق، كقطعة فحم مجاورة لنار مشتعلة التي بسبب مجاورتها للنار واستعدادها لقبول الاشتعال من الجهة النارية الكامنة فيها تشتد فيها الحرارة شيئا فشيئا إلى أن تصير نارا فيحصل منها ما يحصل من النار من خاصية الإحراق والإنارة والحمرة والحرارة وغيرها.

والفناء الاختياري منهج الأنبياء والمرسلين والأئمة الطاهرين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين الذين اختاروا لأنفسهم أعلى درجات الحب لله تبارك وتعالى وأحسن الطرق وأفضل السبل للوصول إلى الحق والتقرب إليه، وهم أعلم الناس وأدراهم بذلك، فكانوا القدوة الحسنة للتابعين لهم ومن اهتدى بهديهم وورث علمهم من أولياء الله الأكابر وعباده المقربين.

يقول الله تبارك وتعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿.... أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٤]!! فلو تردَّد الأمر بين الحق وبين سائر الأرباب لاختار العبد السالك العاقل لنفسه ربا واحدا وهو الحق تبارك وتعالى دون سائر الأرباب ليكون وليًّا وحاكما على قلبه، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمْ....﴾[٥]، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو الذي يبدأ منه كل شيء وينتهي إليه كل شيء ويستحق العبادة لأنه سبب كل خير وسعادة.

ولهذا قال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «موتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا»[٦]، فالموت الإرادي والفناء الاختياري يحصل للعارفين بالله والمتوجهين إلى الحق قبل وقوع الموت الطبيعي بسبب الإعراض عن ملذات الدنيا وطيباتها والامتناع عن هوى النفس وحظوظها ومقتضياتها ورفع كل حجاب بين العبد السالك إلى الله وربه، فيكون موجبا لمشاهدة الحق في جميع مجالي الوجود ولقاء الحق قبل فنائه الطبيعي حسب التجليات الأسمائية أو الصفاتية أو الذاتية وعلى قدر السعة الوجودية وقوة الاستعداد والقابلية والتوجه إلى الله تبارك وتعالى.

وفي الحب المجازي الدنيوي نرى كل محب في بادئ الأمر يتوجه إلى من يحب بظاهر حواسه كالنظر والسمع وغيرهما ومن ثم ينشئه في خاطره ويصوره في خياله، ومع مرور الزمان يقوى هذا الحب الظاهري ويتضاعف، فيسري في نفسه وقلبه وباطنه وروحه، ويكون حاكما عليها ومسخِّرها جميعا في سبيل المحبوب، وينحصر حبه فيه دون سواه، فلا يرى غيره إلا به ولا يسمع من غيره إلا به، ويكون على استعداد للتضحية والفداء بكل ما كان متعلقا به من قبل من مال وثروة وكل ما يملك من أجله.

كذلك السالك إلى الله الذي إذا سرى في قلبه وروحه حب الله تبارك وتعالى يصل إلى مرحلة فداء كل شيء في سبيل الله ابتداء من المال حتى ينتهي في الفناء الاختياري إلى أعلى مراتب الفداء وهو فداء النفس الذي يعتبره العارف بالله أقل ما يجب عليه من التضحية في سبيل المحبوب، وكما يقول العرفاء أن أعظم قربان يقدِّمه العبد لله عزَّ وجلَّ هو النفس وأعظم التضحيات التضحية بها في سبيل الله.

مَا لِي سِوَى رُوحِي وبَاذِلُ نَفْسِهِ
فِي حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ[٧]

وحَيــاتِكُـمْ وحَيــاتِكُـمْ قَسَــماً وفــي
عُمْـرِي بغيْــرِ حَيــاتِكُـمْ لَـمْ أحْلِــفِ
لَــوْ أنَّ رُوحِــي فـي يَــدَيَّ ووَهَــبْـتُــهــا
لِـمُبَشِّـري بقُـدومِـكُـمْ لَـمْ أُنْـصِــفِ

وقد تسأل: هل هناك دليل على سير السالك في طريق الفناء الاختياري أم لا؟!

نعـم، هنـاك أدلة عـلى ذلك، فالسـالك - وهـو في بدايات طريقـه إلى الله عزَّ وجـلَّ - يحرص على الاجتنـاب عـن الذنوب والمعاصي والآثـام اختيارا، ويعلم أن الله تعالى وضـع ميزانا يفصل به بين من يدَّعي محبته صادقا ومن يدَّعيها كاذبا وهو تحريم الفواحش، فمن ادَّعى محبته وقف عند حدوده ليتبين الصـادق مـن الكاذب، والمحـب لا يكون محبا صادقا وفي الوقت نفسـه يعمل عمـلا بخلاف ما يحب محبوبـه ويرضـاه، والمحبة الكامنـة في العبد وظهورها لا يكون إلا بالـورع والتقوى والعمل بطاعة الله والوقوف عند أوامره ونواهيه.

وفي أبيات منسوبة إلى مولانا الإمام الصادقعليه السلام[٨]:

تَــعْـصِـي الإلـهَ وأنــتَ تُـظْـهِـرُ حُـبَّـهُ
هــذا لَـعَـمْـري فـي الـفِـعــالِ بَـديـــعُ
لَــوْ كـانَ حُـبُّــكَ صـادِقـاً لأطَـعْـتَــهُ
إنَّ الـمُـحِــبَّ لِـمَــنْ يُــحِــبُّ مُـطـيـــعُ

بل يصل السـالك في سـيره في طريق الفناء الاختياري إلى مرحلة - كما قال العارف الكامل السـيد علي القاضيرضي الله عنه أستاذ العلامة الطباطبائيرضي الله عنه - إذا اضطر إلى الذنب وآل به الحال إلى المعصية لا يذنب ولا يعصي، فالسـالك إلى الله محال أن يذنب في أي حال من الأحوال سـواء كان اختيارا أو اضطرارا، ويجتنـب كل عَثْرة لسـانٍ أو زلَّةِ قَدَمٍ يحتاج بسـببها إلى الاعتذار، أو يسـتحي منهـا حين يقف بين يدي الله تعالى يوم يرجع إليه، ثم أن محبـة الله الصادقـة إذا سـيطـرت على القلب تحرق كل شيء وما تبقـي في القلـب شـيئا ولا تذر إلا حب الله سـبحانه وتعـالى، وهذا لا يكون إلا بتوفيـق مـن الله عـزَّ وجـلَّ وألطافـه وعناياتـه، لـذا يقـول قطب العـارفين أميـر المؤمنيـن علي بن أبي طالـبعليه السلام في مناجـاتــه: «إلهـي لَمْ يَكُنْ لي حَـوْلٌ فأنـتَـقِـلَ به عَنْ مَعْصِـيَـتِـكَ إلا في وَقتٍ أيْقَـظْـتَـني لَمَحَبَّـتِـكَ»[٩]، فمحبة الله تبارك وتعالى رادعة للذنب ومانعة للمعصية وصارفة للآفات وصائنة من الفواحش.

يقـول العـارف الكبـير بـابـا طاهـررضي الله عنه: «كُـلُّ ما دَنـا مِنـكَ فأشـغَـلَكَ عَـنِ الـحَـقِّ فـهـو دُنْـيـاكَ»[١٠]، وكذلـك قيـل: «كُلُّ مـا شَـغَـلَكَ عَنْ رَبِّـكَ فَهُـوَ صَنَـمُـكَ»، وعلى هذا فالسـالك

إلى الله يعلـم أن الاشـتغال بشـهوات الدنيـا والانهماك في ملذاتهـا ذنب وصنم يُعبد مـن دون الله، لأنه يشـغله عن الحق ويعمي قلبه عن رؤيته ويجعل بينه وبين محبوبه حجابا ظلمانيا، وأن كل محجوب شقي لا محالـة، محرَّم عليه سـعادة الأبد، محترق بنار الفراق وجحيم الشـقاء، ولهذا يقـول إمام العارفين أمير المؤمنـين عليه السلام في دعائه: «فَهَـبْني يا إلهي وسَـيِّدي ومَـوْلايَ صَـبَـرْتُ عَلَى عَذابِـــكَ فكَـيْـفَ أصْـبِـرُ عَلَى فِـراقِـكَ»[١١]!! فعذاب البعد والحرمان أشد على العارف من عذاب النار، ومن ذاق طعم شراب المحبة وأحس بعذب زلال الوصال يصعب عليه تجرع غصص آلام الفراق ومرارة البعاد.

وهَـجْـرُهُ أعْـظَـمُ مِـنْ نـارِهِ
ووَصْـلُـهُ أطْـيَـبُ مِـنْ جَـنَّـتِـه

ولهـذا يقطـع السـالك إلى الله عن قلبه كل عِرْق يجـري فيه حب الدنيا الفانيـة ويرغب عنها ويهجر زخرفهـا وشـهوتها وملاذهـا، ويحكم عقد قلبـه بحب الله تبارك وتعـالى ويقبل عليه بكلِّـه، ولا يـرى سـعادة في دار البقـاء إلا بلقـاء الله تبارك وتعالى، مـن هنـا كان دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿.... واجْـنـبْـنِـي وبَنِيَّ أن نـعْـبُـدَ الأصْـنَـامَ﴾[١٢] وهي الأصنام الباطنة إلى جانب الأصنام الظاهرة المصنوعة وأكبرها صنم النفس الأمارة بالسـوء والهوى الذي كان رسـول الله صلى الله عليه وآله حينما خوطب في الآية المباركة: ﴿وَلَقَدْ أوحِـيَ إلَيْكَ وإلَى الَّذِينَ مِـن قَبْلِكَ لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلتَكُونَـنَّ منَ الْخَاسِرِينَ﴾[١٣] يتعوَّذ منه ويقول: «أعوذُ باللهِ مِنَ الشِّـرْكِ الخَـفِـيِّ»!!

جاء في بعض رسائل صدر المتألهين الشيرازي رضي الله عنه هذه الكلمة:

مَـنْ لَـمْ يَـكُـنْ لِـلْـوِصـالِ أهْـلاً
فَـكُـلُّ إحْـسـانِـهِ ذنـوبُ

ويجـدر بالذكـر هنا أن نقـول أن كل شيء ما لم يكن في حقيقته شـاغلا العبد عـن ربه فليس محكوم عليـه بالدنيـا الدنيَّة ولا يُشـمَل في متاعها، فمثـل الدنيا كالأرض إما أن تكون طيبـة تنبت نباتا طيبا أو أن تكـون سـبخة لا ينمو فيها بذر ولا يُحصَد منهـا حصاد كما ورد في الحديـث: «الدنـيـا مَـزْرَعَـةُ الآخِــرَةِ»[١٤]، فـلا يقــدح حبه للمال والأهـل والأولاد في حبه لله، بل يمكن للإنسـان أن يتزوَّد من الدنيـا لـضرورة المشرب والمطعم والملبس والمعيشـة الكريمـة ويملك من المال ما يصرفه في سـبيل الله والإنفاق على نفسه وعياله لا أن يُفتن بها ويعيش فيها عيش المترَفين المسرِفين.

ونعم ما قيل: «ليسَ الزاهِدُ مَنْ لا يَمْلِكُ شيئاً ولكِنَّ الزاهِدُ مَنْ لا يَمْلِكُهُ شيءٌ»!!

وفي بيان حقيقة الزهد عند العارفين يقول إمام الزاهدين أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلين: «الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ، قالَ اللهُ سُـبْحانهُ ﴿لِكَيْلاَ تَـأْسَـوْا عَلَى مَا فَاتـكُمْ وَلاَ تَـفْرَحُوا بِـمَا

آتَاكُمْ﴾ وَمَنْ لَمْ يَأسَ عَلَى المَاضِي ولَمْ يَفْرَحْ بالآتِي فَقَدْ أخَذَ الزُّهْدَ بطَرَفَيْهِ»[١٥]!!

وعلى هذا فالدنيا دنياوان:

دنيا تُبْعِد العبد عن الله تعالى كما جاء في حديث رسول الله ﷺ: «حُبُّ الدنْيا رَأسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[١٦]، فالحب الذي يقيِّد العبد بالاشتغال بالدنيا ويبعده عن جناب المولى وإن كان في صلاة أو صوم أو أي طاعة من الطاعات وأي عبادة من العبادات إذا كانت بقصد الرياء لا بقصد الإخلاص والقربة المطلقة إلى الله تعالى فهي في حقيقتها صورة من صور حب الدنيا.

ودنيا تقرِّب العبد إلى الله تعالى كما قال في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «الدُّنْيا مَنْزِلُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَها ودارُ عافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنها ودارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّدَ منها ودارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بها، بها مَسْجِدُ أحِبَّاءِ الله ومُصَلَّى مَلائِكَةِ الله ومَهْبَطُ وَحْيِ الله ومَتْجَرُ أوْلياءِ الله اكْتَسَبوا فيها الرَّحْمَةَ ورَبحوا فيها الجَنَّةَ»[١٧]، وقال رجل لأبي عبدالله عليه السلام: والله إنَّا لنطلُبُ الدنيا ونُحِبُّ أن نُؤتاها، فقال عليه السلام: تُحِبُّ أنْ تَصْنَعَ بها ماذا؟! قال: أعودُ بها على نفْسي وعيالي وأصِلُ بها وأتصدَّقُ بها وأحِجُّ بها وأعتمر، فقال عليه السلام: لَيْسَ هذا طَلَبُ الدُّنْيا هذا طَلَبُ الآخِرَةِ»[١٨]!!

أيها المحب لله!! إذا نويت القربة إلى الله تعالى بكل كيانك وبجميع أبعاد وجودك فاعلم أنك تتقرب إلى رب رحيم بخلقه رؤوف بعباده ويشتاق إليهم أكثر مما يشتاقون إليه ويعشقهم أكثر مما يعشقونه!!

قال تعالى في حديث قدسي: «إذا عَلِمْتُ أنَّ الغالِبَ عَلَى قَلْبِ عَبْدِي الاشْتِغالُ بي نَقَلْتُ شَهْوَتَهُ في مَسْأَلَتي ومُناجاتي، فإذا كانَ عَبْدي كَذلِكَ فَأراد أنْ يَسْهو حُلْتُ بَيْنه وبَيْنَ أنْ يَسْهو، أولئِكَ أوْلِيائي حَقًّا، أولئِكَ الأبْطالُ حَقًّا، أولئِكَ الَّذينَ إذا أرَدْتُ أنْ أهْلِكَ أهْلَ الأرْضِ بعُقوبَةٍ زَوَيْتُها عَنْهم مِنْ أجْلِ أولئِكَ الأبْطالِ»[١٩]!!

«إلهي أقِمْني في أهْلِ ولايتِك مَقامَ مَنْ رَجا الزيادةَ مِنْ مَحَبَّتِك، إلهي وألْهِمْني ولَهاً بِذِكْرِك إلَى ذِكْرِك وهِمَّتي في رَوْحِ نَجاحِ أسْمائِك ومَحَلِّ قُدْسِك، إلهي بكَ عَلَيْكَ إلاَّ ألْحَقْتَني بمَحَلِّ أهْلِ طاعَتِكَ والمَثْوَى الصالِحِ مِنْ مَرْضاتِكَ، فَإنِّي لا أقْدِرُ لِنَفْسي دَفْعاً ولا أمْلِكُ لَها نَفْعاً، إلهي أنا عَبْدُكَ الضعيفُ المُذْنِبُ ومَمْلوكُك المُنيبُ فَلا تَجْعَلْني مِمَّنْ صَرَفْتَ عَنْهُ وَجْهَك وحَجَبَهُ سَهْوُهُ عَنْ عَفْوِكَ آمينَ رَبَّ العالَمينَ».

الهوامش

(١) سورة هود: آية ١٢٣

(٢) سورة النجم: آية ٤٢

(٣) بحار الأنوار: ج ٨١ ص ٢٦٧، نهاية ابن الأثير: ج ٤ ص ٢٦٦

(٤) سورة يوسف: آية ٣٩

(٥) سورة الأنعام: آية ١٤

(٦) مرصاد العباد باب ٤ فصل ٢ ص ١٧٩، ص ١٨٢

(٧) ليس لي أن أقدم شيئا سوى روحي، ومن يبذل روحه في عشق محبوبه وهواه فليس بمسرف.

(٨) وقيل أنها لابن المبارك وقد تمثل بها الإمام الصادقعليه السلام – الأنوار النعمانية ج ٣ ص ١٩٣

(٩) فقرة من مناجاة أمير المؤمنينعليه السلام في شهر شعبان المعروفة بالمناجاة الشعبانية.

(١٠) شرح كلمات بابا طاهر: ص ٨٢

(١١) فقرة من دعاء أمير المؤمنينعليه السلام الذي علَّمه كميل بن زياد النخعي واشتهر بدعاء كميل

(١٢) سورة إبراهيم: آية ٣٥

(١٣) سورة الزمر: آية ٦٥

(١٤) علم اليقين: ج ١ ص ٣٤٧

(١٥) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٨٧، والآية ٢٣ من سورة الحديد

(١٦) بحار الأنوار: ج ٥١ ص ٢٥٨، وجاء عن الإمام الصادقعليه السلام في روضة الواعظين: ص٤٨٣ ط ١٩٨٦

(١٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٣٢٥

(١٨) أصول الكافي: ج ٥ ص ٧٢ رواية ١٠

(١٩) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ١٦٢، وجاء في بعض الكتب: «إذا عَلِمْتُ أنَّ الغالِبَ عَلَى قَلْبِ عَبْدي الاشْتِغالُ بي يَقْلِبُ شَهْوَتَهُ في مَسْأَلَتي ومُناجاتي، فإذا كانَ عَبْدي كَذلِكَ عَشِقَني عَبْدِي وعَشِقْتُهُ، أولئِكَ أولِيائي حَقًّا، أولئِكَ الأبْطالُ حَقًّا، أولئِكَ الَّذينَ إذا أَرَدْتُ أنْ أهْلِكَ أهْلَ الأرْضِ بعُقوبَةٍ زَوَيْتُها عَنْهم مِنْ أجْلِ أولئِكَ الأبْطالِ»

المنزل (٣٧)

مَبادئ الحُبِّ عِنْدَ المُحِب

لما رأت جميع الأشياء في عالم الوجود في نفسها من النقص والضعف والعجز والفناء كان لها - بجِبِلَّتها وفطرتها الأولى - تَشَبُّهٌ بالمحبوب الأزلي والباري الباقي عزَّ وجلَّ وميل طبيعي وعشق غريزي لطاعته سبحانه والتقرب إليه.

لهذا يقول الحكماء والفلاسفة أن الغاية المطلوبة من العبد هي التشبُّه بالإله جهد الطاقة البشرية والوسع الإنساني، ويقول العرفاء أنها التخلُّق [1] بأخلاق الله وبأسمائه تعالى مستندين في ذلك على ما جاء في الحديث النبوي الشريف: «تخَلَّقوا بأخْلاقِ الله»، فالعبارات مختلفة والمعنى واحد.

ومن جملة الصفات الإلهية صفة «الدائمية»، فالله سبحانه وتعالى رب دائم ديموم وافر الجود وواسع الرحمة وتجلياته دائمة وشئوناته متعاقبة وظهوراته مستمرة وكل يوم هو في شأن، وفي المقابل لابد أن يكون العبد السالك إلى الله تعالى في عبودية دائمة لله رب العالمين وحضور دائم معه حتى يكون متشبِّها بربه في صفة الدائمية.

وقد خُلِق الإنسان في موضع الحاجة والعجز والذلة والافتقار، ولهذا يطلب رفيقا على الدوام ليستعين به على أمره ويصحبه في سيره، فيقول له رب العزة والجلالة في كتابه: ﴿.... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ....﴾[2] فخير مستعان للأمور كلها وخير رفيق في أي وجهة يكون فيها هو الرب الودود ذو الجمال والبهاء الذي لا يبعد عن خلقه وهو أقرب إليه من حبل الوريد وفي المقابل يكون هذا الإنسان في معرض هجوم الشيطان وجنوده وما يحيكه من الوساوس والنفثات والنزغات الدائمة وما ينصب له من الحبائل والحِيَل المستمرة ولذا عليه أن يكون على حذر منه في كل آن متوجها إلى الله تعالى على الدوام.

والمعيَّة الدائمة والصحبة غير المنقطعة مع الرب المتعال الدائم الفيض والتجلي على عباده تستلزم العبودية الدائمة له، ومع معرفة حقيقة المعيَّة والصحبة الإلهية يدعو السالك في سفره إلى الله تعالى بهذا الدعاء الذي كان يدعو به رسول الله ﷺ: «اللهُمَّ أنتَ الصاحِبُ في السَّفَرِ»، أي يتخذه صاحبا له في سفره إليه!!

حكى أبو حمزة الخراساني عن نفسه وقال: بينا أنا أمشي في طريق الحج إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث، فقلت: لا والله، فما استتمَمْتُ هذا الخاطر حتى مرَّ برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نطمَّ هذا البئر لئلا يقع فيها أحد، فطمَّا رأس البئر، فهممت أن أصيح، فقلت: إلى من هو أقرب منهما، فما مضت إلا ساعة حتى رأيت شيئا كشف عن رأس البئر وأدلى رجله وجعل يهَمْهِم فتعلقت به فأخرجني، فإذا سبْعٌ وهاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن؟! نجيناك من التلف بالتلف [٣].

وعلى هذا فمدار بحثنا في هذا المنزل هو «الدائمية»، ومنه يقسِّم العرفاء مبادئ الحب إلى ثلاثة مبادئ أساسية هي كالتالي:

- المبدأ الأول: الطاعة الدائمة
- المبدأ الثاني: الصمت الدائم
- المبدأ الثالث: التسليم الدائم

وأما بيان ذلك:

المبدأ الأول: الطاعة الدائمة

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿.... وَلَهُ الدِّينُ واصِباً....﴾[٤]، والدين ههنا بمعنى الطاعة، أي لله تعالى على خلقه حق الطاعة الواجبة واللازمة على الدوام في جميع الأحوال والأزمان.

كيف لا وقد امتثلت لطاعته السماوات والأرض ومن فيهما، فقد قال المولى جلَّ وعلا في كتابه: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[٥]!! والقنوت - على ما ذكره الراغب في مفرداته- لزوم الطاعة مع الخضوع، والقانتون أي الطائعون لله طاعة تكوينية في كل ما أمرهم به ونهى عنه لما وجدوا الله تعالى أهلا للسمع والطاعة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٦]، أي أنهما تحركتا طاعةً لأمر الله حين دعاهما وطلباً للكمال في عبوديتهما حسب ما يليق بهما، ولما كانت السماوات والأرضون في حركة دائمة مستمرة إلى يوم القيامة عالمتين بما إليه يتحركان فطاعتهما لله تعالى دائمة مستمرة إلى يوم

القيامة: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾[٧]!!
وكذلك طوائف الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بمحض الطاعة له بقوله: ﴿.... لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٨]، وقوله تعالى في دوام طاعتهم له دون انقطاع واستغراقهم في عبادته دون كَلَل ولا مَلَل: ﴿.... وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ *﴾[٩]، وقوله تعالى في ذلك أيضا: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْئَمُونَ﴾[١٠] أي لا يملُّون التسبيح أبدا!!

وعلى هذا فكل المخلوقات التي خلقها الله مفطورة على معرفة الله وفي مقام الذلة والعبودية والطاعة الذاتية له إلا الثقلين، ولذا نرى أن الحق تبارك وتعالى خص الثقلين من دون خلقه في الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[١١] بتعريفهم غاية خلقهم وهي العبادة والمعرفة بذُلِّهم وعجزهم وجهلهم وفقرهم أمام عزة الله وقدرته وعلمه وغناه ومن ثَمَّ خصَّهما بالتهديد والوعيد حيث قال ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ﴾[١٢] فما تكبَّر أحد من خلق الله على أمر الله وما عصاه إلا الثقلان، فكان من الناس الجاحدون لأنعم الله والجانون على أنفسهم الذين حينما أشهدهم الله تعالى في عالم الذر وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا ﴿بَلَى﴾[١٣] وأقروا له بالربوبية ثم مالوا عن الصراط المستقيم وأجابوا دعوة الشيطان واتبعوا الهوى وتكبروا وطغوا وعصوا أمر ربهم وخالفوه ومنهم من عصى ربه مرة وأطاعه أخرى ومنهم من لم يحِدْ عن طاعة ربه وصراطه المستقيم ولم يقْدِم على معصيته ولو بقلبه ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ فكانوا مع الحق وذواتهم مستغرقة في شهود الجلال والجمال وإن كانوا في الخلق وكانوا يرون المنَّة لله تعالى في طاعتهم إياه، فطوبى لمن رُزِق طاعة الله الدائمة فهي الغاية التي من أجلها خُلِق الإنسان وهي أعظم النعم وأتم الآلاء كما قال تعالى: ﴿.... قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ....﴾[١٤].

فَأْتِ أيها السالك كل ما يرضي الله واجتنب كل ما لا يرضيه، وكن كما أوصى به مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «احْذَرْ أن يَراكَ اللهُ عِندَ مَعْصِيَتِهِ ويَفْقِدُكَ عِندَ طاعَتِهِ فَتكونَ مِنَ الخاسِرين وإذا قَوِيتَ فَاقْوَ عَلَى طاعَةِ الله وإذا ضَعُفْتَ فَاضْعَفْ عَنْ مَعْصِيَةِ الله»[١٥]!! والزم أمر الله تعالى حيث أمر عباده وقال: ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾[١٦] أي اخضعوا لله تعالى وأديموا له الطاعة لا لأجل مثوبة ولا لدفع نقمة بل مخلصين له ولأجله، ولما كان الأمر الإلهي أبديا دائما كانت الطاعة له أبدية دائمة.

يقول الحق تبارك وتعالى في حديث قدسي: «يا بَني آدَمَ أطيعوني بقَدْرِ حاجَتِكُمْ إلَيَّ واعْصُوني بقَدْرِ صَبْرِكُمْ عَلَى النارِ واعْمَلوا الدُنياكُمْ بقَدْرِ لَبْثِكُمْ فيها وتَزَوَّدُوا للآخِرَةِ بقَدْرِ

مَكْـثِكُمْ فيـها»[١٧]!! ومن علم حقيقة الدنيا والآخرة علم أن لا غنى له عن الله سبحانه وتعالى طرفة عين أبدا بل لا يزال بأمَسِّ الحاجة إلى عطفه ورحمته ولطفه وعنايته ولا صبر له على نار غضبه وسخطه، وبالنسبة للعارف فلا صبر له على نار بُعده وفراقه بعدما تذوَّق لذة قربه ووصاله!!

فاعمل أيها السالك إلى الله على الإقامة على طاعة الله تعالى وطاعة رسولهﷺ، وانوِ إدامتها والمثابرة عليهـا، واستعِنْ بـالله، وسَـلْه أن لا يُخْليك من حسـن نظـره إليـك، ويثبِّتك على دينـه ويحفظك عن معصيته، فلا تكن من المقصِّرين المتوانين إنه خير سند ومعين.

عن أبي جعفرعليه السلام أنه قال: إن الله تعالى أوحى إلى داودعليه السلام أنْ: «أبـلِـغْ قـومَـك أنَّـه ليس مِـنْ عبـدٍ منهـم آمُـرُه بطـاعَـتـي فيُـطـيـعُـني إلا كانَ حـقًّـا علَـيَّ أنْ أطـيـعَـه وأعـيـنــَـه على طاعَـتي وإنْ سألَني أعْـطَـيْـتُه وإنْ دَعـاني أجَـبْـتـهُ وإنْ اعْـتَـصَـمَ بي عَـصَمْـتـهُ وإنْ اسْـتَـكْفاني كَـفَـيْـتُـهُ»[١٨]!!

وعنهعليه السلام أنه قال قال رسـول اللهﷺ قال الله عزَّ وجلَّ: «.... لا يتَّـكِـلِ العـامِـلـونَ عَلَى أعْمالِـهِـمُ الَّتـي يَعْمَـلُـونـها لـثَـوابي فإنـَّهم لو اجْـتـَهَـدوا وأتـعَـبوا أنـفسَــهـم وأفْـنـَوْا أعْمارَهُمْ في عبـادَتي كانـوا مُـقَـصِّـريـنَ غيـرَ بـالِـغـينَ في عبـادتِـهِم كُـنْـهَ عِـبــادَتي فيما يطْـلُـبـونَ عِنــدي مِـنْ كَـرامَـتي والنعيـمِ في جَـنــَّاتي ورَفـيـعِ دَرَجـاتي الـعُـلَى في جِــواري»[١٩]!!

وعـن أبي الحسـن موسى بن جعفرعليه السلام أنـه قال لبعـض ولده: «يـا بُـنـَـيَّ، عَلَـيْـكَ بالـجـدِّ، لا تــُخْـرِجَنَّ نفْـسَــكَ مِـنْ حَـدِّ التـقْـصيـرِ في عِـبـادَةِ الله عَزَّ وجَلَّ وطاعَـتِـهِ فإنَّ اللهَ لا يُـعْـبَـدُ حَـقَّ عِـبـادتِـهِ»[٢٠]!!

ثـم اعلـم أيها السـالك – وهذا ما يعنينـا في هذا البحـث – أن لكل عمل من الأعـمال البدنية تأثير في النفـس، فالطاعـات الإلهيـة لهـا تأثـير في تهذيبهـا وتصفيتها وجلائهـا واقتنائهـا الفضائـل، وكلها أبـواب لتنويـر النفس بنور الإيـمان ومعرفة الله تبارك وتعـالى، ولما كانت الطاعة تجرُّ الطاعة فإن دوام الطاعة سبيل إلى اشتداد نور ملكات النفس الحسنة فتكون نور ا على نور، وأما المخالفات فلها تأثير في إظلامها وتكديرها وتضررها وتلوثها بالرذائل.

تـا دل صــدف درِّ شــريعـت نـشـود
جـان مَـحْـرَم اســرار طـريـقـت نـشـود[٢١]

فمـن أحـب الله محبة خالصة صادقـة أطاعه، وطاعة الله تعـالى بطاعة النبي الخاتـمﷺ واقتفاء أثره واتباع شريعته الغرّاء، ومن اقتفى أثر النبيﷺ واتبع شريعته فقد نال محبة الله تعالى: ﴿قُـلْ إن كُـنـتُـمْ تُحِـبُّـونَ اللهَ فَـاتـَّبِـعُـونِي يُحْبِـبْـكُـمُ اللهُ....﴾[٢٢]!! وإذا أحـب الله عبـده جعلـه محْرَمـاً لأسراره ومجلىً لتجلياته.

وعلى أثر مراتب الطاعات كانت للتوبة مراتب هي كالتالي:

التوبة العامة: وهي التوبة والإنابة من اقتراف الذنب وارتكاب الحرام، وهذه للعامة من الناس.

التوبة الخاصة: لمن لم يقترف ذنبا ولم يرتكب حراما بل يستغفر من إقدامه على مكروه فيسارع بالتوبة إلى الله حياءً منه.

التوبة الأخص: وهي لأولياء الله والصالحين والعارفين الواصلين الذين يتوبون إلى الله لا عن اقتراف ذنب أو إقدام على مكروه بل لغفلة عن الحق أو اشتغال بغير الحق ساعة يخافون أن يكون الحق تعالى ناظرا إليهم فيها فيلومون أنفسهم عليها وهم في أشد الحياء والانكسار كما أشار إلى ذلك مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في بعض أدعيته: «لَيْتَ شِعْري في غَفَلاتي أمُعْرِضٌ أنتَ عَنّي أمْ ناظِرٌ إليَّ»[٢٣]!! وهي – أي الغفلة – في نظرهم دَرَن ووسخ يعْلَق بالقلب فيطفيء ضوء شعاع من نور الله فيه، كما قال قطب العارفين أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاته: «إلهي لَمْ يَكُن لي حَوْلٌ فأنتَقِلَ به عَنْ مَعْصِيَتِكَ إلا في وَقتٍ أيْقَظْتَني لَمَحَبَّتِكَ فكَما أرَدْتَ أنْ أكونَ كُنتُ فشَكَرْتُكَ بإدْخالي في كَرَمِكَ وَلتَطْهيرِ قَلْبي مِنْ أوساخِ الغَفْلَةِ عَنكَ»[٢٤]!!

وقد ورد في «لباب الألباب»: «أنَّ أهْلَ الجَنَّةِ لا يتَحَسَّرونَ عَلَى شيءٍ فاتَهُمْ من الدُّنيا كتَحَسُّرِهم عَلَى ساعَةٍ مَرَّت مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الله»[٢٥]!!

وبلا شك وترديد أن العارف الواصل لا يصل إلى ديمومية الطاعة والجذبة إلى الله والاستغفار عن ساعة غفلة عن الله سبحانه وتعالى ما لم يكن قد وصل إلى مقام الشهود وذاق طعم محبة الله والقرب منه والزلفى لديه ورأى هيبة الملك المنان بعين القلب، رزقنا الله وإياكم هذه النعمة بمنِّه وكرمه!!

المبدأ الثاني: الصمت الدائم

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «عَلَيْكَ بطولِ الصَّمْتِ فإنَّه مَطْرَدَةُ الشيطانِ وعَونٌ لَكَ عَلَى أمْرِ دينِك»[٢٦]!!

وقال صلى الله عليه وآله أيضا: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»[٢٧]!!

فعلى الإنسان أن يلزم الصمت في موطنٍ مادام الكلام فيه معصية وخلافا للشرع وخوضا في الباطل وتعدِّيا لحق الأدب مع الحق عزَّ وجلَّ، وأن يكون كمن وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿والَّذينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٢٨]، أما إذا كان التكلم في ذكر الله ولله وفي مرضاة الله وبميزان ما شرع الله فلا بأس به وعلى الخصوص إذا كان مؤداه إحقاق حق ونشر فضيلة أو إبطال باطل وقمع رذيلة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رَحِمَ اللهُ عَبْداً تكَلَّمَ خَيْراً فغَنِمَ أو سَكَتَ عَنْ سوءٍ

فَسَـلِـمَ»[٢٩]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنــه محمـد بـن الحنفية رضي الله عنه: «يا بُـنيَّ، لا تـقُـلْ مـا لا تـعْـلَـمُ بَـلْ لا تـقُـلْ كُـلَّ مـا تعْـلَـمُ فـإنَّ اللهَ تـبارك وتعـالى قَـدْ فَـرَضَ عَلَى جَـوارِحِـك كلِّهـا فَـرائِـضَ يحْـتَـجُّ بها عليـكَ يـومَ الـقـيـامَـةِ»[٣٠]، ومن أمسـك لسانه فقد تصدَّق على نفسه وأنجاها من العذاب والتهلكة.

وفضـلا على الأمـر باجتناب الـكلام في المعصية والحرام فقـد وردت أحاديـث في اجتناب فضول الـكلام ومـدح الصمت عنـه، منها قول مولانـا أمير المؤمنـين عليه السلام: «طوبَى لِـمَـنْ أنفقَ الفَضْلَ مِـنْ مالِهِ وأمْسَـكَ الفَضْـلَ مِـنْ قَوْلِـهِ»[٣١]، وفي هذا الحديث حثٌّ عـلى اجتناب فضول الكلام وهـو التكلم بما لا فائـدة فيـه أو ما كان زيادة على قدر الحاجة فهو مذمـوم وإن كان مباحا ولم يكن فيه إثم لأنه موجب لتضييع الوقت والابتعاد عن ذكر الله والفكر في آلاء الله وآياته وأنعمه، وبالتالي فهو موجب للخسران المبين.

وقـال أمير المؤمنين عليه السلام: «جُـمِـعَ الخـيـرُ كلُّه في ثـلاثِ خـصـالٍ النـظـرُ والسـكـوتُ والكـلامُ فكـلُّ نـظَـرٍ ليس فيـه اعـتـبـارٌ فـهـو سَـهْـوٌ وكـلُّ سُـكـوتٍ ليس فيـه فِـكْـرٌ فهـو غَـفْـلَـةٌ وكلُّ كَـلامٍ ليـس فيه ذِكْـرٌ فهـو لَـغْـوٌ»[٣٢]، فالسكوت الدائم محمود ما لم يكن عن غفلة أو اشتغال الفكر بغـير الله سبحانه، وإذا وجـب الكلام في أمر ما فلابد أن لا يخلو عن ذكـر الله تعالى وإلا اعتبر لغوا كما أشار إلى ذلك الإمام الصادق عليه السلام نقلا عن آبائه عليهم السلام وقال: «الـصـمْـتُ عِـبـادةٌ لِـمَـنْ ذكَـرَ اللهُ»[٣٣].

وطول الصمت ينشـأ عن شـدة مراعاة الإنسـان حين التلفـظ أو التكلم ودوام المراقبة والمحاسـبة وتـرك ما لا يعنيـه ولهذا قيل: «الصَّمْتُ حُكْـمٌ وقَليلٌ فاعِلُهُ» ولا يتمكن من ذلـك إلا بمعرفته حدود الله تعالى في ذلك ومعرفة المواطن التي ينبغي له أن يصرف كلامه فيها وقد قال سـيد البشر صلى الله عليه وآله: «وهَلْ يَكُبُّ الناسَ في النارِ عَلَى مَناخِرِهِمْ إلاَّ حَصائِدُ ألْسِنَتِهِمْ»[٣٤]!! وقد قيل: «لا شـيءَ أحَـقُّ بِسِـجْـنٍ مِنْ لِسـانٍ وقد جَعَلَهُ اللهُ خـلْـفَ بابَـيْـنِ الشَّـفَـتين والأسْـنـان»[٣٥]، ولما قيل أن ما كل حق يقال هو في رضا الله [٣٦] فكيف بالخوض في الباطل والذكر القبيح كالكذب والزور والشماتة والبهتان وغيرها من ذمائم اللسان وآفاته.

وقـد ضُيِّقـت دائرة التكلم حتى قيل: «لا تـتـكَلَّـمْ إلاَّ فـيـما إنْ سَـكَـتَّ عـنـهُ كُـنـتَ عـاصِـيـاً وإنْ لَـمْ فَـلا»، وقيـل لعيسـى بـن مريـم عليه السلام: دُلَّـنـا عـلى عمـل ندخـل به الجنـة، قـال عليه السلام: «لا تـنطِقـوا أبَـداً»، قالوا: لا نستطيع ذلك، قال عليه السلام: «فَـلا تـنـطِـقـوا إلاَّ بخَـيْـرٍ»!!

وهـذا صمـت العوام، وأما صمـت العارفين فهو – علاوة على ما مضى – ناشـئ عن هيبة وتعظيم وحضـور وحيـاء ومراقبة ومراعاة وسماع كلام الحق بأذُن القلب على الـدوام، لأن المعرفة بالله تعطي

ذلك كله، فمن عرفه شاهده ومن شاهده هابه وعظَّمه واتَّقاه، ومادام أن قلبه يصغي لكلام الحق ويستقبل تجلياته على الدوام فهو صامت على الدوام، وقد قيل: «كَمْ بَيْنَ عَبْدٍ سَكَتَ تَصَوُّناً عَنِ الكَذِبِ والغِيبَةِ وعَبْدٍ سَكَتَ لاستيلاءِ سُلْطانِ الهَيْبَة»!!

ومن صفات المؤمن المتقي التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام همَّام أنه «كثيرُ الصَّمْتِ»[٣٧]، وقال مولانا الإمام الصادق عليه السلام في صفات المؤمنين الكاملين: «ألسِنَتُهُمْ مَسْجونَةٌ وصُدورُهم وعاءٌ لسِرِّ الله إنْ وَجَدوا لهُ أهْلاً نَبَذوه إليه نَبْذاً وإنْ لَمْ يَجِدوا لَهُ أهْلاً ألْقَوْا عَلَى ألْسِنَتِهِمْ أقْفالاً غَيَّبوا مَفاتيحَها وجَعَلوا عَلَى أفْواهِهِمْ أَوْكِيَةً»[٣٨]، ثم قال عليه السلام فيهم أيضا: «حُلْيَتُهم طولُ السُّكوتِ وكِتْمانُ السرِّ»!!

وقد ورد أن ربيع بن خثيم - أحد الزهَّاد الثمانية - كان يضع قرطاسا بين يديه فيكتب كل ما يتكلم به ثم يحاسب نفسه عشية، ما له وما عليه، ويقول: آه آه!! نجا الصامتون وبقينا!!

وأما سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه فقد كان قليل الكلام طويل الصمت شديد الحضور كثير الاشتغال بذكر الله، وقد ذكر أحد تلامذته أنه كان على تلك الحالة على الدوام حتى أنه حينما كان يتوقف في الجلسات والدروس بين حين وآخر كان في حين سكوته يشتغل بذكر الله تعالى.

وكان رضي الله عنه لا يتكلم إلا إذا سئل وإذا أجاب اختصر وأفاد، وذات يوم سألناه عن سبب هذا السكوت الدائم فقال: أتفكَّر في ذنوبي وتقصيري وأتفكَّر في نفسي وأعدُّ لها جوابا عند الحضور يوم القيامة في محكمة رب العالمين!!

نعم، هذا هو العارف الواصل الذي باع نفسه لله تعالى واشتراها منه ربه فذاق طعم محبة الله وقربه، ورأى من ربه ما أعطاه الهيبة والإجلال والتعظيم وأدَّى به إلى السكوت الدائم والمناجاة الدائمة والخلوة مع ربه على الدوام، ومع ذلك لا يدَّعي لنفسه شيئا بل يرى نفسه أقلَّ الأقلِّين وأعظم المذنبين والمقصِّرين!!

المبدأ الثالث: التسليم الدائم

هَوايَ لَهُ فَرْضٌ تَعَطَّفَ أمْ جَفَا
ومَشْرَبُهُ عَذْبٌ تَكَدَّرَ أمْ صَفَا
وَكَلْتُ إلَى المَحْبوبِ أمْري كُلَّهُ
فَإنْ شاءَ أحْياني وإنْ شاءَ أتْلَفَا

اعلم أيها السالك إلى الله أن التسليم مقام عظيم ومنزلة رفيعة عند الله تبارك وتعالى، فقد قال

سبحانه في كتابه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ....﴾[٣٩] فإسلام الوجه إلى الله هو إقبال العبد بكليَّته على الله وإعراضه عمن سواه والخضوع لإرادته والتذلل لعظمته وكبريائه والإيمان بوحدانيته وشريعته، وبه يكون كمال الإيمان وتمامه.

ولا يقتصر التسليم على الإنسان فحسب بل هي في فطرة كل ما خلق الله تعالى، وقد عاتب الله سبحانه كل من يجحد دينه والتسليم له وقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وإلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٤٠]، ثم عرَّف الله دينه للناس وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإِسْلاَمُ....﴾[٤١]، فكل من في السماوات والأرض قد أسلم لله في مقام التكوين والخلقة والفطرة ويجب على الناس التسليم لله في مقام التشريع أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً....﴾[٤٢] أي التسليم لله تعالى ولرسوله ﷺ وأوصيائه عليهم السلام بعد الإيمان بهم وبذل الجهد في طاعتهم.

ومجرد علم العبد بأن الله هو الحق لا يكفي بل لابد من التسليم لأمره واتباع سنة نبيه ﷺ وأوصيائه عليهم السلام في الأولى حتى تكمل سعادته في الأخرى، فعليه أن يختار سبيل التسليم في الدنيا قبل أن يُكرَه على ذلك يوم القيامة كما هو حال الذين جحدوا الحق في حياتهم الدنيا مع علمهم بثبوته ﴿فَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا....﴾[٤٣] فاضطروا إلى التسليم له يوم الجزاء بعد كشف الغطاء وإحاطة العذاب ﴿.... فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤٤].

يقول العلامة الطباطبائي رضي الله عنه أن الإسلام والاستسلام والتسليم بمعنى واحد ومن مادة السَلَم، وهو يعني الانقياد والقبول من الإنسان لما يَرِد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني من قدر وقضاء أو حكم تشريعي من أمر أو نهي أو غير ذلك.

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «الإيمانُ لَهُ أَرْكانٌ أَرْبَعَةٌ التوكُّلُ عَلَى الله وتَفْويضُ الأَمْرِ إلى الله والرِّضا بِقَضاءِ الله والتَّسْليمُ لأمْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ»[٤٥]، وهذه المقامات الأربعة من مقامات العبودية وهي متقاربة المعاني ولكنها تختلف في الاعتبارات، وفيما ذكر في بعض التفاسير وأقوال بعض العرفاء أن التوكل هو جعْل العبد ربه وكيلا يقوم مقام نفسه في مصالحه ويتصرف فيما له من الأمر مع حفظ تعلقه بالأمر، والتفويض رد ما نسب إليه من الأمر إلى الله سبحانه والاعتراف بعدم الحول والقوة إلا بالله والفناء في قدرة الله وهو أوسع معنى من التوكل فإن التوكل بعد وقوع السبب والتفويض قبله وبعده[٤٦]، والرضا هو موافقة الطبع مع كل ما يفعله الله تعالى به واستهلاك إرادته في إرادة الله واختياره في اختيار الله والسكون تحت مجاري القدر والقضاء، وأما التسليم فهو مطاوعته المحضة ذاتا وفعلا لما يريده الله سبحانه فيه ومنه من غير نظر إلى انتساب أمر إليه أو تعلق به أو موافقة

لطبعه أو مخالفة له والاعتراف بالجهل واضمحلال علمه في علم الله.

قال العزيز سبحانه فيما أوحى إلى نبيه داود عليه السلام: «يا داود!! تُرِيدُ وأريدُ ولا يكونُ إلاَّ ما أريدُ فإن أسْلَمْتَ لِما أريدُ أعْطَيْتُكَ ما تُرِيدُ وإن لَمْ تُسْلِمْ لِما أريدُ أتْعَبْتُكَ فيما تُرِيدُ ثُمَّ لا يَكونُ إلاَّ ما أريدُ»[٤٧]!!

والتسليم ذو مراتب متفاوتة بدليل الآية المباركة: ﴿إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤٨] فما معنى الأمر بالإسلام وقد كان إبراهيم عليه السلام مسلما!!

فأولى مراتبه التسليم الاختياري ومقدماته شاقة وصعبة على النفس والطبع، وفي المراتب العالية يكون التسليم بمعنى تمام العبودية وكمالها بأن لا يرى العبد لنفسه أو صفاتها أو آثارها ولواحقها استقلالا لا يشغله عن ربه بل كلها ملكا خالصا له سبحانه، ومع ارتفاع المقامات ونيل الكمالات في المراحل العالية يكون التسليم أمرا إلهيا وفيضا ربانيا يفيضه الحق تبارك وتعالى على عبده عناية منه ومنَّة.

والتسليم لله رب العالمين ما هو إلا الاعتصام بحبل الله المتين وسبيل الفلاح والنجاة اليقين كما نطقت به الآية المباركة: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى....﴾[٤٩]!!

وأما علامة التسليم فهي الحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والعداوة في الله والعطاء لله والمنع لله والتكلم لله والسكوت لله وغيرها من المعاملات والتصرفات والأخلاقيات.

روي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: هَلْ عَمِلْتَ لي عَمَلاً؟! قال: صَلَّيْتُ لَكَ وصُمْتُ وتَصَدَّقْتُ وذكَرْتُ لَكَ، قال الله تبارك وتعالى: وأما الصَّلاةُ فَلَكَ بُرْهانٌ والصَّوْمُ جُنَّةٌ والصَّدَقَةُ ظِلٌّ والذكْرُ نورٌ فأيُّ عَمَلٍ عَمِلْتَ لي؟! قال موسى عليه السلام: دُلَّني عَلَى العَمَلِ الَّذي هُوَ لَكَ؟! قال: يا مُوسَى هَلْ والَيْتَ لي وَلِيًّا وهَلْ عادَيْتَ لي عَدُوًّا قَطُّ؟! فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله [٥٠].

وأشار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى هذا المقام بقوله: «أوثَقُ عُرَى الإيمانِ الحُبُّ في الله والبُغْضُ في الله وتَوالي أوْلياءِ الله والتَّبَرِّي مِنْ أعْداءِ الله»[٥١].

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «المُحِبُّ في الله مُحِبُّ الله والمَحْبوبُ في الله حَبيبُ الله لأنَّهما لا يَتَحابَّانِ إلاَّ في الله»[٥٢].

وعلى هذا فالملاك في ذلك كله هو حب الله سبحانه وتعالى والتودُّد إليه.

والروايات الواردة في هذا المقام كثيرة من جملتها:

عن أبي حمزة الثمالي قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن سَرَّ مُؤْمِناً فَقَدْ سَرَّني ومَن سَرَّني فَقَدْ سَرَّ اللهَ»(٥٣)!!

عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «إنَّ المُتَحابِّينَ في الله يَوْمَ القِيامَةِ عَلَى مَنابِرٍ مِنْ نورٍ قَدْ أنارَ نورُ وجوهِهِمْ ونورُ أجْسادِهِمْ ونورُ مَنابِرِهِمْ كُلَّ شيءٍ حَتَّى يُعْرَفوا بِهِ فيُقالُ هؤلاءِ المُتَحابُّونَ في الله»(٥٤)!!

قيل لأبي عبدالله عليه السلام: جُعلت فداك إنا نسمي بأسمائكم وأسماء آبائكم فينفعنا ذلك؟! فقال عليه السلام: إي والله، وهل الدينُ إلا الحُبّ!! قالَ اللهُ ﴿إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾»(٥٥)!!

وعن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «مَنْ زارَ أخاهُ في الله في مَرَضٍ أو صَحَّةٍ لا يَأتيهِ خِداعاً ولا اسْتِبْدالاً وَكَّلَ اللهُ به سَبعينَ ألْفَ مَلَكٍ يُنادونَ في قَفاهُ أنْ طِبْتَ وطابَتْ لَكَ الجَنَّةُ فأنتُم زُوَّارُ الله وأنتُمْ وَفْدُ الرَّحْمنِ حَتَّى يَأْتيَ مَنْزِلَهُ»(٥٦)!!

وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا أرَدْتَ أنْ تَعْلَمَ أنَّ فيكَ خَيْراً فانظُرْ إلَى قَلْبِكَ فإنْ كانَ يُحِبُّ أهْلَ طاعَةِ الله ويُبْغِضُ أهْلَ مَعْصِيَتِهِ فَفيكَ خَيْرٌ واللهُ يُحِبُّكَ وإنْ كانَ يُبْغِضُ أهْلَ طاعَةِ الله ويُحِبُّ أهْلَ مَعْصِيَتِهِ فلَيْسَ فيكَ خَيْرٌ واللهُ يُبْغِضُكَ والمَرْءُ مَعَ مَنْ أحَبَّ»(٥٧)!!

وخير المحبة وأعظمها ما كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام والانقياد في كل ما أمروا به أو نهوا عنه، فعن أبي جعفر عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: «شيعَتُنا المُتَباذلونَ في ولايَتِنا المُتَحابُّونَ في مَوَدَّتِنا المُتَزاوِرونَ في إحْياءِ أمْرِنا الَّذينَ إنْ غَضِبوا لَمْ يَظْلِموا وإنْ رَضُوا لَمْ يُسْرِفوا بَرَكَةً عَلَى مَنْ جاوَروا سِلْمٌ لِمَنْ خالَطوا»(٥٨)!!

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ ورَسُولِكَ الَّذي هَدانا مِنَ الضَّلالَةِ إلَى سَبيلِ طاعَتِكَ وعَلَّمَنا سُنَنَ العِبادَةِ لَكَ وعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ الطاهِرينَ الأئِمَّةِ الأكْرَمينَ، اللَّهُمَّ إنِّي أصْبَحْتُ مُتَقَلِّباً في قَبْضَتِكَ لا أمْلِكُ مِنْ نَفْسي ضَرًّا ولا نَفْعاً إلاَّ بمَشِيَّتِكَ، فأسْألُكَ يا مالِكَ كُلِّ نَفْسٍ ويا قادِراً عَلَى كُلِّ شيءٍ أنْ تَحْفَظَني فيهِ مِنْ أسْبابِ الزَّلَلِ وتُوَفِّقَني لِصالِحِ العَمَلِ، اللَّهُمَّ إنِّي عَبْدُكَ وأعْبُدُكَ وأقُدِّسُكَ وأصَلِّي لَكَ وأسْجُدُ لَكَ وأمَرِّغُ صَفْحَتي في التُّرابِ تَذَلُّلاً لَكَ كَيْ تَرْحَمَ مَخافَتي مِنكَ وتَغْفِرَ السَّالِفَ مِنْ ذَنْبي وعِصْياني لَكَ، فارْحَمْني بِرَحْمَتِكَ يا خَيْرَ الراحِمينَ»!!

الهوامش

(١) التخلق بخُلُق ما بمعنى التشبه بمن هو فيه هذا الخُلُق بالذات.

(٢) سورة الحديد: آية ٤

(٣) إحياء علوم الدين: ج ٤ ص ٢٧٢، ومنه رياض السالكين: ج ٣ ص ٢٥

(٤) سورة النحل: آية ٥٢

(٥) سورة الروم: آية ٢٦

(٦) سورة فصلت: آية ١١

(٧) سورة مريم: آية ٩٣

(٨) سورة التحريم: آية ٦

(٩) سورة الأنبياء: آية ١٩ - آية ٢٠

(١٠) سورة فصلت: آية ٣٨، ويضيف السيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في تفسيره لهذه الآية والآيتين ١٩ و ٢٠ من سورة الأنبياء (المذكورة أعلاه) والآية ٢٠٦ من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (۩ آية سجدة) أن المراد بالذين عند ربك ليسوا هم الملائكة فقط على ما فسره كثير من المفسرين إذ لا معنى لقول «اذكر ربك كذا لأن الملائكة يذكرونه كذلك» بل مطلق المقربين عنده تعالى والمخلَصون من عباده على ما يفيده لفظ ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ من الحضور من غير غيبة!! وعلى هذا فالمراد بقوله ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ في سورة الأنبياء المخصوصون بموهبة القرب والحضور وربما انطبق على الملائكة المقربين المكرَّمين.

(١١) سورة الذاريات: آية ٥٦

(١٢) سورة الرحمن: آية ٣١

(١٣) سورة الأعراف: آية ١٧٢

(١٤) سورة الحجرات: آية ١٧

(١٥) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٩ ص ٣٢٤

(١٦) سورة البقرة: آية ٢٣٨

(١٧) الكشكول ١ ج ٣ للشيخ بهاء الدين

(١٨) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٧٦

(١٩) الكافي: ج ٢ ص ٦٠

(٢٠) الكافي: ج ٢ ص ٧٢

(٢١) الترجمة:

ما لم يكن القلب صَدَفاً لدُرِّ الشريعة
لم يكن الروح محرما لأسرار الطريقة

(٢٢) سورة آل عمران: آية ٣١
(٢٣) بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ٢٠١
(٢٤) فقرة من مناجاة أمير المؤمنين في شهر شعبان المعروفة بالمناجاة الشعبانية
(٢٥) مستدرك الوسائل: ج ٥ ص ٢٨٨
(٢٦) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٧٩
(٢٧) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٩٠
(٢٨) سورة المؤمنون: آية ٣
(٢٩) محاسن البرقي: كتاب القرائن باب فضل قول الخير ص ١٥
(٣٠) الفقيه: ج ٢ ص ٦٢٦
(٣١) الكافي: ج ٢ ص ١٤٤، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٨٣
(٣٢) الفقيه: ج ٤ ص ٤٠٥، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٧٥، محاسن البرقي: كتاب القرائن ص ٥
(٣٣) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٩٣
(٣٤) بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٦٠، الكافي: ج ٢ ص ١١٥، الترغيب والترهيب: ج ٣ ص ٥٢٨
(٣٥) مصباح الشريعة: باب ٤٦
(٣٦) كالنميمة والغيبة وإفشاء الأسرار فهي صدق ولكنها ليست بحق بل مذمومة ومحظورة ولا ترضي الله بل تسخطه وتغضبه.
(٣٧) الكافي: ج ٢ ص ٢٢٦
(٣٨) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ٣٥٢، الأَوْكِيَة جمع وِكاء وهو الخيط الذي يُشَدُّ به رأس الصرَّة أو الكيس، وقد شبَّه أفواههم بكيس أو صرَّة شُدَّ رأسها فلا يخرج منها شيئا!!
(٣٩) سورة النساء: آية ١٢٥، والإحسان - كما يقول العرفاء - على مراتب:

الأولى اللغوية بأن يحسن العبد على كل شيء حتى على من أساء إليه وأن ينظر إلى المخلوقات بعين الرحمة والشفقة،

والثانية العبادية بأن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه كما قال رسول الله في تفسير الإحسان،

والثالثة الشهودية بأن يشاهد العبد ربه في كل شيء وعند كل شيء وهي مقام المشاهدة دون «كأن» كما ورد في قول أمير المؤمنين: «ما رأيتُ شيئاً إلاَّ ورَأيتُ اللهَ قبلَه وبَعْدَه ومَعَه» وقوله: «كَيْفَ أعْبُدُ رَبًّا لَمْ أرَهُ»!!

وعلى هذا فكلمة ﴿وهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الواردة في الآية الكريمة تعني أنه مشاهد لله تعالى عند تسليم ذاته وقلبه إليه وهو في شهود الحق مع كل شيء وفي كل شيء وفي جميع مراتبه الوجودية ومنقاد برمَّة ذاته إلى الله وهو

مشاهد له، وهي أعلى مراتب الإحسان!!

(٤٠) سورة آل عمران: آية ٨٣

(٤١) سورة آل عمران: آية ١٩

(٤٢) سورة البقرة: آية ٢٠٨

(٤٣) سورة النمل: آية ١٤

(٤٤) سورة النمل: آية ١٤

(٤٥) الكافي: ج ٢ ص ٤٧، تحف العقول: ص ٢٢٣ مع اختلاف يسير

(٤٦) شرح منازل السائرين للعارف الكامل كمال الدين الكاشاني: باب التفويض ص ١٠٤

(٤٧) التوحيد: ص ٣٣٧ ومنه بحار الأنوار: ج ٥ ص ١٠٤

(٤٨) سورة البقرة: آية ١٣١

(٤٩) سورة لقمان: آية ٢٢

(٥٠) بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٢٥٢

(٥١) الكافي: ج ٢ ص ١٢٥

(٥٢) بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٢٥١

(٥٣) الكافي: ج ٢ ص ١٨٨

(٥٤) الكافي: ج ٢ ص ١٢٥، وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ: «المُتَحابُّونَ في الله يومَ القِيامَةِ عَلَى زَبَرْجَدَةٍ خَضْراءٍ في ظِلِّ عَرْشِهِ عَنْ يَمينِهِ وكِلْتا يَدَيْهِ يَمينٌ وُجوهُهُم أشَدُّ بَياضاً وأضْوَءُ مِنَ الشمْسِ الطالِعَةِ يَغْبِطُهُمْ بِمَنْزِلَتِهِمْ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وكُلُّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ يَقولُ الناسُ مَنْ هؤلاءِ فَيُقالُ هَؤلاءِ المُتَحابُّونَ في الله» – الكافي: ج ٢ ص ١٢٦.

(٥٥) تفسير العياشي: مجلد ١ ص ١٦٨ ط طهران ومنه بحار الأنوار: ج٢٧ ص٩٥ والآية ٣١ من سورة آل عمران

(٥٦) الكافي: ج ٢ ص ١٧٧، وفي رواية أخرى عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «مَنْ زارَ أخاهُ في الله ولله جاءَ يومَ القيامةِ يَخْطُرُ بينَ قُباطَيْ من نورٍ لا يمُرُّ بشيءٍ إلاّ أضاءَ له حتَّى يقفَ بينَ يدَي الله عزَّ وجلَّ فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ مَرْحَباً، وإذا قالَ له اللهُ مَرْحَباً أجْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ له العَطِيَّةَ» – الكافي: ج ٢ ص ١٧٧.

(٥٧) الكافي: ج ٢ ص ١٢٦

(٥٨) بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ١٩٠، الكافي: ج ٢ ص ٢٣٦

المنزل (٢٨)

آثارُ الحُبِّ عِنْدَ المُحِب

لحب الله تعالى آثار، من جملتها:

الأثر الأول: طلب اللقاء وعدم كراهة الموت

سأل أبو ذر رسول الله ﷺ: أي المؤمنين أكيس؟! قال ﷺ: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وأَحْسَنُهُمْ لَه اسْتِعْداداً، يا أبا ذرٍّ إذا دخلَ النورُ القَلْبَ انفَسَحَ القَلْبُ واسْتَوْسَعَ»، قال: فما علامة ذلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟! قال ﷺ: «الإنابَةُ إلى دار الخُلُودِ والتَّجافي عَنْ دارِ الغُرُور والاسْتِعْدادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ»[١]!!

وقال رسول الله ﷺ: «تُحْفَةُ المُؤمِنِ المَوْتُ»[٢]، فالموت تحفة يتحف الله بها المؤمن ويحبوه ويكرمه ليقوده من العالم الأدنى إلى العالم الأعليحيث الرحمة والرضوان والخلود في نعيم مقيم مع الأنبياء والأولياء وجنة أبدية يتبوأ منها حيث يشاء، ولهذا فالمحب الصادق لله تبارك وتعالى لا يطلب الموت لِذاته بل يراه مَعْبرا للقاء محبوبه ومفتاحا لانطلاقه من مضيق سجن الدنيا وظلماتها [٣] وقيودها وأغلالها إلى فسيح عالم الآخرة وأنوارها.

تو بمير اى خواجه قبل از مردنت

تا نبيني زحمتِ جان كندنت[٤]

وقد يكون المراد بالموت في الحديث النبوي إما الموت الطبيعي أو الموت الاختياري، فالعابد الزاهد المحجوب عن معرفة الحقائق اليقينية يحصل له اللقاء مع ربه ولكن بالموت الطبيعي والعارف بالله الذي يقطع المنازل ويرتقي في المقامات في السير والسلوك إليالله تعاليفي الحياة الدنيا وينغمر في حب

الله تعاليفلم يشاهد سوى الحق هو المقرَّب عند الله وفي لقاء معه في كل أحواله ويشاهده في كل ظهور من ظهوراته وتجلٍّ من تجلياته من حيث أسمائه وصفاته وأما المحجوب الذي حجب قلبه عن ذكر الله وأعماه عن حبه وخرج من عبوديته له واشتغل عنه بما سواه فلا أمل له في لقاء الله تعاليعلى الإطلاق لا في الدنيا ولا في الآخرة كما جاء في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٦] ولذا يكره لقاء الله وبالتالي يكره الموت المحتوم عليه، يقول الحي الباقي سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٧].

قام رجل إلى الحسن بن علي عليه السلام فقال: يا ابن رسول الله، ما بالنا نكره الموت ولا نحبه؟! فقال عليه السلام: «إِنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ وعَمَّرْتُمْ دُنْياكُمْ فَأَنتُمْ تكْرَهونَ النَّقْلَةَ مِنَ العُمْرانِ إِلَى الخَرابِ»[٨].

وعلى هذا فإن حب لقاء الله يتفاوت حسب مراتب حب الله سبحانه، فمن استغرق في حبه لله واشتد منه الوجْد والشوق والحنين إلى لقائه ورؤيته فهو أشد حبا بلقاء الله وأكثر سرورا برؤيته يوم الورود عليه، وأما من شابت حبه لله شائبة وشغلت زاوية من زوايا قلبه محبة لغير الله فعلى قدر تعلقه بهذا الشاغل والمحبوب يضعف شوقه وحبه للقاء الله سبحانه.

يقول سيدنا الأستاذ الكامل العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في تفسير الكريمة المباركة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞﴾[٩]:

«إنَّ الوليَّ يحبُّ لقاءَ وليِّه، ومَنْ أيقنَ أنَّه وَليٌّ لله وجَبَتْ له الجنَّةُ، ولا حاجبٌ بينه وبينها إلاَّ الموتُ، فأحَبَّ الموتَ وتمنَّى أنْ يحِلَّ بهِ فيَدْخُلَ دارَ الكرامَةِ ويتخلَّصَ مِنْ هذهِ الدنْيا الدنيَّة الَّتي ما فيها إلا الهَمُّ والغَمُّ والمحنةُ والمصيبةُ، وأمَّا الظالِمُ فَلا يتَمَنَّى الموتَ، واللهُ يعلَمُ أنَّه لا يُحِبُّ لقاءه، ولا مَحَبَّةٌ بينه وبينهُم»[١٠].

وقد ذكر في تفسير علي بن إبراهيم أن في التوراة مكتوبا: «أَوْلِياءُ الله يَتَمَنَّون الموتَ»[١١]!!

ويقول سيد الأولياء الفانين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «والله لابْنُ أَبي طالِبٍ آنَسُ بالمَوْتِ مِن الطِّفْلِ بثَدْيِ أمِّهِ»[١٢]، ويقول عليه السلام أيضا: «لَوْ كُشِفَ الغِطاءُ ما ازْدَدْتُ يَقيناً»[١٣]!!

الأثر الثاني: إيثار رضا الله وإرادته على رضا النفس وإرادتها

لَمَّا يدرك العبد أن الحق سبحانه وتعالى أرأف به من نفسه وأرحم، وأخبر منه بمصلحته وأعلم،

ولا يقع منه شيء إلا ما كان فيه الخير والنفع وإن كان ظاهره يخالف الطبع، كيف لا يقدِّم رضا الله وما يفعله فيه ويريده منه ويقسم له من الرزق على رضا نفسه وإرادتها لاسيما إذا كان العبد عارفا بالله ومحبا مخلصا في حبه لله!! فاستغراق العبد في حب الله وحياؤه منه وهيبته عند مشاهدته وتعظيمه له يمنعانه من أن يؤثر شيئا على رضا محبوبه ومولاه، بل يرى أن كل ما يفعله المحبوب محبوب.

ومما أوحى الله تعالى إلى نبيه موسىعليه السلام وقال: «يا موسَى إنَّكَ لَنْ تتقَرَّبَ إلَيَّ بشَيْءٍ أحَبُّ إلَيَّ مِنَ الرِّضا بقَضائي»، فخير ما يتقرب به المحب إلى محبوبه والعبد إلى مولاه هو العمل على كل ما يحبه وبلوغ منتهى رضاه وتقديم الرضا بقضائه على رضا النفس بما تشتهيه وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه وإن كان ذلك مخالفا لرضا نفسه.

يروى أن عيسىعليه السلام مرَّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه، فقال له عيسىعليه السلام: يا هذا أي شيء من البلاء تراه مصروفا عنك؟! فقال: يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال: صدقت، هات يدك فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب عيسىعليه السلام وتعبَّد معه [١٤].

الأثر الثالث: الحضور وعدم الغفلة

فمن آثار حب الله تعالى عدم استيلاء الغفلة على القلب والالتفات إلى غير الله بل اليقظة والتوجه والجلوس مع الحق على بساط الأنس والتجلِّي والحضور التام معه والغيبة الكلية عمن سواه والمراقبة الدائمة له والاشتغال بذكره سواء كان الذِّكر ذكرا لسانيا أو ذكرا قلبيا وسواء كان ذكره سبحانه أو ذكر ما يتعلق به أو ما كان مظهرا من مظاهره من رسول أو ولي أو تلاوة قرآن، وكلها مقامات رفيعة عزيزة المنال تستلزم الأدب مع الحق المعبود سبحانه كما أشار إلى ذلك رسول اللهصلى الله عليه وآله بقوله: «اعْبُدِ اللهَ كأنَّكَ تَراهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ (فإنْ كُنتَ لا تَراهُ) فإنَّهُ يَراكَ»[١٥]، وهذا لا يكون للعبد إلا بحصوله غاية المعرفة بالله والإقبال بكلِّه على الله وتخَلِّيه عن كل ما سواه من علائق وشهوات وشواغل مادية وحظوظ نفسانية.

قال صادق الآل جعفر بن محمدعليه السلام: «إذا تخَلَّى المُؤمِنُ مِنَ الدُّنْيا سَما ووَجَدَ حَلاوَةَ حُبِّ اللهِ وكانَ عِنْدَ أهْلِ الدُّنْيا كأنَّهُ قَدْ خُولِطَ وإنَّما خالَطَ القَوْمَ حُبُّ اللهِ فَلَمْ يَشْتَغِلوا بغَيْرِهِ»[١٦]، فمن أخرج حب ما سوى الله عن قلبه وقطع كل علاقة جسمانية أو شهوة ظلمانية استقر حب الله فيه واشتغل به عمن سواه.

ورد في الحديث أن النبيﷺ نظر إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به فقالﷺ: «انظُروا إلَى الرَّجُلِ الَّذي قَدْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ لَقَدْ رَأيْتُهُ بَيْنَ أبَوَيْنِ يَغْذُوانِهُ بأطْيَبِ الطَّعام والشَّرابِ فدَعاهُ حُبُّ الله ورَسولِهِ إلَى ما تَرَوْنَ»[١٧]!!

ذكَرْتُكَ لا أنِّي نَسَيْتُكَ لَمْحَةً
وأيْسَرُ ما في الذِّكْرِ ذِكْرُ لِساني

فَكِدْتُ بلا وَجْدٍ أموتُ مِنَ الهَوَى
وهامَ عَلَى القَلْبِ بالخَفَقانِ

فَلَمَّا أراني الوَجْدُ أنَّكَ حاضِري
شَهَدْتُكَ مَوْجوداً بكُلِّ مَكانِ

فَخاطَبْتُ مَوْجوداً بغَيْرِ تكَلُّمِ
وَلاحَظْتُ مَعْلوماً بغَيْرِ عَيانِ

قال سيد الأحرار الحسين بن عليعليه السلام في دعاء يوم عرفة: «أنتَ الَّذي أزَلْتَ الأغْيارَ عَنْ قُلوبِ أحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ»!!

وقالعليه السلام: «مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتاجَ إلَى دَليلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ»!!

وقال ولده السجادعليه السلام في أحد أدعيته: «وفَرِّغْ قَلْبي لِمَحَبَّتِكَ واشْغَلْهُ بذِكْرِكَ»[١٨].

فبالحب الخالص لله سبحانه يستحيل أن يُدخِل العبد السالك في قلبه – وهو حرم الله – أحدا غير الله [١٩]، وعليه لا يغيب ربه عن بصر قلبه طرفة عين، بل إن العارف الكامل إذا نظر إلى غير محبوبه يعدُّ نفسه من الخاطئين المذنبين.

الأثر الرابع: المشاركة في مجالس ذكر الله والاجتناب عن مجالس معصية الله

وَالله ما طَلَعَتْ شَمْسٌ ولا غَرُبَتْ
إلاَّ وذِكْرُكَ مَقْرونٌ بأنفاسي

وَلا جَلَسْتُ إلَى قَوْمٍ أحَدِّثُهُمْ
إلاَّ وأنْتَ حَديثي بَيْنَ جُلاَّسي

فمما يورثه حب الله تبارك وتعالى هو الحضور في مجالس أهل الدين والمعرفة والصدق والأمانة والصلاح والذكر الحسن، وقد قال علي بن الحسينعليه السلام: «مُجالَسَةُ الصَّالِحينَ داعِيَةٌ إلَى الصَّلاحِ»[٢٠]، ثم الابتعاد عن مجالس أهل الريب والجهل والسفه والضلال والإعراض عن ذكر

الله فإنها مجالس باء أهلها بسخط من الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ....﴾[٢١]، فعلى المحب لله عدم المشاركة في مجالس يكون الحديث فيها خوضا في آيات الله واستهزاءً بعلومه ومعارفه واجتراءً على الله وعلى أوليائه وأحبائه خاصة إذا لم يتيسَّر له إبطاله وتغييره كما قال أبو عبدالله الصادقعليه السلام قال: «لا يَنبَغي لِلْمُؤمِنِ أنْ يَجْلِسَ مَجْلِساً يُعْصَى اللهُ فيهِ ولا يَقْدِرُ عَلَى تغْييرِهِ»[٢٢]!!

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما مِنْ مَيِّتٍ يَموتُ حَتَّى يتَراءى له مَلَكان الكاتِبان عَمَلَهُ فإنْ كانَ مُطيعاً قالا جَزاكَ اللهُ عنَّا خيْراً فرُبَّ مَجْلِسِ صِدْقٍ أجْلَسْتَنا وعَمَلٍ صالِحٍ قدْ أحْضَرْتَنا وإنْ كانَ فاجراً قالا لا جَزاكَ اللهُ عنَّا خيْراً فرُبَّ مَجْلِسِ سوءٍ قَدْ أجْلَسْتَنا وعَمَلٍ غيْرِ صالِحٍ قَدْ أحْضَرْتَنا وكَلامٍ قَبيحٍ قَدْ أسْمَعْتَنا»[٢٣]!!

وعلى هذا فالجلساء الذين يألف المحب لله بالجلوس في مجالسهم ويأنس بالحضور معهم ويشعر بالقرب إلى الله تعالى هم من جاء وصفهم في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: قالَت الحَواريُّون لِعيسَىعليه السلام يا روحَ الله مَنْ نُجالِسْ؟ قالَعليه السلام: مَنْ يُذَكِّرُكُمُ اللهَ رُؤْيَتُهُ ويَزيدُ في عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ ويُرَغِّبُكُمْ في الآخِرَةِ عَمَلُهُ»[٢٤]!!

وخير المجالس ما ذُكر فيها أهل البيتعليهم السلام وآثارهم وسيرتهم والذين وصفهم الله تبارك وتعالى في كتابه المجيد بـ«أهل الذكر»، فهم منار العلم ومعدن التنزيل والتأويل وذكرهم ومجالستهم هو ذكر الله ومجالسته، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ....﴾[٢٥]، وإحياء أمرهم هو إحياء للقلوب كما قال مولانا أبو الحسن علي بن موسى الرضاعليه السلام: «مَنْ جَلَسَ مَجْلِساً يُحْيي فيهِ أمْرَنا لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَموتُ القُلوبُ»[٢٦]!!

الأثر الخامس: حب الخلوة مع الله

وإنِّي لأسْتَغْشِي وَمَا بي نَعْسَةٌ
لَعَلَّ خَيَالاً مِنكَ يَلْقَى خَيَالِيَا

وَأخْرُجُ مِن بَيْنِ البُيُوتِ لَعَلَّنِي
أُحَدِّثُ عَنكَ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيَا

كان فيما ناجى الله عزَّ وجلَّ به موسى بن عمرانعليه السلام أن قال له: «يا ابْنَ عِمْرانَ كَذَبَ مَنْ زَعِمَ أنَّهُ يُحِبُّني فَإذا جَنَّهُ اللَّيْلُ نامَ عَنِّي أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبيبِهِ، ها أنا ذا يا ابْنَ عِمْرانَ مُطَّلِعٌ عَلَى أحِبَّائي إذا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ حَوَّلْتُ أبْصارَهُمْ في قُلوبِهِمْ ومَثَّلْتُ عُقوبَتي بَيْنَ أعْيُنِهِمْ

يُخاطِبوني عَنِ الْمُشاهَدَةِ ويُكَلِّموني عَنِ الحُضور»[٢٧].

فالسالك إلى الله يحب أن يتفرد بذكر الله ويأنس بمناجاته، ومع غلبة الأنس يعرض عن كل ما يشغله عن الحق وينعزل عن الخلق ويتجرد عن ملاحظة الغير ويسدل الحجب ويرخي الأستار بينه وبينهم ويلزم الخلوة والانفراد بحبيبه لتشرق أنواره على قلبه ويتنعم بلذيذ مجالسته ومحاضرته ويطَّلع على ما يكشف له من علمه وأسراره.

الأثر السادس: عدم الحزن على فقد شيء أو الفرح لحصول شيء

فالعارف المحب لله يخلي قلبه ونفسه عن كل همٍّ وشاغل سوى تعلقه بمحبوبه والخلوة به واللذة بذكره ومناجاته والبهجة بإشراقات أنواره وتجليات جماله على مرآة قلبه، ولهذا لا يحزنه فَقْد شيء ولا يسُرُّه إقبال شيء إلا ما كان لله وفي الله لأنه يعلم أن كل شيء ملك لله وحده يضعه حيث يشاء ويعطيه من يشاء، فإن أعطى عبدا أعطاه ما ليس له وإن منعه منعه ما ليس له وهو الجواد إن أعطى وإن منع ولهذا لا تؤثِّر فيه العوارض والأسباب وظواهر الأمور بأن يرى نفسه دون الآخرين في المال والثروة والمنصب فيحزن عليها ويتألم بل يكون حزنه على طاعة مقربة تركها أو مستحبات لم يؤدها أو معصية ارتكبها أو مكروهات عملها أو أضاع ساعة مضت خلت عن ذكر الله، وكما قيل: «إنَّ أهْلَ الجَنَّةِ لا يَتَحَسَّرونَ عَلَى شيءٍ فاتَهُمْ مِنَ الدُّنيا كَتَحَسُّرِهم عَلَى ساعةٍ مَرَّت مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الله»[٢٨]!!

الأثر السابع: الرجاء والخوف

وهي من الآثار اللازمة للمحب لله، قال الصادق عليه السلام: «مَنْ كانَ بالله عارِفاً كانَ مِنَ الله خائِفاً وإلَيهِ راجِياً»[٢٩].

فأما الرجاء فإنه لا يكون إلا بعد تهيئة المقدمات وتمهيد الأسباب الداخلة تحت إرادة العبد من الإيمان والجهاد ومحبة الله وخلوص القلب وصدق العمل وغيرها ومن ثم انتظار الفضل والإحسان وسعة الرحمة من الملك المنّان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله أولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣٠].

وأما الخوف فهو تألم القلب لتوقع مكروه في المستقبل، وللخوف مراتب، فخوف العوام من عذاب الله وانتقامه وسخطه، وخوف المحبين وأرباب القلوب من خطر بُعده وفراقه وإعراضه لما أعطتهم المعرفة بصفاته وأسمائه من الهيبة والعظمة والإجلال وما عرفوه من حقيقة كلمة: ﴿.... وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ

نَفْسَهُ....﴾[٣١]، فأعلم الناس بالله أخوفهم له، ولذلك قال النبيﷺ: «أنا أخْوَفُكُمْ لله» لأنه أشدهم حبا لله وأعلمهم به فأخوفهم له.

وقال الصادقعليه السلام: «حُسْنُ الظَّنِّ بالله أنْ لا تَرْجو إلاَّ اللهَ ولا تخافَ إلاَّ ذنبَكَ»[٣٢]، فالعارف المحب يرى أن الذنب ظلمة والظلمة حجاب والحجاب بُعد والبعد عذاب [٣٣].

هذا وللرجاء حد وللخوف حد، فإذا تجاوز الرجاء إلى الأمن فهو خسران مبين، وإذا تجاوز الخوف إلى القنوط واليأس فهو كفر وضلال، ولابد من الاعتدال في كفتيهما فلا يغلب الرجاء على الخوف ولا الخوف على الرجاء، فعن الإمام الباقرعليه السلام: «لَيسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤمِنٍ إلاَّ وفي قَلْبِهِ نوران نورٌ مِنْ خِيفَةٍ ونورٌ مِنْ رَجاءٍ لَوْ وُزِنَ هذا لَمْ يَزِدْ عَلَى هذا ولَوْ وُزِنَ هذا لَمْ يَزِدْ عَلَى هذا»[٣٤]!!

مرض رجل من الأنصار فأتاه النبيﷺ يعوده فوافقه وهو في الموت فقالﷺ: كيف تجدك؟! قال: أجِدُني أرْجُو رَحْمَةَ رَبِّي وأتخَوَّفُ مِنْ ذُنوبي، فقال النبيﷺ: مَا اجْتَمَعَتا في قَلْبِ عَبْدٍ في مِثْلِ هذا المَوْطِنِ إلاَّ أعْطاهُ اللهُ رَجاءهُ وآمَنَهُ خَوْفَهُ [٣٥].

ومن دعاء الإمام أبي عبدالله الصادقعليه السلام: «اللَّهُمَّ أيْقَنْتُ أنَّكَ أرْحَمُ الراحِمينَ في مَوْضِعِ العَفْوِ وَالرَّحْمِةِ وأشَدُّ المُعاقِبينَ في مَوْضِعِ النَّكالِ وَالنَّقِمَةِ»[٣٦].

الأثر الثامن: الشفقة والرأفة على عباد الله والرحمة والتذلل لأولياء الله والتعزز والشدة على أعداء الله

إن الشفقة والرأفة والودّ والرحمة من صفات الباري عزَّ وجلَّ، ولا شك أن المحب يتطلع دوما إلى التشبه بمحبوبه في جميع صفاته، فإذا ورث القلب حب الله تبارك وتعالى كان المحب يقظ الإحساس رقيق القلب على عباد الله وخَلْقه بعيدا عن الشدة والقسوة مشفقا محسنا رؤوفا رحيما بمن أمره الله برحمته مشاركا إياهم بوجدانه خافض الجناح لهم لا سيما الفقراء والمساكين منهم وأهل الاحتياج والفاقة فيخفُّ إلى مساعدتهم ويهرع إليمواساتهم، وهذا ما يرضي الله سبحانه ولا غاية للمحب سوى رضا المحبوب، وقد روي أن موسىعليه السلام قال: يا رب أخبرني عن آية رضاك عن عبدك فأوحى الله تعالى إليه: «إذا رَأيْتَ نَفْسَكَ تُحِبُّ المَساكينَ وتُبْغِضُ الجَبَّارينَ فذلكَ آيَةُ رِضاي»[٣٧]!!

وفيما كتب أمير المؤمنينعليه السلام إلى مالك الأشتررضي الله عنه لما ولاه على مصر: «وأشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ والمَحَبَّةَ لَهُمْ واللُّطْفَ بِهِمْ ولا تكونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضارِياً تغتَنِمُ أكْلَهُمْ

فإنَّهُمْ صِنْفانِ إمَّا أخٌ لَكَ في الدِّينِ أوْ نَظيرٌ لَكَ في الخَلْقِ.... فأعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذي تُحِبُّ أنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وصَفْحِهِ»(٣٨)!!

ولما كان للفقر كراهة جبِلِّية في النفس البشرية فعلى السالك إلى الله أن يسأل ربه أن يحبب إليه صحبة الفقراء ومعاشرتهم ومجالستهم لما في ذلك من ترويض للنفس وتزكيتها بالصبر والتواضع وصيانتها من الخوض في ملذات الدنيا، ويقول كما قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في دعائه: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلَيَّ صُحْبَةَ الفُقَراءِ وأعِنِّي عَلَى صُحْبَتِهِمْ بحُسْنِ الصَّبْرِ»(٣٩) اتباعا لقوله تعاليفي محكم كتابه مخاطبا خاتم أنبيائه صلى الله عليه وآله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾(٤٠)!!

وفي حديث ليلة المعراج قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله: «يا أحْمَدَ، إنَّ المَحَبَّةَ هيَ المَحَبَّةُ لِلْفُقَراءِ والتَّقَرُّبُ إلَيْهِمْ، قال صلى الله عليه وآله: يا رَبِّ وَمَنِ الفُقَراءُ؟! قال تعالى: «الَّذينَ رَضُوا بالقَليلِ وَصَبَرُوا عَلَى الجوعِ وشَكَروا عَلَى الرَّخاءِ وَلَمْ يَشْكُوا جوعَهُم ولا ظَمَأهُم ولَمْ يُكَذِّبوا بألسِنَتِهم ولَمْ يَغْضَبوا عَلَى رَبِّهم ولَمْ يَغْتَمُّوا عَلَى ما فاتَهُم ولَمْ يَفْرَحوا بما آتاهُم»(٤١)!!

ومن آثار حب الله تعالى المودة للمؤمنين والتذلل لأولياء الله الصالحين والبغض لأعداء الله والمخالفين كما جاء في قوله تعالى: ﴿.... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ....﴾(٤٢) وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٤٣).

الأثر التاسع: كتمان حبه لله

صَحَّ عِنْدَ النَّاسِ أَنِّي والِهٌ
غَيْرَ أنْ لَمْ يَعْلَمُوا حُبِّي لِمَنْ!!

وهذاالأثر من أبرز الآثار عند الخواص والسالكين إلى الله والعارفين المحبين الذين تجردوا عن الخلق واتصلوا بالحق فلم يحبوا إلا الله ولم يعرفوا إلا الله ولم يأنسوا إلا بحب الله، فصانوا قلوبهم أن يدخلها إلا ربهم وستروا مقامهم عنده في نفوسهم وحجبوا محبتهم له في قلوبهم وكتموها عن غيرهم تعظيما لشأنه وغيرة لجنابه.

بَيْنَ المُحِبِّينَ سِرٌّ لَيْسَ يُفْشِيهِ
قَوْلٌ وَلا قَلَمٌ لِلْخَلْقِ يَحْكِيهِ(٤٤)

وكانت من وصايا سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه لتلامذته: الكتمان، الكتمان، الكتمان!!

وقد جاء في بعض رسائل الحكيم الإلهي صدر المتألهين الشيرازي (قده) هذا البيت:

نالـه وفريـادم از حـد در گـذشـت

يـك كس از حـال درون واقـف نگشت(٤٥)

ونعم ما قيل: «لَوْلا حُضورُ الأغْيار ما كانت الأسْرارُ»!! فلو كان للكلِّ أهلية الوصول إلى الأسرار ومعدن الأنوار لتجلَّت كل الحقائق عن بطون الأستار وظهرت جميع المعاني عن طي الاحتجاب والكتمان ولم يكن للأسرار في ديار القلوب مكان!!

ونختم بحثنا في هذا المنزل بشميم عطرٍ من مسك حديث مولانا ومقتدانا الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام في حب الله تعالى وآثاره:

قال الصادقعليه السلام: «حُبُّ الله إذا أضاءَ عَلَى سِرِّ عَبْدٍ أخْلاهُ عَنْ كُلِّ شاغِلٍ وكُلِّ ذِكْرٍ سِوَى الله عِنْدَ ظُلَمِهِ والمُحِبُّ أخْلَصُ الناسِ سِرًّا لله وأصْدَقُهُمْ قَوْلاً وأوْفاهُمْ عَهْداً وأزْكاهُمْ عَمَلاً وأصْفاهُمْ ذِكْراً وأعْبَدُهُمْ نَفْساً تتَبَاهَى المَلائِكَةُ عِنْدَ مُناجاتِهِ وتفْتَخِرُ برُؤيَتِهِ وبِهِ يَعْمُرُ اللهُ تعالَى بِلادَهُ وبكَرامَتِهِ يُكْرِمُ عِبادَهُ ويُعْطِيهِمْ إذا سَألُوا بحَقِّهِ ويَدْفَعُ عَنْهُمُ البَلاءَ برَحْمَتِهِ فَلَوْ عَلِمَ الخَلْقُ ما مَحِلَّهُ عِنْدَ الله ومَنْزِلَتَهُ لَدَيْهِ ما تَقَرَّبُوا إلَى الله إلاَّ بتُرابِ قَدَمَيْهِ»(٤٦)!!

«إلهي مَنْ ذا الَّذي ذاقَ حَلاوَةَ محبَّتِك فَرامَ منْكَ بَدَلاً ومَنْ ذا الَّذي أنِسَ بقُرْبك فابْتَغَى عنكَ حِوَلاً إلهي فاجْعَلْني مِمَّنْ اصْطَفَيْتَهُ لِقُرْبكَ وولايَتك وأخْلَصْتَهُ لِوُدِّكَ ومَحَبَّتِكَ وشَوَّقْتَهُ إلَى لِقائِكَ ورَضَّيْتَهُ بقَضائِكَ ومَنَحْتَهُ بالنظَرِ إلَى وَجْهِكَ وحَبَوْتَهُ برِضاكَ وأعَذْتَهُ مِنْ هَجْرِكَ.....»(٤٧)!!

الهوامش

(١) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٨٣

(٢) بحار الأنوار: ج ٨٢ ص ١٧١

(٣) كما جاء في قول رسول الله ﷺ: «الدُّنْيا سِجْنُ الْمُؤمِنِ» - تحف العقول للحراني: ص ٥٣، معاني الأخبار: ص ٢٨٩، وعنه بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٢٩٧، عوالم العلوم: ج ١٧ ص ٣٥١، أمالي الطوسي: ج ٢ ص ١٤٢، مكارم الأخلاق للطبرسي: ص ٤٦١

(٤) الترجمة:

مت قبل موتك حتى
لا ترى عذاب نزع روحك

(٥) سورة المطففين: آية ١٥

(٦) سورة الإسراء: آية ٧٢

(٧) سورة الجمعة: آية ٨

(٨) بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٢٩

(٩) سورة الجمعة: آية ٦ - آية ٧

(١٠) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ١٩ ص ٢٦٧

(١١) بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٢٥

وقد يرى البعض أن هناك تعارضا بين ما ورد في بعض الأحاديث والأخبار من حب لقاء الله تعالى - كما ذكرنا في بحثنا هذا - وما ورد في بعضها من ذم تمنِّي الموت وكراهته - كما جاء في الحديث القدسي حيث قال الله تبارك وتعالى: «ما تَرَدَّدْتُ في (عَنْ) شَيءٍ أنا فاعِلُهُ كتَرَدُّدي في مَوْتِ عَبْدي الْمُؤمِنِ (عَنْ مَوْتِ الْمُؤمِنِ) إنَّني لأحِبُّ لِقاءهُ ويكْرَهُ الْمَوْتَ (يكْرَهُ الْمَوْتَ وأكْرَهُ مُساءتَهُ) فأصْرِفُهُ عَنْهُ» - الكافي: ج ٢ ص ٢٤٦، ج ٢ ص ٣٥٢، الجواهر السنية في الأحاديث القدسية: ص ٢٤٩، ولرفع الشكوك والأوهام نذكر بعض الوجوه التي أشار إليها العلامة المجلسي رحمه الله في تحقيقه (بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٣٨، ج ٦٧ ص ١٥٦):

أولا: ما ذكره الشهيد في الذكرى من أن حب لقاء الله غير مقيد بوقت فيحمل على حال الاحتضار ومعاينة ما يحب فإنه ليس شيء حينئذ أحب إليه من الموت ولقاء الله (كما ورد في الرواية أن رجلا قال لأبي عبدالله عليه السلام: أصلحك الله من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن أبغض لقاء الله أبغض الله لقاءه!! قال عليه السلام: نعم، قال: فوالله إنا لنكره الموت، فقال عليه السلام: «لَيْسَ ذاكَ حَيْث تذْهَبُ إنَّما ذلكَ عِنْدَ الْمُعايَنَةِ إذا رأى ما يُحِبُّ فلَيْسَ شيءٌ أحَبَّ إليهِ مِنْ أن يتَقَدَّمَ واللهُ يُحِبُّ لِقاءهُ وهو يحِبُّ لِقاءَ الله حينئذٍ وإذا رَأى ما يَكْرَهُ فلَيْسَ شيءٌ أبْغَضَ إليهِ مِنْ لِقاءِ الله عزَّ وجلَّ واللهُ عزَّ وجلَّ

يُبْغِضُ لِقَاءهُ» - بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٢٩، معاني الأخبار: ص ٢٣٦)، ويقول العلامةﷺ في تأويل الحديث القدسي أنه ورد من طريق الخاصة والعامة (راجع صحيح البخاري: ج ٨ ص ١٣٢) أن الله سبحانه يظهر للعبد المؤمن عند الاحتضار من اللطف والكرامة والبشارة بالجنة ما يزيل عنه كراهة الموت ويوجب رغبته في الانتقال إلى دار القرار فيقل تأذِّيه به ويصير راضيا بنزوله وراغبا في حصوله، فأشبهت هذه المعاملة معاملة من يريد أن يؤلم حبيبه ألما يتعقبه نفع عظيم فهو يتردد في أنه كيف يوصل هذا الألم إليه على وجه يقلُّ تأذِّيه.

ثانيا: الموت ليس نفس لقاء الله فكراهته من حيث الألم الحاصل منه وهما متغايران وكراهة أحد المتغايرين لا يوجب كراهة الآخر.

ثالثا: إن كراهة الموت إنما تذم إذا كانت مانعة من تحصيل السعادات الأخروية بأن يترك الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهجران الظالمين لحب الحياة والبقاء، والحاصل أن حب الحياة الفانية الدنيوية إنما يُذَمُّ إذا آثرها على ما يوجب الحياة الباقية الأخروية.

رابعا: أن حب لقاء الله يوجب حب كثرة العمل النافع وقت لقائه وهو يستلزم كراهة الموت القاطع له واللازم لا ينافي الملزوم.

خامسا: أن العبد يلزم أن يكون في مقام الرضا بقضاء الله فإذا اختار الله له الحياة فيلزمه الرضا بها والشكر عليها فلو كره الحياة والحال هذه فقد سخط ما ارتضاه الله له وعلم صلاحه فيه وهذا مما لا يجوز وإذا اختار الله له الموت يجب أن يرضى بذلك ويعلم أن صلاحه فيما اختاره الله له فلو كره ذلك كان مذموما، وأما الدعاء لطلب الحياة والبقاء لأمره تعالى بذلك فلا ينافي الرضاء بالقضاء وكذا في الصحة والمرض والغنى والفقر وسائر الأحوال المتضادة يلزم الرضا بكل منها في وقته وأمرنا بالدعاء لطلب خير الأمرين عندنا، فما ورد في خبر حب الموت إنما هو إذا أحب الله ذلك لنا وأما الاقتراح عليه في ذلك وطلب الموت فهو كفر لنعمة الحياة غير ممدوح عقلا وشرعا كطلب المرض والفقر وأشباه ذلك، وهذا وجه قريب يؤيده كثير من الآيات والأخبار والله تعالى يعلم.

(١٢) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٢١٣

(١٣) بحار الأنوار: ج ٤٠ ص ١٥٣، شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٧ ص ٢٥٣

(١٤) الحقائق في محاسن الأخلاق (للفيض الكاشاني): ص ١٤٧

(١٥) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٧٦، أمالي الطوسي: ج ٢ ص ١٣٨، نهج الفصاحة: ص ٦٥، مسند أحمد بن حنبل: ج ٢ ص ١٣٢، حلية الأولياء لأبي نعيم الإصفهاني: ج ٨ ص ٢٠٢، كنز العمال: ج ٣ ص ٢١ ح ٥٢٥٠

(١٦) الكافي: ج ٢ ص ١٣٠، المخالطة: اختلال العقل، وفي الحديث: خولط أي اختل عقله وخالط القوم حب الله أي مزجهم وتخللهم.

(١٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ ص ١٥٦

(١٨) الصحيفة السجادية: الدعاء الواحد والعشرون - دعاؤه إذا أحزنه أمر وأهمته الخطايا
(١٩) قال الإمام الصادق ﷺ: «الـقَـلْـبُ حَـرَمُ الله فَلا تُـسْـكِـنْ حَـرَمَ الله إلاَّ اللهَ» - جامع الأخبار: ص ١٨٥ ومنه بحار الأنوار: ج٧٠ ص٢٥، كنز العمال: ج ١ ص ٢٥
(٢٠) بحار الأنوار: ج ١ ص ١٤١
(٢١) سورة الأنعام: آية ٦٨
(٢٢) الكافي: ج ٢ ص ٣٧٤
(٢٣) بحار الأنوار: ج ٦ ض ١١٦
(٢٤) الكافي: ج ١ ص ٣٩
(٢٥) سورة النور: آية ٣٦
(٢٦) بحار الأنوار: ج ١ ص ١٩٩
(٢٧) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٣٢٩، ج ٧٠ ص ١٤، أمالي الشيخ الصدوق: ط ١٩٧٠ المجلس ٥٧ ص ٣١٨
(٢٨) مستدرك الوسائل: ج ٥ ص ٢٨٨
(٢٩) مستدرك الوسائل: ج١١ ص ٢٢٦
(٣٠) سورة البقرة: آية ٢١٨
(٣١) سورة آل عمران: آية ٢٨، آية ٣٠
(٣٢) الكافي: ج ٢ ص ٧٢
(٣٣) راجع مراتب الذنب والتوبة في (المنزل ١: التوبة عند المحب)
(٣٤) الحقائق في محاسن الأخلاق (للفيض الكاشاني): ص ١٥٩، بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٢٦٠ مع اختلاف يسير في الألفاظ.
(٣٥) أمالي الشيخ المفيد: المجلس ١٧ ص ١٣٨ ومنه مستدرك الوسائل: ٢ ص ١١٨
(٣٦) من أدعية شهر رمضان للإمام أبي عبدالله الصادق ﷺ
(٣٧) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٦
(٣٨) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٧ ص ٣٢
(٣٩) الصحيفة السجادية: الدعاء الثلاثين
(٤٠) سورة الكهف: آية ٢٨
(٤١) إرشاد القلوب: ج ١ - ٢ باب ٥٤ ص ٢٠٠ - ٢٠١
(٤٢) سورة الفتح: آية ٢٩
(٤٣) سورة المائدة: آية ٥٤
(٤٤) النجم الثاقب: ص ١٤٧
(٤٥) الترجمة:

لـقـد عَـــلَـــت صـيـحـتـي عـــن حـــدِّهـــا الـمــحــدود

ولـــكـــن مـــا عـــلـــم أحــــد بـــما في سري وبـاطـنـي

(٤٦) مصباح الشريعة الباب ٩٧ ص ١٩٣ ومنه بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٣

(٤٧) من مناجاة المحبين للإمام زين العابدين عليه السلام

المنزل (٢٩)

الدِفاعُ عَنِ المَحْبوبِ عِنْدَ المُحِب

للنفـس الإنسـانية والطبيعـة البشريـة صفات غريزيـة مطبوعة في ذات الإنسـان ومتعلقـة بفطرته وطبعه، ومن هذه الصفات المحبة، وهي ميل الطبع ورغبته في شيء يكون حصوله سببا للشعور باللذة والراحة، وكلما كان الشعور باللذة والراحة أقوى كانت المحبة لذلك الشيء أشد.

ولما كانت المحبة متوقفة على سـبب من الأسـباب المتعددة كانت أنواع المحبة مختلفة ومتعددة بتعدد الأسباب [١]، ومن جملة أقسام المحبة حب المال وحب تَمَلُّكه وجمعه وبغض إنفاقه وعلى الخصوص إذا لم يعُدْ عليه بعائـد عيني وعـاجـل، والسـبب في ذلك أن النفس ممكن والممكن في أصل نشـأته فقيـر وفي ذاتــه محتــاج، ولخوفـه من الفقــر والاحتيـاج كان إنفاقــه كُلْفــة على النفس وخارج عن دائرة الطبـع، وقـد دل على ذلك قوله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وإذَا مَسَّـــهُ الْخَـيْـرُ مَنـُوعاً﴾ [٢] وقوله تعالى: ﴿.... وَمَـن يُوقَ شُــحَّ نَـفْسِـــهِ....﴾ [٣] أي أن الشـح والبخل والإمساك من صفات النفس الذاتية المرتبطة بها فطرةً، ومن هنا كان الدفاع عن المال فطري وذاتي.

وكذلـك الإنسـان بحسـب أصالتـه وفطرته يميـل إلى التكاثـر في الأولاد والتباهي بهـم والتفاخر بكثرتهـم، فـكان حبهـم والميـل إليهـم ميـل ذاتي وطبيعـي، وبالتـالي كان الدفـاع عنهـم دفاعـا فطريا وغريزيا.

وأما حب النفس فهو أشـد أنواع الحب الفطري وأقواها، فالإنسـان مجبول على حب نفسـه وكمالها وبقائهـا ودوام وجودهـا في الدنيا، ومن ثم يكره الموت لظنـه أنه يوجب عدمه، وهي دواعي وبواعث إلى الدفاع عن نفسه بشتى الطرق والوسائل، وقد تنطوي تحت حب النفس والذات سائر أنواع الحب الأخـرى، فحب المال ناشـئ من الخوف من الفقـر والفاقة وهي أمور متعلقـة بالنفس، ومحبة الأولاد

ناشئة من الشعور بأن بقاءهم هو بقاء له بعد موته، وهذا أيضا متعلق بالنفس.

وتدور بين هذه الأنواع من الحب أنواع أخرى من الحب الدنيوي والنفسي كحب الجاه والرياسة وحب المنصب والشهرة وحب المدح والثناء من الناس، ويسعى الإنسان إلى حصولها بما يملك من طاقات أشد السعي، وإذا حصل عليها يتشبث بها كل التشبث ويدافع عنها مدافعة من لا همَّ له سواها.

والتعلق بهذه الموارد وما شابهها إما أن تكون مذمومة أو محمودة، فإذا كانت الأموال والأهل والأولاد والأنفس والجاه والرياسة والمدح والثناء أسبابا لِلَّهو واشتغال القلب عن الله تعالى فهي مذمومة، أما إذا كانت قائمة على موازين إلهية ومعايير شرعية فهي محمودة ومقبولة، فالأموال الطيبة إذا كانت سببا لعمل البرِّ والتصدُّق والإنفاق في سبيل الله فهي محمودة كما ورد: «نِعْمَ المالُ الصَّالِحُ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ»[٤]، وإذا كان التكاثر في الأولاد وإبقاء النسل سببا في قوة شوكة الإسلام وغلبته وإبقاءً لذكر الله تعالى ودوامه وإيجاد أفراد صالحين في المجتمع تعود أعمالهم الصالحة عليهم وعلى آبائهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿.... وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ....﴾[٥] وقال رسوله ﷺ: «إذا ماتَ ابْنُ آدَمَ (الْمُؤمِنُ) انقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثلاثٍ:.... وَوَلَدٍ صالِحٍ يَدْعُو لَهُ....»[٦] فهو محمود، وإذا كانت الأنفس خاضعة بالعبودية لله تعالى مشغولة بالتزكية والتطهير عن درن الشهوات النفسية وكدر اللذات الدنيوية وكانت معرفتها سبيلا إلى معرفة الرب فهي في هذه الأحوال مقبولة ومحمودة، وأما الجاه والمنصب والرياسة والمدح والثناء من الناس إن كان حبها يستولي على القلب وينصرف الهمُّ إلى سعتها وشيوعها إشباعاً لحظوظ النفس أو حبًّا للتسلط أو إظهاراً للفضل على الغير أو تقرباً إلى الحكام والسلاطين فإنها من آثار الميل إلى الدنيا ونقصان في الدين بل هي آفات نفسانية مُرْدية، والتعلق بها منكر بالكلية ومذموم، ويكون من الصعوبة تركها والتخلص منها، أما إذا لم يكن الحرص من العبد على طلبه ولم يتحسَّر بزواله فهو محمود.

سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلا يقول اللَّهم إني أعوذ بك من الفتنة، فقال عليه السلام: «أراكَ تَتَعَوَّذُ مِنْ مالِكَ ووَلَدِكَ، يقولُ اللهُ تعالَى ﴿إنَّمَا أمْوَالُكُمْ وأوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ولكِنْ قُلْ اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنْ مُضِلاَّتِ الفِتَنِ»[٧]!!

وقد صرَّح القرآن الكريم في غير واحدة من الآيات المباركات أن التفاخر بالأنساب والأحساب والأموال والأولاد مذموم، فمن هذه الآيات ما كان إعلاماً وتنبيهاً كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ....﴾[٨]، ومنها ما كان اختبارا وفتنة كما في قوله تعالى: ﴿إنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ....﴾[٩] أي اختبرناكم

بهما إن كانت تحجبكم عنا أم لا، ومنها ما كان توبيخا كما في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ *﴾(١٠) أي ألهتكم زينتا الحياة الدنيا وهما المال والبنون وفتنتم بهما وشغلكم التفاخر بهما عما هو أهم وهو ذكر الله سبحانه والاستعداد للقائه، ومنها ما كان تحذيرا وتهديدا كما في قوله تعالى: ﴿.... لاَ تُلْهِكُمْ أَوْلاَدُكُمْ وَلاَ أَمْوَالُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ....﴾(١١)!!

كل ذلك لأن الإنسان يرى أن الكمالات والمنافع والخيرات في المال أو الأولاد أو النفس أو غيرها من الأرزاق الدنيوية والنعم الوجودية والتعلقات الشهوانية الأخرى أو جميعها، فيدافع عنها حفظا لها من الفقد والضياع، ولكنه غافل عن المعرفة بأن هذه الأرزاق باقية ببقاء بدنه في الدنيا والرغبة فيها فانية بفنائه، وأن حبها وحب ما شاكلها من المتعلقات النفسية المبعدة عن ذكر الله والآخرة ليست إلا حطاما زائلا وأمورا وهمية عرضية ومجازية غير حقيقية تشغل الإنسان عن ربه وطاعته وتلهيه عن تحصيل آخرته، وبالتالي كان الدفاع عنها أيضا دفاعا وهميا ومجازيا محضا لا حقيقيا، وأن الخير الباقي والكمال الحقيقي وكل الخير والكمال ما كان في حب الله الواهب للعطايا والأرزاق كلها والدفاع عنه سبحانه وعن كل حقٍّ أمر سبحانه بالدفاع عنه، لأنه هو الحي الباقي وكل ما سواه فانٍ لا محالة.

وعلى هذا يمكن القول أن الدفاع إما أن يكون محمودا أو يكون مذموما، فإذا كان حقا وللحق وبالحق فهو محمود وإذا كان باطلا وعلى الحق فهو مذموم.

يقول السيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في حكم الدفاع: «والإِسْلامُ يَحْفَظُ مِنْ هذا الحُكْمِ أَصْلَهُ وهُوَ مَا لِلْفِطْرَةِ ويُبْطِلُ تفاصيلَهُ أَوَّلاً ثُمَّ يُوَجِّهُهُ إِلَى جِهَةِ الله سُبْحانَهُ بصَرْفِهِ عَنْ كُلِّ شَيءٍ ثُمَّ يَعُودُ بهِ إلَى مَوارِدِهِ الكَثيرَةِ فيَسْبكُ الجَميعَ في قَالِبِ التوْحيدِ بالإِيمانِ بالله فيَنْدُبُ الإنسانَ أنْ يتَعَصَّبَ لِرجالِهِ ونِسائِهِ وذراريهِ ولِكُلِّ حَقٍّ بإرجاعِ الجَميعِ إلَى جانِبِ الله، فالإِسْلامُ يُؤَيِّدُ حُكْمَ الفِطْرَةِ ويُهَذِّبُهُ مِنْ شَوْبِ الأَهْواءِ والأَمانِي الفاسِدَةِ ويُصَفِّي أَمْرَهُ في جَميعِ المَوارِدِ ويَجْعَلُها جَميعاً شَريعَةً إنسانِيَّةً يَسْلُكُها الإنسانُ عَلَى الفِطْرَةِ ويُخَلِّصُها مِنْ ظُلْمَةِ التَّناقُضِ إلَى نورِ التَّوافُقِ والتَّسالُمِ»(١٢).

وأما المؤمن المحب لله فهو الذي آثر حب الله تعالى أو ما دعا الله تعالى إلى حبه على حب المال والأولاد والنفس وكل ما سوى الله، وأوجب على نفسه الفداء بها كلها في سبيل رضا محبوبه الحقيقي وهو الله عزَّ وجلَّ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه: «أرادَتْهُمُ الدُّنْيا فَلَمْ يُريدُوها وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنفُسَهُمْ مِنْها»(١٣)!!

هر كس كه تو را شناخت جان را چه كند
فرزند وعيال وخانمان را چه كند
ديوانه كنى هردو جهانش بخشى
ديوانه تو هر دو جهان را چه كند[١٤]

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله....﴾[١٥]، فالسالك المحب لله بعد تهذيب نفسه وتنقيتها واستنارة قلبه بالمعارف الإلهية والعقائد الإيمانية والفيوضات الرحمانية وانجذابه إلى عالم الربوبية يرى أن الخالق الذي أحسن كل شيء خَلْقَه أهل للحب الحقيقي، فهو الكمال المطلق اللامتناهي الذي لا يشوبه نقص والعالِم المحيط الذي لا يشوبه جهل والقادر المقتدر الذي لا يشوبه عجز، ومن ثم يرى أن الدفاع عن المحبوب الحقيقي وكل ما يندرج حبه في حب الله سبحانه وتعالى هو الدفاع الحق دون سواه.

جاء في تفسير مجمع البيان للطبرسي (قده) في سبب نزول الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ *﴾[١٦] ما هو مروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام وأبي عبدالله الصادق عليه السلام:

نزلت في أبي لبابة بن عبدالمنذر الأنصاري وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحا لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله فأتاهم فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة أننزل على حكم سعد بن معاذ؟! فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح فلا تفعلوه، فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شدَّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاما ولا شرابا حتى خرَّ مغشيا عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحلُّ نفسي حتى يكون رسول الله هو الذي يحلُّني، فجاءه فحلَّه بيده، ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يجزئك الثلث أن تَصَدَّق به[١٧]، فمن رجح أمر الله تعالى ورسوله على ماله وبنيه ولم يَمِلْ إلى التفريط في حبهما أوتي أجرا عظيما.

وللدفاع عن الحق تبارك وتعالى طريقان متلازمان:

الطريق الأول: الدعوة إلى الحق ومخالفة أعدائه

وهو الجانب الخطابي في الدفاع عن الحق، فقد قال الحكيم في كتابه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ....﴾[١٨]، فالله سبحانه وتعالى يأمر بإرشاد الخلق ومحاورتهم ودعوتهم إلى الحق بالوجوه الحسنة والموازين الحقة والشرائط المشروعة بأن يكون الغرض من الدعوة والتبليغ إقامة دين الله وإعلاء كلمته ويكون قلب الداعي قاصدا وجه الله تعالى مراقبا إياه في قصده طالبا رضاه وإن لم يوافق رضا الخلق خاليا من العُجْب والرياء والترفع والكِبْر غنيا بالله عما في أيدي الناس متَّصفا بجميل الأدب وحسن المنطق ليِّن الكلام متحلِّيا بالصفات التي ينادي بها متذكِّرا قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ....﴾[١٩] سالكا سبيل ما يدعو إليه: ﴿.... أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٢٠] فإنها أوقع في القلوب وأبلغ في الأثر.

وقد أوضحت الآية المباركة أن أساليب الدعوة والمحاورة وإثبات الحقائق ثلاثة: الحكمة والبرهان أو الموعظة الحسنة أو المجادلة بالتي هي أحسن أو الجمع بين اثنين منها أو جميعها حسبما تقتضيه الظروف المحيطة وما يعود بالدعوة من الأثر وجلب الفائدة وقابلية المدْعوِّ في قبول الدعوة كما قال سيد المرسلينﷺ: «إنَّا مَعاشِرُ الأنبياءِ نُكَلِّمُ (أمِرْنا أنْ نُكَلِّمَ) النَاسَ عَلَى قَدْرِ عُقولِهِمْ»[٢١]!!

يقول العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في تفسيره هذه الآية المباركة:

«وكَذا ما ذَكَرَهُ بعْضُهم أنَّ الطُرُقَ الثلاثَ المَذْكورَةَ في الآيَةِ مُتَرَتِّبَةٌ حَسَبَ تَرَتُّبِ إفْهامِ الناسِ في اسْتِعْدادِها لِقَبولِ الحَقِّ، فَمِنَ الناسِ الخَواصُّ وهُمْ أصْحابُ النُّفوسِ المُشْرِقَةِ القَوِيَّةِ الاسْتِعْدادِ لإدْراكِ الحَقائِقِ العَقْلِيَّةِ وشَديدَةِ الانجِذابِ إلَى المَبادِئِ العالِيَةِ وكَثيرةِ الألْفَةِ بالعِلْمِ واليَقينِ فهؤلاءِ يُدْعَوْنَ بالحِكْمَةِ وهِيَ البُرْهانُ، ومِنْهُمْ عَوامٌّ أصْحابُ نُفوسٍ كَدِرَةٍ واسْتِعْدادٍ ضَعيفٍ مَعَ شِدَّةِ ألْفَتِهِمْ بالمَحْسوساتِ وقُوَّةِ تَعَلُّقِهِمْ بالرُّسومِ والعاداتِ قاصِرَةٍ عَنْ تَلَقِّي البَراهينِ مِنْ غَيْرِ أنْ يَكونوا مُعانِدينَ لِلْحَقِّ وهؤلاءِ يُدْعَوْنَ بالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، ومِنْهُمْ أصْحابُ العِنادِ واللِّجاجِ الَّذينَ يُجادِلونَ بالباطِلِ لِيُدْحِضوا بِهِ الحَقَّ ويُكابِرونَ لِيُطْفِئوا نورَ اللهِ بأفْواهِهِمْ رَسَخَتْ في نُفوسِهِمُ الآراءُ الباطِلَةُ وغَلَبَ عَلَيْهِمْ تَقْليدُ أسْلافِهِمْ في مَذاهِبِهِمْ الخُرافِيَّةِ لا يَنْفَعُهُمْ المَواعِظُ والعِبَرُ ولا يَهْديهِمْ سائِقُ البَراهينِ وهؤلاءِ هُمُ الَّذينَ أمَرَ بمُجادَلَتِهِمْ بالَّتي هِيَ أحْسَنُ»[٢٢]!!

ويقول صدر المتألهين الشيرازي (قده) في أسفاره: «الطُّرُقُ الثلاثةُ المَذْكورَةُ في كِتابِ الله أحَدُها الحِكْمَةُ البُرْهانِيَّةُ لِلْكامِلينَ المُقَرَّبينَ، والثّاني المَوْعِظَةُ الخِطابِيَّةُ لأهْلِ السَّلامَةِ وأصْحابِ اليَمينِ، والثّالِثُ المُجادَلَةُ لِدَفْعِ شُبْهَةِ الضّالّينَ مِنْ أصْحابِ الشِّمالِ المُكَذِّبينَ بِيَوْمِ الدِّينِ»[٢٣]!!

هذا وقد نهى الله عزَّ وجلَّ عن الاستعانة بالباطل قولا وفعلا وإن كان يُعِين على نصرة الحق وإظهاره وغلبته بأي وجه من الوجوه، فالباطل باطل في ذاته ولا يجتمع مع الحق بوُصْلة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ....﴾[٢٤] والمأمور به في الدعوة والتبليغ اتباع صريح الحق، والله الذي يُخْشَى ولاَ يُخْشَى غيرُه هو المعين والكافي والحسيب في هذا الصراط: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أحَداً إلاَّ الله وَكَفَى بِالله حَسِيباً﴾[٢٥].

وأما الأسانيد والوسائل التي يستند إليها الداعي في محاورته مع مختلف طبقات المدعوين بالأساليب السالفة الذكر (الحكمة والموعظة والمجادلة) فهي ثلاثة: العلم والهدى والكتاب المنير، وحذَّر الحق تعالى عن المجادلة بغيرها كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[٢٦]، والمراد بالعلم ما هو مكتسب من حجة عقلية، وبالهدى ما تفيضه الهداية الإلهية لمن أخلص لله في عبادته وعبوديته بالوحي أو الإلهام، وبالكتاب المنير الوحي عن طريق النبوة والرسالة السماوية، أو بمعنى آخر أن المراد بالعلم ما يعطيه الدليل العقلي والفكري من انكشاف الحقائق للقلب وبالهدى ما يتبين بالكشف والشهود والتجلي وبالكتاب المنير الوحي السماوي المظهر للحق.

روي في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام: «وَمَنْ خاصَمَ الخَلْقَ في غَيْرِ ما يُؤمَرُ بِهِ فَقَدْ نازَعَ الخالِقِيَّةَ والرُّبوبِيَّةَ»[٢٧]!!

ثم اجعل أيها السالك هذا الميزان نصب عينيك بأن الله تعالى يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴿.... وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَالله بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[٢٨].

الطريق الثاني: الجهاد في سبيل الحق ومحاربة أعدائه

وهو الجانب العملي للدفاع عن الحق، والمؤمن المحب لله المطيع لأمره ونهيه يسلك حيثما يفتح الله له الأبواب بنوره ويهديه إلى مستقر رحمته ويدلّه على دار كرامته، لأنه هو الخير والخير كله بيده وهو الغني ولا غني سواه ويريد أن يقرّب عبده إليه درجة بعد درجة ومنزلا بعد منزل حتى يدخله في عباده

المقربين ويسكنه دار أوليائه المخلَصين.

ومن الأبواب التي فتحها الله تعالى لتقريب عباده إليه الجهاد بالأموال وبذل الأنفس في سبيله والدخول في مسلك المدافعين عن دينه وتحمُّل الأذى في جنبه، فأمَرَهم أن لا يسلكوا طريقا إلا ما كانت فيه المنفعة والربح الأكيد، بل دلَّهم وأرشدهم على الطريقة المثلى وهي المعاملة الرابية والتجارة المنجية من العذاب الأليم وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾[٢٩].

فمن وسائل الدفاع عن المحبوب الحقيقي التضحية بكل ما كان حبه مجازيا من أموال وأنفس، والتاجر الحقيقي من تاجَر مع الحق سبحانه وباع نفسه الفانية بالوجود الباقي وضَمِن في تجارته الربح الأبدي والمَغْنَم المؤكد والخير اللامتناهي، وأما من تاجَر مع من سواه فما ربحت تجارته، وإن كانت ذات عائد فهو زائل وداثر والزيادة فيها وَهْم عابر.

ثم يقول الغني عن العالمين آمرا عباده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ....﴾[٣٠]، ويقول تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ....﴾[٣١]، والمحبون لله لا يستمتعون بلذة إلا بما ترشَّح لهم من حب الله وما وجدوه في نفوسهم من الأنس بالله، ولا غاية لهم إلا الاتصال بالمحبوب والفناء فيه، فلا يحبون شيئا إلا ما أحب الله ولا يريدون إلا ما أراد الله، ويسلِّمون أمرهم إلى مولاهم الحق ويلبُّون دعوته كيفما شاء، ولا يخافون في ذلك لومة لائم ﴿.... يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾[٣٢]، ولا يلقون بالمودة والمحبة إلى أعداء الله، ويرون أن الأموال والأنفس وكل ما عندهم عارية أعارها الله تعالى لهم وأمانة لا يملكونها ومأمورون بردِّها على أحسن وجه إلى صاحبها، وأيقنوا أن الدنيا غايتها الفناء وكل من فيها مرتحل عنها، وكما قيل «العبدُ وما يملكُه لسيِّدِه»، فيقدِّمون جزيل الأموال رخيصة في سبيله ويتْلِفون نفائس الأرواح في ساحته إخلاصا لكرم وجهه وحبا لنصرته وتلبية لدعوته وثباتا على إعلاء كلمته وسعيا في مرضاته وابتغاء لجوار قربه.

هذا من ناحية العبد وما أُمِر به من الجهاد والنضال والدفاع عن الحق، وأما من ناحية الرب العزيز تبارك وتعالى فإنه وعَدَ عبده وعْداً جميلاً صادقاً وقضى له قضاءً حتميًّا سابقاً بالتأييد والنصرة والفتح والغلبة، فقال له مبتدئا: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا....﴾[٣٣] تقوية لقلبه وتسكينا له، ثم قال عزَّ اسمه: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٣٤]، أي لا ريب أن الغلبة محققة لأن الدفاع عن الحق حق والحق غالب أبدا غير مغلوب، بل جعل على نفسه حقا لهم بنصرهم والانتقام لهم وقال: ﴿....

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣٥]، إنه نِعْم المولى ونِعْم النصير!!

والمحب المجاهد في الله مآل أَمره أنه ينال إحدى الحسنيين ويكرَّم بإحدى السعادتين، والله جلَّ شأنه يقول: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٣٦]، فإما أن تكون الغلبة على عدو الله والظفر به والتمكُّن منه وحصول عظيم الأجر والثواب، أو العاقبة الحسنى بالقتل والاستشهاد في سبيل الله والانتقال إلى رحمته الواسعة والحياة عنده مع الرزق الطيب والنعيم المقيم!!

وقد وعد الله سبحانه و تعالى في آياته المباركة ووعْده حق وقطْع وقوله صدق وحتْم أن ثمن بيع الأموال والأنفس هو الجنة فقال: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ....﴾[٣٧] وتبارك الذي بيده المُلك بما فيها الأموال والأنفس والجنة، وانظر كيف هي رحمة رب العالمين بأن منح عباده الوجود والأنفس والأموال وغيرها من العطايا والهبات والأرزاق والخيرات ثم عطف عليهم وجذبهم إليه واشترى مُلْكه منهم ليمنحهم الجنة بل ويبشِّرهم ببشارة عظيمة الشأن جليلة القدر تليق بساحة الربوبية المقدسة ويقول: ﴿.... فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣٨].

وخير المصاديق التي مثَّلت حقيقة الدفاع عن المحبوب وجسَّدت معاني التضحية والفداء في سبيل المعشوق هو سيد الشهداء وأبو الأحرار أبو عبدالله الحسينعليه السلام الذي أنشد بروحه الزكية أنشودة العارفين فأحرق بها قلوب المحبين العاشقين:

تَرَكْتُ الخَلْقَ طُرًّا في هَواكَ وأيْتَمْتُ العِيالَ لِكَي أراكَ

فَلَو قَطَّعْتَني في الحُبِّ إرباً لَما مالَ الفُؤادُ إلى سِواكَ

نعم هذا هو الحب الخالص والفناء الحقيقي في واجب الوجود المطلق والخير الأتم والرحمة الموصولة.

وكذلك أخوته وبنوه وصحبه الميامين أصحاب النفوس النيِّرة الذين شربوا من شراب الفناء في الذات الأحدية وتجرَّدوا عن كل العلائق الدنيوية حتى تجلَّت لهم أنوار الجمال البهيِّ وسبحات الجلال السَّنِيِّ وغلبت عليهم لذة اللقاء وحرارة الشوق واستجابوا دعوة الحق وحاربوا أعداء الله وأعداء رسوله بنفوس مطمئنة وقلوب مبصرة حتى غَدَوا سراجا للمحبين الثائرين ونبراسا للعاشقين المجاهدين على مَرِّ الدهور والسنين.

يقول المرحوم السيد جعفر الحلي (قده):

هُمْ فِتْيَةٌ قَدْ أَرْخَصُوا لِفِدائِهِ
أرْواحَ قُدْسٍ سَوْمُهُمْ خَطِيرُ
هُمْ فِتْيَةٌ خَطَبوا العُلَى بِسُيوفِهِمْ
ولها النُّفوسُ الغالِياتُ مُهورُ
فَرِحُوا وقَدْ نُعِيَتْ نُفوسُهُمْ لَهُمُ
وكأنَّ لَهُمْ ناعِي النُّفوسِ بَشيرُ
رَكَضُوا بأرْجُلِهِمْ إلى شِرْكِ الرَّدَى
وَسَعَوا وَكُلٌّ سَعْيُهُ مَشْكورُ[٣٩]

«اللَّهمَّ إنَّكَ أعْلَمْتَ سَبيلاً من سُبُلِكَ فجَعَلْتَ فيه رِضاكَ، ونَدَبْتَ إليه أوْلياءكَ وجَعَلْتَهُ أشْرَفَ سُبُلِكَ عندَكَ ثَواباً وأكْرَمَها لَدَيْكَ مَآباً وأحَبَّها إلَيْكَ مَسْلَكاً، ثُمَّ اشْتَرَيْتَ فيهِ مِنَ المُؤمِنينَ أنفُسَهُمْ بأنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقاتِلونَ في سَبيلِكَ فيَقْتُلُونَ ويُقْتَلونَ وَعْداً عَلَيْكَ حَقًّا في التَّوْراةِ والإنجيلِ والفُرْقانِ، فاجْعَلْني مِمَّنْ اشْتَرَى فيه مِنكَ نَفْسَه، ثُمَّ وَفَى ببَيْعَتِهِ الَّذي بايَعَكَ عَلَيْهِ، غَيْرَ ناكِثٍ ولا ناقضٍ عَهْداً ولا بَدَّلَ تَبْديلاً إلاَّ اسْتِنجازاً لِوَعْدِكَ واسْتيجاباً لِمَحَبَّتِكَ وتَقَرُّباً بهِ إلَيْكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، واجْعَلْهُ خاتِمَةَ عَمَلي، وارْزُقْني فيهِ لَكَ وبِكَ مِنَ الوَفاءِ مَشْهَداً تُوجِبُ لي بهِ الرِّضا وتُحِطُّ بهِ عَنِّي الخَطايا، واجْعَلْني في الأحْياءِ المَرزوقينَ بأيْدي العُداةِ العُصاةِ تحْتَ لِواءِ الحَقِّ ورايَةِ الهُدَى، ماضٍ عَلَى نُصْرَتِهِم قُدُماً غَيْرَ مُوَلٍّ دُبُراً ولا مُحْدِثٍ شَكًّا، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ»[٤٠]!!

الهوامش

(١) قسم بعض علماء الأخلاق الحب – حسب مسبباته – إلى أقسام هي كالتالي:
١– حب النفس ووجودها وبقائها، وهي أشد أنواع الحب، حيث أن حب الشيء لا يحصل إلا بسبب ملاءمته للطبع ومعرفته واتحاده بالمحب حتى يصير محبوبا، وبلا شك أن لا شيء أكثر ملاءمة للطبع ومعرفة لدى الإنسان واتحادا به من النفس، فكان حبها أشد أقسام الحب، لذا يغفل صاحبها عن حقيقة الموت بل يعتبره ألد أعدائه، ويندرج تحت هذا القسم حب الأهل والأولاد والأقرباء.
٢– حب الغير من جهة حصول لذة جسمية حيوانية، كحب المرأة والرجل وحب الأطعمة والألبسة الفاخرة وغيرها، وتُعَدُّ من أضعف مراتب الحب.
٣– حب الغير من جهة إحسانه.
٤– حب الشيء لِذاته، كحب الجمال والخضرة والماء وأمثالها.
٥– محبة الغير من جهة معنوية خفية وإن لم يتقابلا.
٦– محبة الغير من جهة الألفة كالحاصلة في الأسفار الطويلة.
٧– محبة الغير من جهة السنخية، كمحبة الطفل للطفل والشيخ للشيخ وأمثال ذلك.
٨– محبة العلة والصانع للمعلول والمصنوع والعكس، كالمحبة بين الوالد والولد والعالم والمتعلم وأعلاها مرتبة حب الحق للخلق وحب أهل المعرفة للحق سبحانه.
٩– محبة الغير من حيث المعلولية لعلة مشتركة والمصنوعية لصانع مشترك، كحب الإخوان والتلامذة بعضهم بعضا من حيث الاشتراك في الوالد أو المعلم.
وأكثر الأقسام المذكورة فطرية وطبيعية وأعلاها مرتبة محبة الله تعالى والمنسوبين إليه من الأنبياء والأوصياء والأولياء وهي المحبة الحقيقية، وهذا لا يكون إلا في مقام المقربين – المقامات العلية (الشيخ عباس القمي): ص ١٧٠

(٢) سورة المعارج: آية ٢١

(٣) سورة الحشر: آية ٩، سورة التغابن: آية ١٦

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٦٠

(٥) سورة يس: آية ١٢

(٦) إحياء علوم الدين: ج ١ ص ١٠، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٢ وجاء بلفظ «المؤمن».

(٧) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٢٥، وورد في شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد) ج ١٨ ص ٢٤٨ أنه عليه السلام قال: «لا يقولَنَّ أحدُكم اللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ مِنَ الفِتْنَةِ لأنَّه لَيْسَ أحَدٌ إلاّ وهو مشتملٌ عَلَى فِتْنَةٍ ولكنْ من اسْتعاذَ فلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلاَّتِ الفِتَنِ»!!

(٨) سورة الحديد: آية ٢٠

(٩) سورةالتغابن: آية ١٥

(١٠) سورة التكاثر: آية ١ – آية ٢

(١١) سورة المنافقون: آية ٩

(١٢) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ٤ ص ٤٢٠

(١٣) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام في صفات المتقين المعروفة بخطبة همام – شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ ص ١٣٣

(١٤) الترجمة:

من عرفك ما يفعل بالروح أم ما يفعل بالأولاد والزوجة والسكنى!!

وقد ابتليته بالجنون من منحته الدنيا والآخرة ولكن ما يفعل بهما من كان مجنونا بك!!

(١٥) سورة البقرة: آية ١٦٥

(١٦) سورة الأنفال: آية ٢٧

(١٧) مجمع البيان: مجلد ٢ ص ٥٣٥ – ص ٥٣٦ طبعة بيروت ١٣٧٩ هـ

(١٨) سورة النحل: آية ١٢٥

(١٩) سورة البقرة: آية ٤٤

(٢٠) سورة يونس: آية ٣٥

(٢١) بحار الأنوار: ج١ص٨٥، محاسن البرقي: كتاب مصابيح الظلم ص١٩٥، سفينة البحار: ج٢ ص٢١٤

(٢٢) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ١٢ ص ٣٧٣، ومن يرغب مزيدا من التوضيح حول بيان معاني الطرق الثلاثة ومواردها يرجع إلى تفسير الآية المباركة في «الميزان في تفسير القرآن».

(٢٣) الأسفار الأربعة: المجلد ٧ ص ٨٦

(٢٤) سورة البقرة: آية ٤٢

(٢٥) سورة الأحزاب: آية ٣٩

(٢٦) سورة الحج: آية ٨، سورة لقمان: آية ٢٠

(٢٧) كنز الدقائق وبحر الغرائب (للشيخ محمد القمي المشهدي): المجلد ٩ ص ٥٠ ط ١

(٢٨) سورة آل عمران: آية ٢٠

(٢٩) سورة الصف: آية ١٠ – آية ١٢

(٣٠) سورة الصف: آية ١٤

(٣١) سورة الحج: آية ٧٨

(٣٢) سورة المائدة: آية ٥٤

(٣٣) سورة الحج: آية ٣٨

(٣٤) سورة الصافات: آية ١٧٣

(٣٥) سورة الروم: آية ٤٧
(٣٦) سورة آل عمران: آية ١٥٧
(٣٧) سورة التوبة: آية ١١١
(٣٨) سورة التوبة: آية ١١١
(٣٩) معالي السبطين: ج ١ ص ٢٠٧
(٤٠) من دعوات أمير المؤمنينعليه السلام عند القتال – بحار الأنوار: ج ٩٨ ص ١٢٦

المنزل (٣٠)

المراقَبَةُ عِنْدَ المُحِب

اعلـم أيهـا السـالك أن المراقبة شرط من الـشروط الحتمية ولازمة من اللوازم المؤكدة للسـلوك إلى الله تعالى، بل أهمها وأعظمها، وقد أكَّد مراشـدنا الأجلاء ومشـايخنا العظماء على الالتزام بها والمحافظة عليها وعدم تركها والاستخفاف بها.

وقد كان سـيدنا الأسـتاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه حريصا على لزوم المراقبة، حتى أنه حينما حضره الوفاة سـأله أحد تلامذته أن يوصيه بوصية فقال: «المراقبـة المراقبـة المراقبـة»!! وإن دل قوله هذا على شيء فإنما يدل على جليل مرتبة المراقبة وعظيم خطرها.

وطوِيَّتـه، والنظـر في أعماله مـن حيث صلاحها وخلوصهـا لله تعالى، وحفظها حـق محافظتها عن كل ما يفسـدها من شرك ورياء، والحذر من النفس والشيطان، والعلم بأنهما عدوَّان له، وأنهما يتحيَّنان الفُرَص حتى يجرَّانه إلى مواطن الغفلة ومواقع المخالفة، ويدعوانه إلى المزيد من التعلق في حاضر الدنيا والاسترسـال في لذات العيـش بلا حدود والغفلة عن الغد الموعود، والعلـم بأن الله تعالى رقيب عليه شاهد له في الليل والنهار والسر والعلانية، وأن أسرار القلوب لديه مكشوفة وخفايا الصدور معلومة، فعليه إخطار هذه الأمور على باله لكيلا يتجاوز حدود ما شرعه الله تعالى فيُقْدِم على ارتكاب سـيئة أو يقع في مخالـفــة، ولكيـلا يشـغلـه شـاغـل أو يعيقـه عائـق في طريق سلـوكـه إلى الله تعالى.

ومصائد الشيطان لا تكون إلا حيث يكون الإهمال في طاعة الله والغفلة عن ذكره والاستهانة بأمره، ومع المراقبة ودوامها واللجوء إلى الله تعالى بكمال العبودية له يقدر السـالك أن يعرف سـبل الشـيطان وحبائل وسـوسـته فيجتنبها ومشـتهيات النفس ونوازعها فيقمعها، فالنفس إذا أُرسِـلَت اسْتَرْسَلَت وإذا قُيِّدَت تقيَّدَت، والشيطان إذا انكشفت حيله ومكامنه كان كيده واهِناً ضعيفاً، فاحرس قلبك من

أهواء النفس ووساوس الشيطان، ولا تجعل لهما على قلبك سلطانا وسبيلا، وقِف منهما موقفا حذرا حازما، واحفظ وقتك واحذر أن تضيِّع شيئا منها دون ذكر الله تعالى ومراقبته بلسانك وقلبك.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ....﴾[1]، فلله عزَّ وجلَّ الأمر جميعا، وهو المهيمن والمحيط والسلطان على كل نفس، والحافظ لكل ما عملَت من خير وشر وآثارها، ومن دقيقٍ وجليلٍ وتبعاتها، في صحائف حسناتها وسيئاتها، جازيا لها بأحسن الثواب والنعمة أو أشد العذاب والنقمة، فهل بعد ذلك يأمن العبد أن يترك نفسه هائمة ضالة بلا محاسبة ولا مراقبة!!

ويقول العزيز الحكيم في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *﴾[2]!!

والآيتان الكريمتان تندبان عباد الله المؤمنين بلزوم المراقبة والمحاسبة وذكر الله تعالى في الحياة الدنيا والحرص على إدامتها واستمرارها وعدم مفارقتها والغفلة عنها استعدادا للقاء الله تعالى، فبحسبها تكون للعاقبة مرتبتان لا تستويان، إما الفوز في الدنيا والآخرة والدخول في أصحاب الجنة، أو الخسران في الدنيا والآخرة والدخول في أصحاب النار.

والأمر بالمراقبة هنا للنفس أن تنظر إلى صالح عملها اليوم في دار الدنيا والتي هي زادها وذخيرتها لغد في دار الآخرة، وأن تجعل الله تعالى غاية حركتها ونهاية مقصدها بدوام ذكره والتشديد في مراقبته، والسير في الحياة سيرا معتدلا لا منحرفا، فلا ينسى العبد ربه طرفة عين أبدا فينسى نفسه ويفقد صوابه ويضل طريقه ومن بعده يسقط في وادي البوار ومستنقع الهلاك الأبدي.

در مقامی که کنی قصد گناه
گر کند کودکی از دور نگاه
شرمت آید، ز گنه در گذری
پرده عصمت خود را ندری
شرم بادت که خداوند جهان
کو بوَد واقف اسرار نهان
نظرش در تو بود بیگه وگاه
تو کنی در نظرش قصد گناه[3]

وعن إسحق بن عمار قال قال الصادق عليه السلام: «يا إِسْحق خِفِ اللهَ كأنَّكَ تَرَاهُ وإِنْ كُنتَ لا تَرَاهُ فَإنَّهُ يَراكَ فَإنْ كُنتَ تَرَى أنَّهُ لا يَراكَ فَقَدْ كَفَرْتَ وإِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أنَّهُ

يَـراكَ ثـُمَّ بَرَزْتَ لَـهُ بالـمَـعْـصِـيَـةِ فَـقَـدْ جَـعَـلْـتَـهُ مِـنْ أَهْـوَنِ الـنـاظِـرِيـنَ عَـلَـيْـكَ»[٤]!!
والقلـب – كـما يقول أرباب البصائر من مشـايخ العرفـان – ميزان العارفـين في الدنيا وهو أرجح الموازيـن، وجنتهـم إقبـال قلوبهم على الحـق ونارهم إدبار قلوبهـم عن الحق، والمراقبـة فعل من أفعال القلـب، وتعنـي مراعـاة القلـب للرقيـب والاشـتغال بـه ودوام ملاحظة جنـاب الحق تعـالى بالقلب والحضـور العبـودي مـع الحـق في أمره ونهيـه، وبحضور القلـب تنقاد سـائر الجـوارح والأعضاء إلى الحضور.

وقيل أيضا أن المراقبة علم العبد باطلاع الرب عليه واستدامة العبد لهذا العلم هو مراقبة الحق.

وتتفاوت مراتب المراقبة شـدةً وضعفاً بتفاوت درجات السـالكين إلى الله ومقاماتهم، ولهذا يقسِّـم العرفاء مراتب المراقبة إلى ثلاث مراتب رئيسية هي كالتالي:

المرتبة الأولى: مراقبة العبد للحق

وهـي مراقبـة المريديـن للحق تبـارك وتعاليمراقبة دائمة صادقـة غير مقطوعة بالغفلـة ولا مبتورة بالنسـيان، وذلـك بملاحظة ما يصدر منهم مـن أقوال وأفعال، والحذر مـن الله تعالى في كل الحركات والسكنات، وما يطالبهم به بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، ولزوم طاعته وموافقته وأداء كل ما أوجبه عليهم، واجتناب معصيته ومخالفته وما حرَّمه عليهم، ووضع كل شيء موضعه الذي وضعه الله فيه، ومن ثم السـعي لجلب رضا المحبوب سـبحانه بفعل المستحبات وترك المكروهات، والتمكُّن من ذلك إلى أن تصبح مَلَكة راسـخة في ذواتهم لا يعقبها ضعف ولا فتور، والعلم بأن الله تعالى مطَّلع عـلى السرائـر كاطلاعه عـلى الظواهر، عالم بالخفيات كعلمـه بالمعلَنات، وقد حـذَّر الله تعالى عباده عن التهـاون في هـذا الأمـر والغفلة عنـه وقـال: ﴿.... وَاعْـلَـمُـــوا أَنَّ اللهَ يَعْـلَـمُ مَـا فِـي أَنـفُـسِـــكُـمْ فَـاحْـذَرُوهُ....﴾[٥]، وقـال تـعـالى: ﴿.... وَإِن تُـبْـدُوا مَـا فِي أَنفُسِـكُـمْ أَوْ تُـخْـفُـوهُ يُحَـاسِـبْـكُـمْ بِـهِ اللهُ....﴾[٦].

وقال الله عزَّ وجلَّ في قدسي الحديث: «لَقَدْ حَقَّتْ كَرامَتي (مَوَدَّتي) لِمَنْ يُراقِبُني»[٧] وقال جلَّ جلاله أيضا: «بُؤْسـاً لِمَنْ عَصاني ولَمْ يُراقِبْني (واجْـتَـرَأ عَلَيَّ)»[٨]!!

وفي خطبـة لأمـير المؤمنين عليه السلام قال فيها: «رَحِـمَ اللهُ امْـرِءاً راقَـبَ رَبَّـهُ وتَـنَـكَّـبَ ذَنـبَـهُ وكابَـرَ هَـواهُ وكَـذَّبَ مُـنـاهُ.... رافِـعـاً إِلَى المَـعـادِ طَـرْفـهُ مُـتَـوَقـعـاً في كُـلِّ أوانٍ حَـتْـفُـهُ»[٩]!!

قال مالك بن دينار: دخلت جبانة البصرة فإذا أنا بسعدون المجنون فقلت له: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من أصبح وأمسى يريد سفرا بعيدا بلا أهبة وتقدَّم على رب عدل حاكم بين العباد!! ثم بكى

بكاء شديدا، قلت: ما يبكيك؟! قال: أبكاني قلة الزاد وبُعد المسافة والعقبة الكؤود، فقلت: إن الناس يزعمون أنك مجنون، فقال: وأنت اغتررت بقولهم!! ما لي جُنَّة ولكن حب مولاي قد خالط قلبي وجرى بين لحمي ودمي، فأنا من حبِّه هائم، ثم قال: يا مالك كُنْ من الناس خائبا وارْضَ بالله صاحبا، قلِّب الناس كيف شئت تراهم عقاربا!![١٠]

وفيما كتبه العارف الكامل ملا حسينقلي الهمداني (قده)[١١] في بعض رسائله ووصاياه:

«فافْهَمْ مِمَّا ذكَرْتُ إنَّ طلبَكَ المحبَّةِ الإلهيَّةِ مع كونكَ مُرْتَكِباً للمعصيةِ أمْرٌ فاسِدٌ جدًّا، وكيفَ يَخْفَى عليكَ كونُ المعصيَةِ سبباً للنَّفْرَةِ وكونُ النَّفْرَةِ مانِعَةَ الجَمْعِ مَعَهُ المَحَبَّةُ!! وإذا تحقَّقَ عندَكَ أنَّ تَرْكَ المعصيَةِ أوَّلُ الدِّينِ وآخِرُهُ وظاهِرُهُ وباطِنُهُ فبادِرْ إلَى المجاهَدَةِ واشْتَغِلْ بتمامِ الجِدِّ إلَى المراقَبَةِ مِنْ أوَّلِ قيامِكَ مِنْ نومِكَ في جميعِ آناتِكَ، والْزَمِ الأدَبَ في مُقَدَّسِ حَضْرَتِهِ، واعْلَمْ أنَّكَ بجميعِ أجْزاءِ وجودِكَ ذَرَّةً ذَرَّةً أسيرُ قُدْرَتِهِ، وراعِ حُرْمَةَ شريفِ حُضورِهِ، واعْبُدْهُ كأنَّكَ تراهُ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تراهُ فإنَّهُ يَراكَ، والْتَفِتْ دائِماً إلَى عَظَمَتِهِ وحَقارَتِكَ ورِفْعَتِهِ ودَناءتِكَ وعِزَّتِهِ وذِلَّتِكَ وغِناهُ وحاجَتِكَ، ولا تَغْفُلْ شَناعَةَ غَفْلَتِكَ عنْهُ جَلَّ جَلالُهُ مَعَ التِفَاتِهِ إليكَ دائِماً، وقُمْ بينَ يَدَيْهِ مَقامَ العبْدِ الذَّليلِ الضعيفِ، وتَبَصْبَصْ تحْتَ قَدَمَيْهِ بَصْبَصَةَ الكَلْبِ النحيفِ، أوَلا يَكْفيكَ شرَفاً وفَخْراً أنَّهُ أذِنَ لَكَ في ذِكْرِ اسْمِهِ العَظيم بلِسانِكَ الكَثيفِ الَّذي نَجَّسَتْهُ قاذوراتِ المَعاصِي»!!

ثم يقول (قده): «إنْ لَمْ تَكُنْ قَدْ طَهَّرْتَ جَوارِحَكَ مِنَ المَعاصِي بَعْدُ، فَكَيْفَ تَأْمَلُ أنْ أشْرَحَ لَكَ أحْوالَ القَلْبِ!! فَالبِدارَ البِدارَ إلَى التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ ثُمَّ العَجَلَ العَجَلَ في الجِدِّ والمُراقَبَةِ»!!

والمراقبة زينة القلوب وحُلية الأرواح، والسالكون المحبون لله تعالى يجعلون قلوبهم أبدا في المراقبة، فيراقبون في نفوسهم الفقر والحاجة وفي ربهم الغنى والقدرة، فيحتقرون نفوسهم ويلحقونها بالعبودية ويذللونها في ساحة عظمة الحق وجلاله وجناب كبرياء المولى وبهائه، ويتفقَّدون آثار ربهم في قلوبهم، ويعلمون شئونه في أنفسهم، ويراقبون مقامه عندهم، وينظرون إلى كل المخلوقات بما فيها نفوسهم متلاشية في نور عظمته فانية في لمعات جماله، فتتجافى قلوبهم عن مضاجع الدنيا وغرورها حين ينام غيرهم في غفلاتها، ويصحبون الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى، ويؤثرون الحق على كل مصحوب سواه، ويشتغلون به عما عداه، ولا يطلبون غيره، ولا يقصدون إلا وجهه، ويجعلون قلوبهم وهي حرم الله تحت حراسة مشددة ورقابة صارمة حتى لا يدخلها غيره وتصير قلوبهم عاكفة في

حضرته مستورة في كنفه منعَّمة بشهوده مبتهجة بحسنه وجماله.

ونعم ما قيل في هذا المقام:

عَـجَــبٌ لِـلْـمُـحِـبِّ كَـيْــفَ يَـنـام
كُــلُّ نَــوْم عَـلَـى الـمُـحِـبِّ حَـــرام

والنوم هنا بمعنى الغفلة عن الحق وإغماض عين القلب عن مراقبته وشهوده [١٢].

وقد يكون الشهود شهودا قلبيا كما هو حاصل للمحب العارف الواصل الذي يكون حاضر القلب مع ربه متوجها بالكلية إليه فيغيب عن شهود نفسه ويكون فانيا في الله وبالمعرفة يشاهد الحق في محراب قلبه فيعبده عن رؤية ويراقبه عن مشاهدة [١٣]، أو شهودا خياليا –وهو في المرتبة دون الأول – كما هو الحال للمحب الذي لا يرى ربه بعين البصيرة ولكن يستحضره ويتخيله في قبلته على قدر معرفته به اتباعا لقول الرسول الأكرمﷺ: «اعْبُـدِ اللهَ كَأنــَّكَ تـَرَاهُ»[١٤] أي يحاول الحضور بالقلب في العبادة ويجعل الله تعالى في حضرة الخيال والمثال رأْي عينيه حتى لكأنَّه يراه بقوة بصره على نحوٍ ما، متمثلا في قبلته من غير تشبيه ولا تقييد، بل بما يليق بساحته من الوسع والإحاطة، فيراقبه ويلزم الأدب معه.

وقد كان سيدنا الأستاذ رضي الله عنه يردد على مسامعنا هذه العبارة من الحديث المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «كُلُّ يَـوْمٍ لا يُعْـصَى اللهُ تعالَى فيه فَهُـوَ يَـوْمُ عـيـدٍ»[١٥]، وعليه أن يشكر ربه على هذه النعمة.

والمراقبة لله تعالى هي نتيجة الحياء منه، ونتيجة المراقبة الأدب مع الحق في الظاهر والباطن والقول والفعل والحركة والسكون على أن تكون المراقبة حقيقة ثابتة في القلب.

ولا يخفى علينا في هذا المقام ذكر ما قاله مولى الموحدين ومقتدَى العارفين علي بن أبي طالب عليه السلام في معاملته مع الحق وقد شهد إحاطة الباري عزَّ وجلَّ بكل شيء: «ما رَأيْتُ شَـيْـئاً إلاَّ ورَأيْتُ اللهَ مَعَـهُ وقَـبْـلَـهُ وبَـعْـدَهُ»[١٦]!!

المرتبة الثانية: مراقبة مراقبة الحق

وهي مقابلة المراقبة بالمراقبة، أي مراقبة العبد لرؤية الله وهي تراقبه، وفيها – أي في هذه المرتبة من المراقبة – يكون العبد غائبا عن نفسه، فانٍ فعله وإرادته في فعل الله تعالى وإرادته، وهذه المراقبة هي مراقبة الحياء والمهابة من عالِم الغيب والشهادة، وكيف لا يستحيي العبد من سيده ومولاه ويتعدى حدود الأدب معه ويجرأ عليه وهو يعلم أنه يراه!! قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾[١٧]!!

قال بعض العرفاء: «المراقبةُ أنْ يصيرَ الغالِبُ عَلَى العَبْدِ ذِكْرَه بقَلْبِهِ ويَعْلَمَ أنَّ اللهَ

تعالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ فيَرْجَعَ إلَيْهِ في كُلِّ حالٍ ويَخافَ سَطَواتِ عُقوبَتِهِ في كُلِّ نَفَسٍ ومَهابَتَهِ في كُلِّ وَقْتٍ».

وحقائق الأعمال غير مستورة عن الله سبحانه بل مشهودة ومراقَبة وكفي بالله شهيدا ورقيبا، ثم شهادة الملائكة المطَّلعين على أعمال العباد: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ *﴾[١٨] وشهادة رسول الله ﷺ والمعصومين وكذلك أولياء الله الصالحين، والله من وراء هؤلاء محيط، فالعارف بالله المقبل بكلّه على الله والمتوجه أبدا إلى الله يعلم أن هناك مراصد كثيرة ترصد أعماله وأقواله وحركاته وسكناته في كل حال وحين، ويشعر بإحاطة الخالق جلَّ وعلا ومعاينته له، فيسعى لجلب مرضاته وبلوغ ثوابه، وذلك بصدق النية ودوام العمل الصالح، وأما الجاهل المحجوب عن الله بحجب المعاصي والذنوب فهو غافل عن مقام ربه مستهين بحكمه سبحانه وهو الرقيب عليه والناظر إليه أينما كان وكيفما كان.

وهذا سيد الشهداء وإمام العرفاء الحسين بن علي عليه السلام وهو يناجي ربه ويقول: «عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَـرَاكَ عَلَيْها رَقِيباً»[١٩]!! فمن لم يغْشَ عين قلبه العمى رأى شهود ربه عليه ومراقبته له فلا يكتب في الغافلين المبعدين الضالين، وقد قال العزيز سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٢٠]، والمقصود من العمى هو عمى القلب والبصيرة لا عمى البصر حيث يقول سبحانه: ﴿....فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢١] وشر العمى عمى القلب!!

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿.... وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾[٢٢]، فالاعتقاد بأن لهذا العالم إلها واحدا عالما محيطا بكل شيء قادرا على كل شيء رقيبا حسيبا لا تأخذه سِنَةَ ولا نوم ولا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه أمر وأن عالم الوجود كله محضر الله تعالى وأن الإحاطة الإلهية التامة واقعة على كل شيء شهودا وعلما كما أشار تعالى في قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢٣] وكون هذا الاعتقاد حقيقة ثابتة متوغِّلة في القلب ويقين قطعي لا تردد فيه لا يُبقي للعبد إلاَ أن يراقب مراقبة الله له في جميع أعماله ونيَّاته أشد المراقبة.

وعن مولانا الإمام الصادق عليه السلام قال: «كانَ رَسولُ الله ﷺ إذا قَرَأَ هذِهِ الآيَةَ بَكَى بُكاءً شَدِيداً»[٢٤]، وهذا حال رسول الله ﷺ المعصوم من الزلل والخطأ والمغفور له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر وخوفه من علم الله تعالى وشهوده له، فكيف بنا وقد اسوَدَّت كتب أعمالنا من الخطايا والسيئات،

والله تعالى وملائكته وأنبياؤه ورسله ناظرون إلينا مطَّلعون على أعمالنا، وليس ذلك فحسب، بل ثبتت كلها في اللوح المحفوظ عن الخطأ والاشتباه، ومن ثم نـُحاسَب عليها حسابا دقيقا عادلا!!

نسأل الله تعالى ونقول: «يا مَنْ سَعِدَ بِرَحْمَتِهِ القاصِدون ولَمْ يشْقَ بنقمتِه المُسْتَغْفِرون كيفَ أنساكَ ولَمْ تَزَلْ ذاكِري وكَيْفَ أَلْهُو عَنكَ وأنتَ مُراقِبي، إلهي بذيْلِ كَرَمِكَ أعْلَقْتُ يَدي ولِنَيْلِ عَطاياك بَسَطْتُ أمَلي فأخْلِصْني بخالِصَةِ تَوْحِيدِكِ واجْعَلْني مِنْ صَفْوَةِ عَبيدِكَ»[٢٥]!!

يقال أن عارفا تاب بعد ذنب وكان بعد ذلك يبكي كثيرا، قيل له: لم هذا البكاء؟! ألا تعلم أن الله غفور؟! قال: بلى، قد يعفو سبحانه، ولكن كيف أبعُدُ عن نفسي الإحساس بالخجل وقد رآني أذنب!!

گيرم كه تو از سر گنه در گذرى
زان شرم كه ديدى كه چه كردم چه كنم[٢٦]

ويقول العارف الصمداني الشيخ محمد بهاري الهمداني (قده) [٢٧] في مراقبة الحق:

«أنْ لا يَغْفَلُ عَنْ حُضورِ الحَقِّ جَلَّ شأنُهُ، وهذا هُوَ السَّنامُ الأعْظَمُ والرافِعُ إلَى مَقامِ المُقَرَّبينَ، ومَنْ كانَ طالِباً لِلْمَحَبَّةِ والمَعْرِفَةِ فَلْيُمْسِكْ بهذا الحَبْلِ المَتينِ»[٢٨]!!

يُحكَى أن زليخا لما همَّت بيوسف عليه السلام وهمَّ بها قامت إلى صنم معها في البيت فألقت عليه ثوبا، فقال لها يوسف عليه السلام: ما صنعت؟! قالت: طرحت عليه ثوبا، أستحي أن يرانا!! فقال يوسف عليه السلام: فأنت تستحين من صنمك وهو لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي أنا من ربي!!

أيها السالك المحب لله، لا تكن غافلا عما تعمل فما ربك بغافل عما تعملون، وكن مراقبا لله في قلبك دائما كما هو رقيب عليك أبدا، فبالمراقبة تعلم آثار ربك فيما يورده على قلبك وفي جميع حركاتك وسكناتك.

يك چشم زدن غافل از آن ماه نباشيد
شايد كه نگاهى كند آگاه نباشيد[٢٩]

المرتبة الثالثة: ترك المراقبة

وهذه المرتبة الرفيعة لأعلى طوائف المراقبين، ولا تحصل إلا للأكابر الموحِّدين والكُمَّل من أولياء الله العارفين الذين وصلوا إلى غاية مراتب الأدب والحياء والعبودية لله سبحانه، ففنوا عن رسومهم وذواتهم، وغابوا عن هوياتهم وأسرارهم، واستُهلِكوا في الحق، ولم يبْقَ لهم اسم ولا رسم ولا أثر، ولم

يظهر لهم سوى الله تعالى، ولم يعقلوا إلا أسماء الله، وذلك بفناء أفعالهم وصفاتهم وذواتهم في أفعال وصفات وذات الله سبحانه، فرأوا أن ما في الوجود إلا الواحد، وكل مظهر في الوجود إنما يظهر عن عين واحدة، فمَنْ يراقِب مَنْ!! وهو الذي ليس كمثله شيء!! بل كيف يراقَب من تنزَّه عن الكيف والكم والزمان والمكان والخيال!! فكل ما يراقِبه العبدُ إنما هو اعتقاده بالحق سبحانه في قلبه، فما عبَدَه على الحقيقة بل عَبَد تخيُّله لأنه ما غاب فيها عن نفسه وما فنى عنها في ربه، وبقيت الاثنينية - اثنينية الحق والخلق، ووجد حسَّه وإدراكه في المراقبة، والتي هي في حد ذاتها ستر وحجاب بين العبد والحق سبحانه، وإنما يكون حقا كله عند الغيبة والفناء والاستهلاك الكلي في الحق سبحانه، وهنالك لا مكان للمراقبة، ويكون المقام ترك المراقبة.

بَيْنِي وَبَيْنَكَ إنِّيِّي يُنازِعُنِي
فَارْفَعْ بِلُطْفِكَ إنِّيِّي مِنَ البَيْنِ

يقول العارف الكبير بابا طاهر: «مَنْ وَجَدَ حِسَّهُ في المُراقَبَةِ فَالْمُراقِبُ وُكِّلَ في وَقْتِهِ إلَى نَفْسِهِ».

ويقول شارح كلماته أبو المعالي الهمداني الملقب بعين القضاة: «لَمَّا كانَتِ المُراقَبةُ رَقْبَةَ العَبْدِ ونظَرَهُ إلَى رَقْبَةِ الله، ونَظَرَه إلَيْها [٣٠] فَصِحَّتُها أنْ يَزيغَ بَصَرُ القَلْبِ عَنِ النَّظَرِ إلاَّ لِلْحَقِّ، فَلَوْ وَجَدَ الْمُراقِبُ في مُراقَبَتِهِ نَفْسَه ووَجَدَ الإدْراكُ حِسَّه فَهُوَ في حالِهِ مَوْكولٌ إلَى نَفْسِهِ مَحْجوبٌ بِها عَنْ حَالِهِ، أيْ لا يَكونُ مُراقِباً لِفُقْدانِهِ حَقيقَةَ الْمُراقَبَةِ»[٣١].

وفي مقام المراقبة آفات كثيرة أبرزها توَهُّم الاعتراض، ولهذه الآفة الخطيرة والمنافية للتوحيد والإيمان مراتب حسب مراتب المراقبة التي تقابلها مراتب الفناء، وأما بيان ذلك:

يقول العرفاء أنه «لا مُؤَثِّرَ في الوُجودِ إلاَّ اللهُ»، فلا فعل إلا بإذن الله ومشيته ولا حول ولا قوة إلا بحوله وقوته، قال تعالى: ﴿أفمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ....﴾ [٣٢]، فليس للعبد السالك في مراقبته أن يتوهَّم الاعتراض فضلا عن الاعتراض في حد ذاته على رب العالمين في فعله وإرادته وتقديراته بمخالفته قولا أو فعلا أو إرادة والذي يعتبره العرفاء كفرا سلوكيا، بل عليه أن يفنى فعله في فعل الله تعالى وتضمحل إرادته في إرادة الله تعالى.

ثم على العبد التسليم بأن لا يعترض في حكم الله تعالى وعلمه بل عليه أن يفنى علمه في علم الله، فلا يتوهَّم الاعتراض بأن يحكم الله تعالى أمرا ما ويُخَيَّل له أن حكم الله تعالى غير مصيب أو دون الكمال، وأن لو حكم الله كما يراه هو كان أفضل وأحسن حكما، فيرى بذلك علمه فوق علم الله

تعالى – والعياذ بالله.

وإذا ارتفع العبد السالك عن المرحلتين السابقتين أي بعد الفناء في فعل الله والفناء في علم الله، عليه أن لا ينظر في مراقبته إلى نفسه، ولا يلتفت إلى وجوده، ولا يتوهَّم لحظة واحدة باستقلاله، بل يكون مقبلا على الله تعالى بتمام وجوده وذاته، وهذا ما يعرف بالفناء في التوحيد [٣٣].

«إلهي هَبْ لي كَمالَ الانقِطاعِ إلَيْكَ، وأنِرْ أبْصارَ قُلوبِنا بضِياءِ نَظَرِها إلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أبْصارُ القُلوبِ حُجُبَ النورِ فَتَصِلَ إلَى مَعْدِنِ العَظَمَةِ وتَصيرَ أرْواحُنا مُعَلَّقَةً بعِزِّ قُدْسِكَ، إلهي واجْعَلْني مِمَّنْ نادَيْتَهُ فأجابَكَ ولاحَظْتَهُ فصَعِقَ لِجَلالِكَ فناجَيْتَهُ سِرًّا وعَمِلَ لَكَ جَهْراً، وأسْألُكَ أنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ وأنْ تَجْعَلَني مِمَّنْ يُديمُ ذِكْرَكَ ولا يَنْقُضُ عَهْدَكَ ولا يَغْفُلُ عَنْ شُكْرِكَ ولا يَسْتَخِفُّ بأمْرِكَ، إلهي وألْحِقْني بنورِ عِزِّكَ الأبْهَجِ فأكونَ لَكَ عارِفاً وعَنْ سِواكَ مُنْحَرِفاً ومِنكَ خائِفاً مُراقِباً يا ذا الجَلالِ والإكْرامِ»[٣٤]!!

الهوامش

(١) سورة الرعد: آية ٣٣

(٢) سورة الحشر: آية ١٨ – آية ١٩

(٣) الترجمة:

لـــو كـــنــت في مــقــام تــقــصــد فــيــه المــعــصــيــة
وطــــفــل يــنــظـــر إلــيـــك عـــن بُــعــد
لــشــعــرت بــالخــجــل واجــتــنــبــت المــعــصــيــة
كـــي لا تـــخـــدش ســـتـــار عــصــمــتــك
فــــــالأَوْلى أن تخــجــل مــــن رب الــعــالمــين
الــعـــــالـــم بـــأســـــرار الـــبـــواطـــن
حــيـــــن يــعــطــف عــلــيــك بــنــظـــرة مــنــه
وأنـــــت تــقــصــد المــعــصــيــة في ذلـــك الحـــيــن!!

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٣٥٥، أصول الكافي: ج ٢ ص ٦٧

(٥) سورة البقرة: آية ٢٣٥

(٦) سورة البقرة: آية ٢٨٤

(٧) التوحيد: ٢٦٨، ومنه بحار الأنوار: ج ٧ ص ٢٥٠

(٨) الكافي: ج ٢ ص ٦٦ ومنه بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٣٠

(٩) الكافي: ج ٨ ص ١٧٠

(١٠) مقتنيات الدرر: مجلد ١١ ص ٩٨

(١١) ذكرنا نبذة عن سيرته في المنزل (٢) – الإخلاص عند المحب – فراجع

(١٢) وكثيرا ما تُكنـّى الغفلة بالنوم، إذ كثيرا ما يقال للغافل هو نائم وللذاكر هو مستيقظ.

(١٣) كما جاء في المشهور من قول مولى الموحدين وسيد المشاهدين لرب العالمين علي بن أبي طالب: «ما كُنتُ أعْبُدُ رَبًّا لَمْ أرَهُ»!! ثم قوله معقبا: «لا تُدْرِكُهُ (لَمْ تَرَهُ) العُيونُ في مُشاهَدَةِ (بمُشاهَدَةِ) الأبْصارِ ولكِنْ رَأتْهُ القُلُوبُ بحَقائِقِ الإيمانِ» – التوحيد: ص ١٠٩، ومنه بحار الأنوار: ج ٤ ص ٤٤

(١٤) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٧٦، أمالي الطوسي: ج ٢ ص ١٣٨، نهج الفصاحة: ص ٦٥، مسند أحمد بن حنبل: ج ٢ ص ١٣٢، حلية الأولياء لأبي نعيم الإصفهاني: ج ٨ ص ٢٠٢، كنز العمال: ج ٣ ص ٢١ ح ٥٢٥٠، وكان فيما أوحى الله تعالى به نبيه موسى: «يا موسى كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أنَّهُ يُحِبُّني فإذا جَنَّهُ اللَّيْلُ نامَ عَنِّي يا ابْنَ عِمْران لو رَأيتَ الَّذينَ يُصَلُّونَ لي في الدَّياجِي وقَدْ مَثَّلْتُ نَفْسِي بَيْنَ أعْيُنِهِمْ يُخاطِبُوني وقَدْ جَلَيْتُ عَنِ الْمُشاهَدَةِ ويُكَلِّموني وقَدْ عَزَزْتُ عَنِ الحُضورِ» – بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ١٧٢

(١٥) روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في بعض الأعياد: «إنَّما هو عيدٌ لِمَنْ قَبِلَ اللهُ تعالَى صِيامَهُ وشَكَرَ قِيامَهُ وكُلُّ يَوْمٍ لا يُعْصَى اللهُ تعالَى فيه فَهُوَ يَوْمُ عيدٍ» - شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٧٣

(١٦) علم اليقين: ج ١ ص ٤٩، الأسفار الأربعة: مجلد ١ ص ١١٧

(١٧) سورة العلق: آية ١٤

(١٨) سورة الانفطار: آية ١٠ - آية ١٢

(١٩) من دعاء يوم عرفة لمولانا أبي عبدالله الحسين عليه السلام.

(٢٠) سورة الإسراء: آية ٧٢

(٢١) سورة الحج: آية ٤٦

(٢٢) سورة الأحزاب: آية ٥٢، ويقول العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية المباركة: «الرقيبُ أي الحَفيظُ والمُراقَبَةُ أي المُحافَظَةُ وكأنَّهُ مَأخوذٌ مِنَ الرَّقَبَةِ بعِنايَةِ أنَّهُمْ كانوا يَحْفَظونَ رقابَ عَبيدِهِمْ أو أنَّ الرَّقيبَ كانَ يَتَطَلَّعُ عَلَى مَنْ كانَ يَرْقُبُهُ بِرَفْعِ رَقَبَتِهِ ومَدِّ عُنُقِهِ ولَيْسَ الرَّقوبُ مُطْلَقَ الحِفْظِ بَلْ هو الحِفْظُ عَلَى أعْمالِ المَرْقوبِ مِنْ حَركاتِهِ وسَكَناتِهِ لإصْلاحِ مَوارِدِ الخَلَلِ والفَسادِ أو ضَبْطِها، فَكَأنَّهُ حَفِظَ الشيءَ مَعَ العِنايَةِ».

(٢٣) سورة يونس: آية ٦١

(٢٤) تفسير الصافي: مجلد ٢ ص ٤٠٨، مجمع البيان (للطبرسي): مجلد ٣ ص ١١٨ ط بيروت، تفسير القمي: مجلد ١ ص ٣١٣ ط قم الطبعة الثالثة، مقتنيات الدرر (مير سيد علي الحائري الطهراني): مجلد ٥ ص ٢٦٤ ط ٢ طبعة طهران.

(٢٥) من مناجاة الراجين لمولانا الإمام زين العابدين عليه السلام

(٢٦) الترجمة:

علمت أنك تغفر الذنوب وتتجاوز عنها

ولكن ما أفعل بالخجل من رؤيتك لي وأنا أرتكب الذنب!!

(٢٧) ولد الشيخ محمد بهاري عام ١٢٦٥ هـ في مدينة بهار الواقعة في همدان، والتحق في بروجرد بحلقة درس آية الله الحاج الميرزا محمود البروجردي والد آية الله العظمى الحاج السيد حسين البروجردي، وفي الثانية والثلاثين من عمره - أي عام ١٢٩٧ هـ - وبعد نيل درجة الاجتهاد توجه إلى النجف الأشرف، وهناك لزم درس الآخوند ملا حسينقلي الهمداني ملازمة دائمة حتى قال فيه أستاذه: «الحاج الشيخ محمد بهاري حكيم أصحابي»، ودامت تلك الملازمة حتى وفاة الملا حسينقلي الهمداني، وفي هذا المورد - أي شدة ارتباطه بأستاذه - نقل العلامة الطباطبائي عن أستاذه السيد علي القاضي أن أحد زملاء الشيخ وهو العارف الكامل السيد أحمد الكربلائي قال: «كنا على الدوام في خدمة المرحوم آية الحق الآخوند ملا حسينقلي الهمداني وكان الآخوند في كل وقت معنا، ولكن ما أن تعرَّف الشيخ بهاري بأستاذنا وارتبط

بـه ولازمـه حتى سرقه منا»!! وعلى هذا كان الشـيخ بهاري في خدمة الآخوند في الحضر والسـفر ما يقارب خمس عشرة سـنة، وقد جعله الآخوند وصيا له، وبعد ارتحال الآخوند عام ١٣١١ هـ سـلك الشـيخ محمد بهـاري نهـج أسـتاذه في التربيـة، وأقام في النجـف الأشرف إلى أن مـرض، فأوصاه الطبيب المعالج بالسـفر والراحة، لذا عزم الشـيخ على السـفر إلى مشهد المقدسة لزيارة الإمام الرضاعليه السلام، وبعد الزيارة قصد الرجوع إلى النجف ولكن اشتد عليه مرضه فعزم على العودة إلى مسقط رأسه، وعاد إلى مدينة بهار وأقام فيها إلى أن وافـاه الأجل، وانتقل إلى جوار ربه في التاسـع من شـهر رمضان عام ١٣٢٥ هــ، وانحصرت آثاره العلمية الباقية في مكاتباته إلى تلامذته والتي كانت تشتمل على منهج السير والسلوك إلى الله، إلى جانب ما نـُقِـل من الخواطر والذكريات والعبر عنه من الصدر إلى الصدر نقلها العرفاء وأولياء الله من جملتهم المرحوم الشـيخ جواد الأنصاري الهمداني (قده) والشيخ حسن علي الإصفهاني النخدكي (قده) وغيرهما – (تذكرة المتقين: ص٢٣ – ص٢٦)

(٢٨) تذكرة المتقين: ص ٥٤

(٢٩) الترجمة:

لا تـغـفـلـوا عــن ذلــك الـقـمـر طـرفـة عين
فـقـد يـعـطـف عـلـيـكـم بـنـظـرة وأنــتـم غـافـلـون

(٣٠) أي نظره إلى مراقبته لرقْبة الله

(٣١) كلمات بابا طاهر: ص ١٣٢

(٣٢) سورة الرعد: آية ٣٣

(٣٣) راجع مراتب الفناء في المنزل (٢٥) – فناء المحب

يقـول الخواجـه عبدالله الأنصـاري في «منازل السـائرين»: «ومُراقَـبَةُ نـَظَـرِ الحَقِّ إلَيْكَ برَفْـضِ الْمُعارَضَةِ وبالإعْـراضِ عَـنِ الاعْـتِـراضِ ونـَقْـضِ رُعـونـَةِ الـتَّـعَـرُّضِ»، ثم يقول العـارف الكامل عبدالرزاق الكاشـاني في شرح العبارة: مراقبة نظر الحق إليك فوق مراقبة الحق في السـير إليه، فإن الأولى دوام حضور القلـب معـه وملاحظتـه له وهذه دوام شـهود نظر الحـق إليك وهو أن تشـهد أنه رقيبك وشـاهدك فـلا تسـتطيع أن تـعـارض فعـلـه بفعـلـك ولا إرادتـه بإرادتـك فتـترك فعلـك وإرادتـك فانيـين في فعلـه وإرادتـه فـلا تفعـل ولا تريد إلا مـا أراد ولا يمكنـك مخالفته بقولك وفعلـك وإرادتك، وأمـا الإعـراض عـن الاعـتـراض فهـو أن لا تعتـرض عليـه في حـكمـه وعـلـمـه وتسـلِّم لحكمه وتـترك علمك يفنى في علمـه ولا يخطـر ببالـك أن لو فعل كذا لكان أولى وأحسـن ولـو غفر الكل لـكان أولى بكرمه لأنه تحكَّم عليه وظهور بصفة العلم ودعوى أن علمك فوق علمه أعاذنا الله من ذلك، وأما الـرعـونـة فهي الـنظـر في المـراقبـة إلى نفسـك ووجـودك فيجب نقضـه فضـلا عـما يتبعـه من الخواطـر والصفات التابعة للوجود فإنـه تعـرُّض له بوجـودك فيجـب نـقـض تـلـك الـرعـونـة والنظر إلى نفسـك عنك فإن هذا التعـرض يوجب أن يحجبك الله عن شـهودك لأن شـهود الحق مع بقـاء العبد محال فإن أحسست في شهودك بشيء

من نفسـك أو من غيرك فقد بطل شـهود الحق بالحقيقة فلا يصح هذا الشـهود إلا بغيبتك عنك حتى تتهيأ للفناء.

(٣٤) من مناجاة أمير المؤمنينعليه السلام المعروفة بالمناجاة الشعبانية.

المنزل (٣١)

الوَفاءُ عِنْدَ المحب

يا مُدَّعِي الحُبَّ قُمْ إنْ كُنتَ تَهْوانا
وَانْهَضْ إلَيْنا فَهَذا الوَقْتُ قَدْ آنا
كَمْ ذي رُقادٍ ألَمْ يَعْلَمْ بِأنَّ لَنا
فِي آخِرِ اللَّيْلِ قَبْلَ الفَجْرِ إحْسانا
وَاهْجُرْ كَراكَ[١] وخَلِّ الفَرْشَ عاطِلَةً
وَانْهَضْ إلَيْنا وَلاَ تُنْسِيءْ[٢] فَتَنْسانا
نَحْنُ الَّذي نَتَجَلَّى في الظَّلامِ كَما نَشاءُ
فَاسْمَعْ وَكُنْ لِلذِّكْرِ يَقْظانا
لاَ يَشْغَلَنَّكَ عَنَّا غَيْرَنا فَلَنَا
حُسْنُ الوَفاءِ لِمَنْ وافَى وَوَافانا[٣]
طُوبَى لِمَنْ قامَ قَبْلَ الفَجْرِ مُجْتَهِداً
وَيَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبيحاً وقُرْآنا

الوفاء صفة للحق تبارك وتعالى والوفيُّ اسم من أسمائه الحسنى، ولا أحد أكثر وفاء من الله كما قال تعالى عن نفسه: ﴿.... وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ....﴾[٤] فإنه إنْ وَعَد لا يخلف الميعاد، وأكمل ما يكون عليه العبد فِي اتصافه بصفات الحق والتخلق بأسمائه، فكان الوفاء علامة أهل الدين وشيمة خاصة أولياء الله الصالحين وزينة خِيَرة عباده الصادقين.

والوفـاء صفـة محمـودة وخُلُـق شريـف ضـده الغـدر والخيانة والجفـاء وهو تـرك الوفـاء ونقض العهد[٥].

قال رسـول الله ﷺ: «الإسْـلامُ عُـرْيانٌ فَلِباسُـهُ الحَياءُ وزينتـهُ الوَفاءُ»[٦] أي الوفاء بعهود الله تعالى ورسوله ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام وعهود الناس ما لم تكن في عدوان ومعصية، وقيل أن الوفاء إيفاء كل ذي حـق حقه تاما وافيا بـرًّا كان أو فاجراً، فلا يسـتعمل فيه غـرض النفس والطبع والهوى أيـًّا ما كان، متأسِّـيا في ذلك بالله سبحانه ﴿.... الَّـذِي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَـهُ....﴾[٧]، فالرب المفيض لكل شيء أعطى كل شيء غاية كماله ولم ينقصه شـيئا والعبد الوفيُّ من عرف الحقوق وأهلها فأوفاها، ومن لم يوفِّها كان من الخائنين.

وقـد أشـارت إلى هـذه الصفـة الحميـدة والمحبوبة عنـد الله تعالى آيات كثـيرة من كتـاب الله المبين منهـا قولـه عزَّ وجـلَّ: ﴿بَلَى مَــنْ أوْفَى بـعَهْـدِهِ وَاتـَّقَـى فَإنَّ اللهَ يُحِـبُّ المُتـَّقِـينَ﴾[٨] وقوله عـزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِيـنَ يُوفُـونَ بـعَهْـدِ الله وَلاَ يَنقُضُـونَ المِيْثـَاقَ﴾[٩] وقوله عزَّ وجـلَّ: ﴿....والمُوفُـونَ بـعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا....﴾[١٠]، وكذلك أشـارت إلى النهي عن خيانة الله ورسوله والأمانات عامة بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـا أيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنـُوا لاَ تـَـخُونـُوا اللهَ وَالرَّسُـولَ وَتـَـخُونـُوا أمَانـَاتِكُمْ وَأنتـُمْ تـَعْلَمُونَ﴾[١١] وقوله عـزَّ وجـلَّ: ﴿....إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِـينَ﴾[١٢] فالخيانة جناية عظيمة وصاحبها في غاية الظلم لنفسـه والجهل بقدرها بعد قبول الأمانة وحملها: ﴿....إنـَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[١٣].

والصدق ينبوع الوفاء، والوفيُّ لا يكون وفيًّا إلا إذا كان صادقا في أقواله وأفعاله وأحواله، قال أمير الصادقـين علي بن أبي طالـب عليه السلام: «الوفـاءُ تـَوْأمُ الـصِّـدْقِ وَلا أعْـلَـمُ جُـنـَّــةً أوْقـَى مِـنـْهـا»[١٤]، وقـال عليه السلام أيضـا: «ولاَ (خَـيْـرَ) في الـصِّـدْقِ إلاَّ مَـعَ الـوَفـاءِ»[١٥]، وقال مولانا علي بن الحسـين عليه السلام: «خَيْــرُ مَـفـاتيــحِ الأمور الـصِّــدْقُ وخَيْرُ خَـواتـيـمِـهـا الـوَفـاءُ»[١٦]، فأقـصى غايات الصدق هو الوفاء.

ثـم يقول الحق تبـارك وتعالى: ﴿لِـيَجْـزِيَ اللهُ الصَّادِقِـينَ بـصِدْقِهِمْ....﴾[١٧] فـإذا قيل: وما جزاء صدق العبد ونفعه؟! ﴿قَالَ اللهُ هَذا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنـَّاتٌ تـَجْرِي مِن تـَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِيـنَ فِيهَـا أبَداً رَضِيَ اللهُ عَنـْهُمْ وَرَضُوا عَنـْهُ ذَلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١٨] فجـزاؤه الصـدق الإلـهـي وقــول الحــق فيـما وعـدهم من نعيـم دائـم وثــواب خـالـد وفيـض وافـر ومتـعــة لا متناهـيـة، وكان الوفـاء بالعهــد حــقٌّ عـلى الله سـبحانه أوجبه على نفسـه وقــال: ﴿....أوْفُوا بـِعَهْـدِي أُوفِ بـِعَهْدِكُمْ﴾[١٩] ﴿....وَعْدَ الله حَقًّا وَمَنْ أصْدَقُ مِنَ الله قِـيلاً﴾[٢٠]!!

وللوفاء معاني ومفاهيم متعددة نذكر جملة منها:

المعنى الأول: العمل بالعهد والميثاق (العهد التكويني)

حين قبض الله تعالى الذرية من ظهور بني آدم عليه السلام أشهدهم على أنفسهم بالعبودية لله تعالى ولله تعالى بالربوبية عليهم، فأقروا له بذلك بلسان فطرتهم، وامتثلوا لأمره تكويناً، وأصبحوا عباده ذاتاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٢١].

قال الزمخشري: المراد بعهد الله تعالى ما ركز في عقول الخلق من الحجة على التوحيد كأنه أمرٌ وصَّاهم به ووثَّقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾.

وقد أمرنا الحق سبحانه بالعلم بتوحيده لا العلم بذاته الذي نهى عنه بقوله: ﴿.... ويحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ....﴾[٢٢] ونهانا عنه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «تفكَّروا في خَلْقِ الله ولا تفكَّروا في الله فتهلكوا»[٢٣] فلا سبيل لأحد من الوصول إلى كنه ذات الحق المقدسة المنزهة[٢٤].

وقيل أن للوفاء بعهد الله عرْض عريض، فأول مراتبه الإتيان بكلمتي الشهادة وآخرها الاستغراق في بحر التوحيد وفناء أهل الوحدة في الذات بحيث يغفل العبد عن نفسه فضلا عن غيره.

فالعبد مُطالَب أن يعامل ربَّه بالوفاء على العهد الخالص والميثاق القديم فلا ينازعه في ربوبيته ولا يزاحمه في ألوهيَّته لا لنفسه ولا لغيره من المخلوقات، ويرفض الأنداد من دونه ولا يشرك بعبادة ربه أحدا، بل يقرُّ بوحدانية الربوبية والألوهية للحق سبحانه، ليعلم الله تعالى من هو صادق في دعواه ومن هو كاذب، وصِدْق الدعوى لا يتحقق إلا بالوفاء بعهد المعبود سبحانه وهي – إلى جانب التقوى – من الشرائط التي لو تمَّت دخل العبد في زمرة المتقين، وحصل بها على نصيبه من المحبة والولاية الإلهية والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٢٥]، فمن أوفى بالعهد والميثاق الذي أخذه الله عليه وقام بآداب الحَق وتحقق بجميع معاني العبودية لله تعالى فقد فاز فوزا عظيما بنيل مراتب القرب والوصال والتطهير بماء الرحمة والغفران وتبعاتها من النظر والتكليم يوم القيامة، ومن لم يفِ بعهد الله وميثاقه فقد ضلَّ سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعا، وخسر في الآخرة خسرانا مبينا بالقطع والإبعاد وأليم العذاب وتبعاتها من عدم النظر والخسوء يوم القيامة [٢٦].

قال الباري عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ *﴾[٢٧]!!

فالله سبحانه وتعالى أشهد العباد على أنفسهم بالربوبية له، وأخذ عليهم عهدا بأن لا يعبدوا إلا

إيَّــاه، ولما خلق الخلق وأخرجهم إلى الحياة الدنيا وأرسـل إليهم الرسـل بالآيـات البيِّنات والمعجزات والدلالات انقسـموا إلى فريقـين من حيث الوفاء بالعهد وعدمها، ففريقـا عرف الحق وكان ذا بصيرة تذكَّـر بها مـا عاهـد عليه الله، فبقـي على فطرتـه الأصلية الذاتيـة، وثبت عـلى الوفاء بـه، وأطاع الحق واسـتجاب لـه فيما أمره ونهـاه، وكان فيمن وصفهم الله تعالى بأولي الألبـاب، وفريقا جهل الحق وكان أعمـى، فنسي ما عاهـد عليه الله، وخرج عن الفطـرة الأولى، فزلَّت قدمه عن الوفـاء به، وجحد الحق فيما أمره ونهاه وكان من الفاسقين، قال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَـا لأَكْثَـرِهِمْ منْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَـا أَكْثَـرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾(٢٨)!!

وفيما أوحى الله تعالى به نبيه موسـى: «يا مُوسَـى، مَنْ قَبِـــلَ وَصِيَّتـــي وأوْفـَى بعَـهْـدي ولَمْ يَعْـصِـنـي رَقَـيْـتُـهُ إلَى رُتـبْـَةِ مَـلائِـكَـتِـي وأحْـلَلْـتـهُ جَـنَّـتـي مَـعَـهُـمْ وجـازَيْـتُـهُـمْ بـأَحْـسَـــنِ مـا كانـُوا يَـعْمَلـون»!!

ولا تعجـب من هـذا القول، فإن الإمـام أبا محمد العسـكري لما فسر آية العهـد والميثاق بقوله: «ثـبَـتَـتْ المَعْـرِفَـةُ وَنـَسُـــوا ذلِكَ المَوْقِـفَ وَسَـيَذْكُرونـَهُ وَلَـوْلا ذلِـكَ لَـمْ يَـدْرِ أحَـدٌ مَـنْ خـالِـقُـهُ وَمَـنْ رازِقُـهُ» تعجَّب أبو هشام الجعفري وقال: فتعجبت في نفسي من عظيم ما أعطى الله وليَّه وجزيل مـا حمَّلـه، فأقبل أبو محمـد عَلَيَّ فقال: «الأمْـرُ أعْـجَـبُ مِمَّا عَـجِـبْـتَ مِنـْهُ يا أبـا هاشِـــمِ وأعْظَـمُ، ما ظَـنـُّـكَ بقَـوْمٍ مَنْ عَـرَفَـهُـمْ عَـــرَفَ اللهَ وَمَـنْ أنـْكَرَهُـمْ أنـْكَـرَ اللهَ فَلا مُـؤْمِـنٌ إلاَّ وَهُـوَ بِهِمْ مُـصَـدِّقٌ وبمَعْرِفَـتِـهِـمْ مُوقِـنٌ»(٢٩)، فجعل الله تعـالى الإقرار بولايتهم والبيعة لهم تمـام توحيده والإخلاص له بوحدانيته وإكمال دينه وإتمام نعمته على جميع خلقه، ولولاهم ما عُرِف الله وما عُبِد الله.

عـن بُـرَيـدٍ قـال سـمعت أبـا جعفـر يـقـول: «بـنـا عُـبِــدَ اللهُ وبـنـا عُـــرِفَ اللهُ وبـنـا وُحِّــــــدَ (وَعَـدَ) اللهُ مُحَـمَّــدٌ حِـجـابُ الله»(٣٠) بينه وبـين خلـقــه، ﴿فَبِـأَيِّ حَدِيـثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَـاتِـهِ يُؤْمِـنـُونَ﴾(٣١).

وعن خيثمة عن الباقرين الهُمامَين قالا: «نحْنُ وَديعَةُ الله في عِبادِهِ ونحْنُ حَرَمُ الله الأكْبَـرِ ونحْنُ عَـهْــدُ الله فَمَـنْ وَفَى بِذِمَّـتِـنـا فَقَدْ وَفَــى بِذِمَّـةِ الله وَمَنْ وَفَـــى بعَـهْـدِنـا فَقَدْ وَفَـــى بعَـهْـدِ الله وَمَنْ خَـفِـرَهُـما فَقَـدْ خَـفِـرَ ذِمَّـةَ الله وعَـهْـدَهُ»(٣٦)!!

وأما وفاء طالب العلم للعالم الرباني والمسترشـد للمرشـد الإلهي الروحـاني فإنها من أعظم مراتب الوفـاء بعد الوفاء لله تعالى ولرسـوله وأهل بيتـه، فالعلماء ورثة الأنبياء وهم في الحقيقة قد اشـتروا أرواح طلبـة العلـم والعرفـان فربُّوها ثـم أعتقوها في سـبيل الله فغدت حرة لوجـه الله (٣٧)، ونحن قد

استفدنا نافع العلم وخيره من أساتذتنا العظماء ومراشدنا الأجلاء فأصبحنا أحرارا من القيود والأغلال بعدما كنا عبيد أنفسنا وأهوائنا واسمنا ورسمنا وسمعتنا وأموالنا، فوفاء لهم ولحق تربيتهم لابد لنا من رعاية حقوقهم والمبالغة في الأدب معهم.

ومن النماذج البارزة في وفاء التلميذ لأستاذه وفاء سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي (قده) في حق أستاذه العالم الرباني والعارف الصمداني معلم الأخلاق والسير والسلوك السيد علي القاضي (قده)، فقد نقل عنه أنه كان يقول على الدوام: إن كل ما لدينا إنما هو من بركات أستاذنا السيد علي القاضي، سواء ما تعلمناه في حياته واستفدناه من محضره أو ما اكتسبناه بعد وفاته، فكله يرجع إليه!!

سئل الإسكندر: ما بالك توقِّر معلِّمَك أكثر من والدك؟! فقال: لأن المعلِّم سببٌ لحياتي الباقية ووالدي لحياتي الفانية [٣٨]!!

وفي الوفاء بالعهد مع الناس عامة قال الله تعالى: ﴿والَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [٣٩] فهو من الواجبات التي فرضها الله تعالى ومن الثلاثة التي لم يجعل الله تعالى فيهن رخصة [٤٠] لا سيما مع الأصحاب والإخوان في الله: «فإنَّ الأُخُوَّةَ عَقْدٌ يَجِبُ الوَفاءُ بِهِ»، وقال تعالى: ﴿.... إنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ [٤١]، فلولا وجوبه لم يكن مسؤولا عنه ومعاتَب على نكثه يوم القيامة، وهي من الحقوق التي لا يقوم بها إلا من أيده الله تعالى بتوفيقه وعنايته.

وما أجمل ما ينقل هنا من كلام الشيخ السعدي حيث يقول: أجلُّ الكائنات بحسب الظاهر هو الإنسان وأذلُّ الموجودات هو الكلب، ويجمع العقلاء على أن الكلب الوفيَّ أفضل من الإنسان غير الوفيِّ الذي لا يشكر نعمة المنعم [٤٢]!!

رضوان الله على روح سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي الذي كان يقول: إذا كان الكلب قد أكل شيئا يسيرا في بيت إنسان فوفاء له يضحي بنفسه من أجله، وكما كان سيدنا الأستاذ علي القاضي رضي الله عنه يقول لنا علينا أن لا نكون أقل وفاء لأساتذتنا ومراشدنا من وفاء كلب لصاحبه.

اللهم اجعلنا من أهل الإخلاص والتصديق لعهدك وميثاقك ومن أهل الوفاء بذلك ولا تجعلنا من الناكثين المكذبين والجاحدين بيوم الدين ومن الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وصدَّهم عن السبيل والصراط المستقيم.

المعنى الثاني: الوقوف على الأمر الإلهي والعمل به (العهد التشريعي)

وهو العمل بعهود الله تعالى في الالتزام بالتكاليف الشرعية والامتثال للأوامر الإلهية دون تأويلها، والتقيد بمراسم العبودية وما يكون عليه العبد من الذلة والافتقار والمسكنة، والقيام بما يجب عليه

مـن حقوق سـيده ومولاه بما تليق به من العبـادة والخدمة، وبما ينبغي له من لـزوم الأدب والحياء عند المثول بين يديه، وأن لا يراه حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره وفاءً لحق المنعِم على المنعَم وشكرا لأعظم نعمـة أنعـم بها تعالى عـلى خلقه وهي نعمة الوجود إلى جانب ما يلائمها من النعم الأخرى من حسـية ومعنويـة، فلابـد من مقابلة هذه النعمة العظمى وتوابعهـا بالعبودية الخالصة ومعرفة الحق، وهما غاية الوجود والإيجاد عقلا ونقلا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيَـعْـبُدُونِ﴾[٤٣]!!

ولـو أمعنـا النظر في آيات القرآن الكريم لوجدنا أن ما من آيـة ذكَر الله تعالى فيها طاعته إلا وأتبعها بذكـر طاعـة المبعوث برسـالته نبينا محمـدﷺ، ذلك ليبيـن للناس أن طاعة رسـوله عـين طاعته وأنهما حقيقـة واحـدة ولا قربـة إلى الله إلا بطاعتـه، فأمر سـبحانه في غـير واحدة من الآيـات بطاعته وطاعة رسـولهﷺ جنبا إلى جنب وقال: ﴿.... أطِيعُوا اللهَ وَأطِيعُوا الرَّسُـولَ....﴾[٤٤]، وقـال: ﴿.... أطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُـولَ....﴾[٤٥]، وقـال: ﴿.... أطِيعُوا اللهَ وَرَسُـولَهُ....﴾[٤٦]، وقـال: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللهَ﴾[٤٧]، والحق سـبحانه جعل لنا في رسـوله أسـوة حسـنة فكان الوفاء له بالاستجابة الكلية له واتباع سـنته وسلوك سـبيله قولاً وعملاً وخُـلُـقـاً وحالاً وسيرةً وعقيدةً، وكلها متابعة إلهية، لأنهﷺ الوسيلة إلى معرفة الله والسبيل إلى محبته والأكمل في عالم الوجود ولا أكمل منه.

وكذلك جاءت الآيات بذكر أولي الأمر الذين فرض الله تعالى طاعتهم على المؤمنين كفرض طاعته وطاعـة رسـوله عليهم فقـال: ﴿يَا أيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَـنُـوا أطِـيعُــوا اللهَ وَأطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأولِي الأمْرِ مِنكُمْ....﴾[٤٨]، ولو تأملت في الآية لوجدت أن الله سبحانه جمع بين الرسولﷺ وأولي الأمر في طاعة واحـدة، ولقَضَيتَ بمرتبة العصمة الإلهية لأولي الأمر كما هي لرسـول اللهﷺ من غير فرق، ولحَكَمت بأنه ليسـت لتلك المرتبة أهل سـوى أهل البيت والعترة الطاهرةعليهم السلام الذين جاء القرآن بنص صريح في عصمتهم وفرض طاعتهم والوفاء لهم ببيعتهم وولايتهم.

المعنى الثالث: حفظ السر وكتمانه (العهد القلبي)

وهـو مـن معاني الوفـاء لجناب الحق تبـارك وتعالى النابعة من الغيرة لله وسـنَّة من سـننه حيث قال جـلَّ ذكره وثنـاؤه: ﴿عَالِمُ الْغـَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَـلَى غَيْبِـهِ أحَداً﴾[٤٩]، فعندما يهَـبُ الحق تعالى عبده من مكنونـات الأسرار الإلهيـة ويقـذف في قلبه من أنوار المَخزونـات الخفيَّة ويطْلِعه عـلى غوامض المعاني الغيبيـة ويجعلـه من أهل عنايته وبنور الكشـف واليقيـن والتجلِّي يكحل عين بصيرتـه ويهُبُّ على قلبه نفحـات غيبيـة فيجعله موضع سره فوفاءً لحق هذه الأمانة عليه أن لا يبثَّها لمن لا يقدِّر قدْرها فيضيِّعها ولا يسرِّبها لمن لا يعرف شـأنها فيسـتصغرها ولا يكشـفها لمن لا يقْدِر عقـلُـه على احتمالها فينكرها بل

يحتفظ بها في نفسه ويكتمها أو يُودِعها لمن هو أهل لها فيحفظها.

با مدَّعى مگوئيد اسرار عشق ومستى
تا بيخبر بميرد در درد خود برستى[٥٠]

قال أبو عبدالله الصادقعليه السلام في صفات المؤمنين الكاملين: «ألسِنَتُهُمْ مَسْجونَةٌ وصُدورُهُمْ وِعاءٌ لِسِرِّ الله إنْ وَجَدوا لَهُ أهْلاً نَبَذوه إليهِ نَبْذاً وإنْ لَمْ يَجِدُوا لَهُ أهْلاً ألْقَوْا عَلَى ألْسِنَتِهِمْ أقْفالاً غَيَّبُوا مَفاتيحَها وجَعَلوا عَلَى أفْواهِهِمْ أوْكِيَةً صُلْبٌ صِلابٌ أصْلَبُ مِنَ الجِبالِ لا يُنْحَتُ مِنْهُمْ شَيْءٌ»، ثم قالعليه السلام: «أسْكَتَهُمُ الخَشْيَةُ لله وأعْيَتْهُمْ ألْسِنَتُهُمْ خَوْفاً مِنَ الله وكِتْماناً لِسِرِّه»[٥١] ومن كان بهذه المثابة من الوفاء حقَّ له أن يسمى وفيًّا.

يقول جلال الدين الرومي:

بر لبش قفل است وبر دل رازها
لب خموش ودل پر از آوازها
عارفان كه جام حق نوشيده اند
رازها دانسته وپوشيده اند
هركه را اسرار حق آموختند
مهر كردند ودهانش دوختند[٥٢]

هذا وقد شدَّد مشايخ العرفان وأساتذة العلوم الإلهية على التزام تلامذتهم بهذا الشرط المهم سواء في الحالات والمقامات والواردات القلبية أو في الأوراد والأذكار واتباع الإرشادات اللازمة في السير والسلوك إلى الله، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «اسْتَعِينُوا عَلَى أُمورِكُمْ بالكِتْمانِ فإنَّ كُلَّ ذي نِعْمَةٍ مَحْسودٌ»[٥٣]، فأصل التعامل مع السر كتمانه وستره إلا إذا أُمِر بإفشائه لمن يستريح إليه ويقدِّره.

ولهذا يعتبر العرفاء أن حفظ الأسرار الإلهية وكتمانها من أهم الواجبات في السير والسلوك إلى الله، وإن إفشاءها بمنزلة الكفر السلوكي المستلزم للتوبيخ والمجازاة.

قال الصادقعليه السلام: «العارِفُ أمينُ وَدائِعِ الله وكَنْزُ أسْرارِهِ»[٥٤].

فالعارفون بالله ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من مقامات القرب إلا بكتمانهم أسرار الله وخَفِيِّ الغيوب في زوايا قلوبهم خلف ستور مسدلات من الغيرة والصون محجوبة عن كل من كان عن الحق أجنبيا مشغولا بحجب الطبيعة وظلماتها غير عارف بلطائف الأمور وحقائقها، والعارف الأمين على

ودائع الله هو على بَـيِّـنة من ربه، ويعلم متى وكيف يبرز ما أفاض الله تعالى عليه من هِبات أسرار عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

گنج را در خاك كردن عاقليست
خاك را تعمير كردن جاهليست
باشد اسرار در درونم بى شمار
ليك كم بينم درونِ حق گذار
كم گمان دارم دل بيننده اى
از درون چون ماه وخور رخشنده اى
تا بيفروزم زبان از گفت دل
بس كنم از دل زبان را مشتعل[٥٥]

أيها السالك إلى الله، كل سر خفي آمنك الله تبارك وتعالى عليه ورأيت أنك إن أظهرته لمن لا يسمعه منك بسمع الحق فلا تفشيه، ففي إفشاء السر لغير أهله سقوط، وأما من كان الحق سمعه فيسمع منك بسمع الحق لا بسمعه فأدِّه إليه تكن وفيا في رد الأمانة إلى صاحبها وهو الحق سبحانه وقد أديت ذي الحق حقه، فالحذر كل الحذر من الخيانة في أمانة أودعك الله إياها بأن تحدِّث بها من لا يكون لها أهلا فتكون من الظالمين، وكن من الأمناء عليها يجعلك الله تعالى من السعداء المقربين.

يُحكَى أن شابا كان يحضر مجلس ذي النون المصري مدة ثم انقطع عنه زمانا ثم حضر عنده وقد اصفر لونه ونحل جسمه وظهرت آثار العبادة عليه والاجتهاد، فقال له ذو النون: يا فتى، ما الذي أكسبك خدمة مولاك واجتهادك من المواهب التي منحك بها ووهبها لك واختصك بها؟! فقال الفتى: يا أستاذ، وهل رأيت عبدا اصطنعه مولاه من بين عبيده واصطفاه وأعطاه مفاتيح الخزائن ثم أسرَّ إليه سرًّا، أيحسن أن يفشي ذلك السر؟! ثم أنشأ يقول:

مَنْ سَارُّوهُ فَأبْدَى السِّرَّ مُجْتَهِداً
لَمْ يَأمَنُوهُ عَلَى الأسْرارِ مَا عاشَا
وَباعَدُوهُ فَلَمْ يَسْعَدْ بِقُرْبِهِمْ
وَأبْدَلُوهُ مِنَ الإينَاسِ إيحاشَا
لا يَصْطَفُونَ مُذيعاً بَعْضَ سِرِّهُمُ
حَاشَا وِدادُهُمْ مِنْ ذلِك حَاشَا

ثم أن الله تبارك وتعالى اختار من خلقه مَن شرَّفهم بكرامته فجعلهم مستودع سره وعيبة غيبه

وخُزَّان علمه ومعادن كلماته، وهم رسول الله محمدﷺ الذي ارتضاه الله تعالى وأطلعه على ما شاء من غيبه وعِلْمه الذي انتهى إليه، ومنه إلى عترته الزكية أوصياء نبي الله وذرية رسول اللهﷺ، فكان حفظ أسرارهم هو حفظ أسرار الله، بل كتمانها عن غير أهلها جهاد في سبيل الله [٥٦].

وقد جاء في أقوال الأئمة المعصومينعليهم السلام التحذير من إذاعة أسرارهم ووضعها في تصرف أعدائهم أشد التحذير، وإليك جملة من هذه الأقوال:

قال الصادقعليه السلام: «إنَّ أمْرَنا مَسْتورٌ مُقَنَّعٌ بالميثاقِ فَمَنْ هَتَكَ عَلَيْنا أذَلَّهُ اللهُ»[٥٧].

وقالعليه السلام: «إنَّ أمْرَنا لَيْسَ بقَبولِهِ فَقَطْ ولكِنْ بصِيانَتِهِ وكِتْمانِهِ عَنْ غَيْرِ أهْلِهِ»[٥٨].

وقال الباقرعليه السلام لأبي إسحق الليثي: «عِلْمُنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لا يَحْتَمِلُهُ إلاَّ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ أوْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أوْ مُؤمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلإيمانِ»، ثم قالعليه السلام: «وإنَّ مِنْ حَديثِنا وسِرِّنا وباطِنِ عِلْمِنا ما لا يَحْتَمِلُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ولا مُؤمِنٌ مُمْتَحَنٌ»، فقال: يا سيدي ومولاي فمن يحتمله إذاً؟! قالعليه السلام: «ما شاءَ اللهُ وشِئْنا، ألاَ مَنْ أذاعَ سِرَّنا إلاَّ إلَى أهْلِهِ فَلَيْسَ مِنّا، ألاَ مَنْ أذاعَ سِرَّنا أذاقَهُ اللهُ حَرَّ الحَديدِ»[٥٩]!!

كَفت آن يار كز او كَشت سر دار بلند
جرمش اين بود كه اسرار هويدا ميكرد [٦٠]

المعنى الرابع: الوفاء شرط المحبة والاشتياق

فالوفاء بُراق العارفين المحبين ورَفْرَفُ الصادقين المشتاقين، ولا تستكمل محبة العارف واشتياق الصادق إلا بالوفاء للمحبوب والمشتاق إليه، ولما كان الحق تبارك وتعالى هو المحبوب الحقيقي فالأوْلى بالعارف أن يوفِّي حق ربه حق الوفاء إثباتا لمحبته له وزيادة في التملُّق إليه وتقرباً إلى جنابه بما يناسب ساحة قدسه.

وبنيان المحبة الإلهية لا يقوم إلا على أساس المحبة لرسول اللهﷺ وأهل بيتهعليهم السلام، وكلما كان الأساس أكثر قوة وإحكاما كان البنيان أشد وأشيَد، وقد أشار العزيز الحكيم إلى الوفاء لرسولهﷺ وأهل بيتهعليهم السلام في كتابه حيث قال: ﴿....قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى....﴾[٦١] وهوﷺ من جملة أهل البيتعليهم السلام الذين ذاقوا مرارة الغربة وفراق الأهل والوطن وأصابهم ما أصابهم من البلاء الشديد والقتل والتشريد والإيذاء والتعذيب حتى قالﷺ: «مَا أوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ ما أوذِيتُ»[٦٢] وقال أخوه أمير المؤمنينعليه السلام: «ونَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ خاضَ إلَى رِضْوانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ وَتَجَرَّعَ فيهِ كُلَّ غُصَّةٍ وقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الأدْنَوْنَ وتَألَّبَ عَلَيْهِ الأقْصَوْنَ وَخَلَعَتْ

إِلَـيْهِ الـعَـرَبُ أَعِـنَّـتَـها وَضَـرَبَـتْ إِلَى مُـحـارَبَـتِهِ بُـطـونَ رَواحِـلِـها حَـتَّـى أَنْـزَلَـتْ بِسـاحَـتِـهِ عَـداوَتَـهَـا مِنْ أَبْـعَـدِ الـدَّار وأَسْـحَـقِ الـمَـزار»[٦٣] وذلك في سبيل نصرة الدين وقمع الكافرين وإعلاء كلمة الحق وإدحاض الباطل، فجعل محبتهم ومودتهم جميعا أجرا للرسالة المحمدية الختمية وفريضة واجبة على العباد إلى يوم القيامة، وأمرهم أن لا ينقضوا العهد فيهم ولا يغضبوهم ولا يقْطَعوهم بل يصِلُوهم ويقبلوا بقلوبهم إليهم بالمحبة والمودة، ومَنْ ظَلَم رسول الله ﷺ أجره في قرابته وأبغضهم ولم يؤتهم حقهم فقد باء بغضب من الله ولعنته والملائكة والناس أجمعين[٦٤].

جاء في أحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَـنْ أَحَـبَّـنـا فَـقَـدْ أَحَـبَّ اللهَ ومَـنْ أَبْـغَـضَـنـا فَـقَـدْ أَبْـغَـضَ اللهَ ومَـنْ وَالاَنـا فَـقَـدْ والَـى اللهَ ومَـنْ عَـادانـا فَـقَـدْ عَـادَى اللهَ»[٦٥].

يقول جار الله الزمخشري:

فَـازَ كَـلْـبٌ بِـحُـبِّ أَهْـلِ كَـهْـفٍ
فَكَيْـفَ أَشْـقَـى بِـحُـبِّ آلِ مُـحَـمَّـدٍ

والوفاء لأهل المحبة من المؤمنين والأَخِلاَّء في الله فرض واجب، وللمؤمن على المؤمن حق معلوم، فعن معلَّى بن خنيس قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن حق المؤمن فقال: سَـبْعونَ حَـقًّا لا أُخْبِـرُكَ إِلاَّ بِسَـبْعَـةٍ فَإِنِّـي عَلَيْكَ مُـشْـفِـقٌ أَخْـشَـى أَنْ لا تَـحْـتَمِـلَ، فقلت: بلى إن شاء الله تعالى، فقال: لا تَـشْـبَـعُ ويَجُـوعُ، ولا تَـكْتَسي ويَعْـرَى، وتَـكونُ دَليـلَـهُ وقَميصَـهُ الَّـذي يَلْبَـسُـهُ، ولِـسـانَـهُ الَّـذي يَـتَـكَلَّـمُ بِـهِ، وتُـحِـبُّ لَـهُ ما تُـحِـبُّ لِـنَـفْـسِـكَ، وإِنْ كانَـتْ لَـكَ جـارِيَـةٌ بَعَـثْـتَـها لِـتُـمَـهِّـدَ فِـراشَـهُ، وتَـسْـعَـى في حَوائِـجِـهِ بِالـلَّـيْلِ والـنَّـهارِ، فَـإِذا فَـعَـلْـتَ ذلِكَ وَصَـلْـتَ وَلايَـتَـكَ بِولايَـتِـنـا ووِلايَـتَـنـا بِوِلايَـةِ اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ[٦٦]!!

وللوفاء للحق مستلزمات لا تقوم إلا بها، وهي كما يلي:

الأولى: إفراد الحب لله سبحانه وتعالى

قال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «القَـلْـبُ حَـرَمُ اللهِ فَـلاَ تُـسْـكِنْ حَـرَمَ اللهِ غَـيْـرَ اللهِ»[٦٧]، فالقلب أمانة من الله تعالى بين جنبيك وحقٌّ له وحده، فإن كنت من المحبين الصادقين فاجعلها وقْفاً لجنابه ولا تُدخِل فيه أجنبيا دون أمره تكن من الأوفياء فيما أمَّنك الله عليه.

از هـر چـه غـیـر دوسـت چـرا نـگـذرد کسی
کافـر بـرای خاطـر بـت از خـدا گذشـت[٦٨]

سألت مولاتنا زينب عليها السلام والدها أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم وهي طفلة صغيرة وقالت: أتُحِبُّنا

يـا أبَــتـاه؟! فقال أمير المؤمنينعليه السلام: وكَيْـفَ لاَ أحِـبُّـكُمْ وأنتُـمْ ثَـمَـرَةُ فُـؤادِي!! فقالت زينبعليها السلام: الـحُـبُّ لله تَـعَـالَـى والـشَّـفَـقَـةُ لَـنـا [٦٩].

وتشير السيدة العقيلةعليها السلام إلى أن الحب الحقيقي والخالص هو لله سبحانه وتعالى والانقطاع إليه، وحب الأولاد حب ظاهري بمعنى الرأفة واللطف في المعاملة معهم لا الحب الحقيقي المنحصر لذات الله الواحد الأحد، وكان هذا هو مفهوم كلام أمير المؤمنينعليه السلام الذي كشفت عن مضمونه زينبعليها السلام.

الثانية: الثبات على الحب

فالسالك المحب إذا أراد أن يكون وفيًّا لله سبحانه فليكن حبه راسخا وعشقه ثابتا لا تزلزله عوارض الفتن والبلايا ولا تحرّكه المصائب والرزايا، بل يرى الخير في ذلك كله وأن الكل من عند الله، فيرضى بما أجراه الله فيه وأراد به، فلا يقبل حبه الزيادة بإحسان المحبوب ولا النقصان بجفائه.

محنت از وى مايه شادى بود
بندگى اش تخم آزادى بود
كافرم گر ذره اى از درد او
مى فروشم بر دو عالم ماه رو
كافرم گر شعله اى از سوز دل
مى فروشم بر جهانى آب وگل [٧٠]

ولما تسَمَّى العزيز الجبار بالاسم الصبور لصبره على أذى الكافرين والمنافقين وجحد الجاحدين وشرك المشركين وتشبيه المشَبِّهين تعالى الله علوا كبيرا فالأَوْلى أن يصبر العبد بأمر الله ﴿وَاصْبِـرْ وَمَا صَبْـرُكَ إلاَّ بِـالله....﴾[٧١] فيكون حبه ثابتا خالصا لله لا يتزعزع!!

قال مولانا أَبو عبدالله الحسينعليه السلام: «الـنـاسُ عَـبـيـدُ الـدُّنْـيـا والـدِّيـنُ لَـعِـقٌ عَلَى أَلْـسِـنَـتِـهِـمْ يَحُـوطـونَــهُ مـا دَرَّتْ مَعـائِـشُــهُـمْ فَـإذا مُـحِّـصُـوا بالـبَـلاءِ قَـلَّ الـدَّيَّـانـونَ»[٧٢] وما الدين إلا الحب، وأي حب أجَلُّ وأعظم من حب الله تعالى وحب أوليائه وأحبائه!! [٧٣]

حاشا كه من از جور وجفاى تو بنالم
بيداد لطيفان همه لطفست وكرامت [٧٤]

ثم ليكن راضيا بما قسمه له قانعا بما رزقه غير منكر لما قدَّر له مفتقر إليه على الدوام، فلا يلجأ إلى غيره ولا يرفع لسواه رأسه ولا يبدل حبه بحب خلقه، وإن لم يكن كذلك فلا سبيل له إلى الوفاء ألبته.

وعلى لسان الطاهر المطهَّر والوفي الأوفى جاء قولهصلى الله عليه وآله: «يا مُـقَـلِّـبَ الـقُـلـوبِ والأبْـصـارِ ثَـبِّـتْ

قَـلْـبـي عَلَى ديـنِـكَ»!!

الثالثة: استمرار الحب

ولاستمرار حب السالك لله ودوامه عليه أن يترك كل ما يوجب محقه وإزالته وقطيعته، فما أن ينقطع حبل الحب بعارضٍ ويغفل المحب عن محبوبه طرفة عين إلا ويحل محله بلا شك حب يشغله عن حبه فيضعف بذلك الوفاء للمحبوب على الحقيقة.

نبُرد عشق را جز عشق ديگر
چرا ياري نگيري تو نكوتر[٧٥]

والعارف المنقطع إلى الله قد امتلأ قلبه من محض محبة الله، فهو في شهود ومراقبة وحضور مع الحق دائم لا يفتر في حالٍ عن قبول الفيض وتلَقّي الإمداد الإلهي ودوام الوصلة، فحب الله تعالى حقيقي أبدي لا توقيت له ولا تحديد زمان عن زمان.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاته: «(إلهي) إنْ أدْخَلْتَني النارَ أعْلَمْتُ أهْلَها أنّي أحِبُّكَ»[٧٦]!! فالعارف بالله لا يتصور أن يبتعد يوما عن ربه ويقطع حبه له.

وفي حديث لأبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «أحَبُّ الأعْمالِ إلَى الله ما داوَمَ عَلَيْهِ العَبْدُ وَإنْ قَلَّ»[٧٧] أي مَنْ نَوَى القربة إلى الله تعالى في عمل ما فلْيَدُم عليه، فالديمومية في العمل لله أفضل من سعته لأن في الديمومية حضور دائم ووصْل وفي القطع بُعْد وفَصْل، ومن هنا قيل: «قَليلٌ دائِمٌ خَيْرٌ مِنْ كَثيرٍ مُنقَطِعٌ»[٧٨].

الرابعة: حب ما يحبه المحبوب وكل ما يتعلق به

حب الشيء يوجب حب آثاره ويقتضي تتَبُّع مَحابِّه ومراضيه، فإذا أحببت شيئا لأجل الله فالمحبوب بالأصالة هو الله سبحانه لا ذلك الشيء في حد ذاته، وإن كنت محبا صادقا لله تعالى عليك أن تكون حريصا على مطاوعة محبوبك ومحبوب محبوبك، وبذلك تكون قد أحببت ما أمرك الله أن تحب فتكون في حبك إياه عبدا مطيعا لأمر سيده ومولاه.

ولما لم يكن إلى الله سبيل إلا الوسيلة الواسطة والعروة الوثقى والحبل الممدود التي عرَّفها لنا سبحانه في كتابه وقال: ﴿....وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ....﴾[٧٩] وقال: ﴿....فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى....﴾[٨٠] وقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾[٨١] وهي كتاب الله والنبي صلى الله عليه وآله ومن في حكمه ممن أمر الله تعالى ورسوله بحبهم واتباعهم وهم عترته الزكية الذين هم مظاهر محبة الله وأعظم آثاره وأكبر آياته، لذا فمِن أظْهَرِ محابِّ الله تعالى ذكره ودعاؤه وتلاوة كتابه والالتذاذ بسماعه والتقرب إليه بنوافل الخيرات المحبَّبة عند الله والمحبِّبة

إليـه وعقد القلب على حـب أوليائه وخاصته وأحبائه وأودائه لا سيما الأكملين منهم وهم محمد وآل محمد ﷺ.

والتاريـخ يشـهد مواقـف عظيمة صـدرت من محبي رسـول الله ﷺ وأهـل بيته عليهم السلام تنـمُّ عن الحب الصادق والوفاء الخالص، وإليك نموذجان منها:

كان أبـو ذر تخلَّـف عـن رسـول الله ﷺ (في غزوة تبوك) ثلاثـة أيام وذلك أن جملـه كان أعجف[٨٢] فلحـق بعـد ثلاثـة أيام به ووقف عليـه جمله في بعض الطريـق فتركه وحمل ثيابه على ظهـره، فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل، فقال رسول الله ﷺ كأن أبا ذر!! فقالوا: هو أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ أدركوه بالماء فإنه عطشان، فأدركوه بالماء ووافى أبو ذر رسول الله ﷺ ومعه إداوة فيها ماء، فقال رسول لله ﷺ: يا أبا ذر معك ماء وعطشت!! فقال: نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي انتهيت إلى صخرة وعليهـا ماء السـماء فذقته فإذا هو عـذب بارد فقلت لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسـول الله ﷺ، فقال رسـول الله ﷺ يا أبـا ذر رحمك الله تعيش وحدك وتموت وحدك وتبعـث وحدك وتدخل الجنة وحدك يسـعد بـك قوم من أهل العـراق يتولـون غسلك وتجهيزك والصلاة عليك ودفنك!![٨٣]

وروي أن أم أيمـن لما توفيت فاطمة الزهراء عليها السلام حلفت أن لا تكون بالمدينة إذ لا تطيق أن تنظر إلى مواضع كانت بها، وقالت: لا أرى المدينة بعدها!! فخرجت إلى مكة، فأصابها عطش شديد في الجحفة حتـى خافت على نفسـها، فكـسرت عينيها نحو السـماء ثم قالت: يا رب أتعطشـني وأنـا خادمة بنت نبيك!! فأنزل الله عليها دلوا من السـماء فيه من ماء الجنة، فشربت فلم تحتج إلى الطعام والشراب سـبع سنين، وكان الناس يبعثونها في اليوم الشديد الحر فما يصيبها عطش!![٨٤]

وأقول: كذلك يكون الوفاء الإلهي بإكرامه أهل الوفاء لخاصة أولياء الله وأحبائه، ومن أوفى بعهده من الله!!

«اللَّهُـمَّ إنـِّـي لَوْ وَجَدْتُ شُــفَـعـاءَ أَقْـرَبَ إلَيْكَ مِنْ مُحَمَّـدٍ وأَهْلِ بَيْتِـهِ الأَخْيارِ الأئـمَّــةِ الأَبْـرار لَجَعَلْـتُهُمْ شُـفَـعائي، فَبِـحَـقِّـهِمُ الَّـذي أَوْجَـبْـتَ لَـهُـمْ عَلَـيْـكَ أَسْـأَلُكَ أَنْ تُـدْخِـلَـني في جُـمْـلَـةِ العارِفيـنَ بِهِـمْ وبِــحَقِّـهِمْ وفي زُمْـرَةِ المَـرْحومينَ بشَـفـاعَـتِهِمْ إنـَّكَ أَرْحَـمُ الراحِميـنَ»[٨٥]!!

الهوامش

(١) الكَرَى: النوم أو النعاس

(٢) تنسئ: تؤخِّر

(٣) وافَى: أتى إلى الميعاد

(٤) سورة التوبة: آية ١١١

(٥) أصل الخَوْن النقص كما أن أصل الوفاء التمام.

(٦) الكافي: ج ٢ ص ٤٦

(٧) سورة طه: آية ٥٠

(٨) سورة آل عمران: آية ٧٦

(٩) سورة الرعد: آية ٢٠

(١٠) سورة البقرة: آية ١٧٧

(١١) سورة الأنفال: آية ٢٧، وأما سبب نزول هذه الآية المباركة فقد ذكرناه في (المنزل ٢٩: الدفاع عن المحبوب عند المحب)

(١٢) سورة الأنفال: آية ٥٨

(١٣) سورة الأحزاب: آية ٧٢

(١٤) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٣٧٤، شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢ باب ٤١ ص ٣١٢

(١٥) بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٤٠١

(١٦) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١٦٠

(١٧) سورة الأحزاب: آية ٢٤

(١٨) سورة المائدة: آية ١١٩

(١٩) سورة البقرة: آية ٤٠

(٢٠) سورة النساء: آية ١٢٢

(٢١) سورة الأعراف: آية ١٧٢

(٢٢) سورة آل عمران: آية ٢٨، آية ٣٠

(٢٣) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ١٩ ص ٥٣

(٢٤) راجع المنزل (٦): التفكر عند المحب

(٢٥) سورة آل عمران: آية ٧٦

(٢٦) وهو قوله تعالى في سورة آل عمران- آية ٧٧: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَإِيمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(٢٧) سورة الرعد: آية ١٩ – آية ٢٠

(٢٨) سورة الأعراف: آية ١٠٢

(٢٩) بحار الأنوار: ج ٥ ص ٢٦٠

(٣٠) بصائر الدرجات: ج ٢ باب ٣ ص ٨٤، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ١٠٢

(٣١) سورة الجاثية: آية ٦

(٣٢) بحار الأنوار: ج ٣٧ ص ٣٢٣

(٣٣) تفسير البرهان (للسيد هاشم البحراني): المجلد الثاني ص ٦١٥، وعن حذيفة بن أسيد الغفار قال قال رسول الله ﷺ: «ما تكامَلَت النبُوَّةُ لِنَبِيٍّ في الأظِلَّةِ حَتَّى عُرِضَتْ عَلَيهِ ولايَتي ووِلايَةُ أهْلِ بيتي ومُثِّلوا لَهُ فأقَرُّوا بطاعَتِهِمْ وولايَتِهِمْ» – بصائر الدرجات: ج ٢ باب ٨ ص ٩٣، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٢٨١

(٣٤) تفسير فرات بن إبراهيم الكوفي: المجلد ١ ص ١٤٦

(٣٥) تفسير علي بن إبراهيم القمي: مجلد ١ ص ٢٤٦ ومنه بحار الأنوار: ج ٥ ص ٢٣٦

(٣٦) بصائر الدرجات: ج ٢ باب ١ ص ٧٧، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٢٤٥، خَفَرَ به خَفْرا وخُفورا: نقض عهده وغدره.

(٣٧) قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَلَّمَ أحداً مَسْألَةً مَلَكَهُ وَرَقَّهُ» – منية المريد: ص ٢٤٥، وجاء في بحار الأنوار: ج ١٠٨ ص ١٦ بهذه العبارة: قال سيد العالمين: «مَنْ عَلَّم شَخْصاً مَسْألَةً مَلَكَ رِقَّهُ».

(٣٨) محاضرات الأدباء: ج ١ ص ٤٥، الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص ١١٩ ومنها منية المريد: ص ٢٤١

(٣٩) سورة المؤمنون: آية ٨، سورة المعارج: آية ٣٢

(٤٠) عن الباقر عليه السلام قال: «ثلاثٌ لَمْ يَجْعَلْ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لأحَدٍ فيهِنَّ رُخْصَةً أداءُ الأمانَةِ إلَى البَرِّ والفاجِرِ والوَفاءُ بالعَهْدِ لِلْبَرِّ والفاجِرِ وبِرُّ الوالِدَيْنِ بَرَّيْنِ كانا أو فاجِرَينِ» – الكافي: ج ٢ ص ١٦٢، تحف العقول: ص ٣٦٨ مع اختلاف الترتيب.

(٤١) سورة الإسراء: آية ٣٤

(٤٢) منازل الآخرة (للمحدث القمي): ص ١٩٨

(٤٣) سورة الذاريات: آية ٥٦

(٤٤) سورة النساء: آية ٥٩، سورة المائدة: آية ٩٢، سورة النور: آية ٥٤، سورة محمد: آية ٣٣، سورة التغابن: آية ١٢

(٤٥) سورة آل عمران: آية ٣٢، آية ١٣٢

(٤٦) سورة الأنفال: آية ١، سورة الأنفال: آية ٢٠، سورة الأنفال: آية ٤٦، سورة المجادلة: آية ١٣

(٤٧) سورة النساء: آية ٨٠

(٤٨) سورة النساء: آية ٥٩

(٤٩) سورة الجن: آية ٢٦

(٥٠) الترجمة:

لا تـــُفْشوا أسرارَ العشقِ والسُّكْر لِمُدَّعيها
حتى يموتَ جاهــلاً بــداءِ عِــبادةِ النفس

(٥١) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ٣٥٢، الأَوْكِيَة جمع وِكاء وهو الخيط الذي يُشَدُّ به رأس الصرَّة أو الكيس، وقد شبَّه أفواههم بكيس أو صرَّة شُدَّ رأسها فلا يخرج منها شيئا!!

(٥٢) الترجمة:

على فمه قفل وعلى قلبه أسرار
الفم صامت والقلب بالنغمات مليء
العارفون الذين شربوا من كأس الحق
عرفوا أسرارا وأخفوها
فمن علَّموه أسرار الحق
ختموا على فمه وخاطوه

(٥٣) تحف العقول: ص ٤٨

(٥٤) مصباح الشريعة: باب ٩٥ ص ٦٤ ومنه بحار الأنوار: ج ٣ ص ١٤

(٥٥) الترجمة:

إخفاء الكنز في التراب عقلانية وتعمير التراب جهالة

الأسرار المودَعة في باطني لا متناهية، ولكنني لا أجد باطنا يعرف الحق إلا القليل

لا أعتقد أن هناك قلوبا مبصرة أو باطنا كالقمر والشمس المضيء إلا القليل

حتى أوقِد لساني بحكايات القلب فأجعلها مشتعلة بشعلة القلب

(٥٦) عن أبان بن تغلب عن أبي عبدالله جعفر بن محمدﷺ قال: «كِتْمانُ سِرِّنا جِهادٌ في سَبيلِ الله» – أمالي الشيخ المفيد: المجلس ٤٠ ص ٣٣٨ ومنه بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٢٧٨ رواية ٤

(٥٧) وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٢٤٩، الكافي: ج ٢ ص ٢٢٦، بصائر الدرجات: ج ١ باب ١٢ ص ٤٨

(٥٨) بحار الأنوار: ج ٢ ص ٦٨ رواية ١٥

(٥٩) البحار: ج ٦٧ ص ١٠٣ رواية ٢١، وعن أبي بصير قال قال أبو عبداللهﷺ: «يا أبَا مُحَمَّد إنَّ عِندَنا سِرًّا مِن سِرِّ الله وعِلْماً مِنْ عِلْمِ الله لا يَحْتَمِلُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ولا مُؤمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلإيمانِ والله ما كَلَّفَ اللهُ أحَداً ذلِكَ الحِمْلَ غَيْرَنا وَلا اسْتَعْبَدَ بذلِكَ أحَداً غَيْرَنا وأنَّ عِنْدَنا سِراً مِنْ سِرِّ الله وعِلْماً مِنْ عِلْمِ الله أمَرَنا اللهُ بتَبْليغِهِ فَبَلَّغْنا عَنِ الله عَزَّ وجَلَّ ما أمَرَنا بتَبْليغِهِ ما نَجِدُ لَهُ مَوضِعاً وَلا أهْلاً وَلا حَمالَةً يَحْمِلونَهُ حَتَّى خَلَقَ اللهُ لِذلِكَ أقْواماً خُلِقُوا مِنْ طينَةٍ خُلِقَ مِنها مُحَمَّدٌﷺ وذُرِّيَّتُهُ ومِنْ نورٍ خَلَقَ اللهُ مِنهُ مُحَمَّداًﷺ وذُرِّيَّتَهُ وصَنَعَهُمْ بفَضْلِ صُنْعِ رَحْمَتِهِ

الَّتي صَنَـعَ مِنْها مُحَمَّـداًﷺ فَبَلَّغْنـاهُمْ عَنِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مـا أمَـرَنا بتَبْليغِـهِ فـقَـبلـوهُ واحْـتَـمَـلـوا ذلِكَ وبَلَـغَـهُمْ عَنـَّا ذلِكَ فَقَبِـلُـوه واحْـتَمَلوه وبَلَـغَـهُمْ ذِكْـرُنـا فَمالَتْ قُـلوبُـهُمْ إلَى مَعْـرِفَـتِنا وحَـديثِنـا فَلَـولاَ أنـَّهُـمْ خُـلِقُـوا مِنْ هَذا لَمَا كانـُوا كَذلِكَ وَلاَ وَاللهِ مَا احْـتَمَلُوهُ» - بحار الأنوار: ج ٢٥ ص ٣٨٥ رواية ٤٤

عـن حفـص التمار قال دخلت على أبي عبـداللهﷺ أيام صلب المعلى بن خنيس قال فقـال لي: يا حَفْصُ إنـِّي أمَـرْتُ الْمُعَـلَّى بْنَ خُنـَيْس بأمْرٍ فَخـالَفَـني فَابْـتـُلِيَ بالحَديـدِ، إنـِّي نـَظَـرْتُ إليـهِ يـومـاً وهو كَـئيبٌ حَزيـنٌ فَقُلْتُ لَهُ ما لَكَ يا مُعَلَّى كَأنـَّكَ ذَكَرْتَ أهْلَـكَ ومالَـكَ ووُلْـدَكَ وعِـيالَـكَ، قـالَ: أجَـلْ، قلتُ ادْنُ مِنـِّي، فَمَسَـحْـتُ وَجْـهَـهُ فَقُـلْـتُ أيْـنَ تَـراكَ؟! قـالَ: أراني في بَيْتي، هذه زَوْجَتي وهذا وُلْـدي، فَتَرَكْـتُـهُ حَـتَّـى تَـمَـلأ مِنـْهُمْ واسْـتَـتَـرْتُ مِنـْهُمْ حَتَّـى نـالَ مِنْها مـا يَنـالُ الرَّجُـلُ مِـنْ أهْـلِهِ، ثمَّ قُـلْـتُ لَهُ: ادْنُ مِـنـِّي، فَـدَنـا مِنـِّي، فَمَسَـحْـتُ وَجْـهَـهُ فَقُـلْتُ: أيْـنَ تَـراكَ، فَقـالَ: أرانـي مَعَـكَ في المَـدينـَـةِ، هذا بَيْـتـُكَ، قـال: قُلْتُ لَهُ يا مُـعَـلَّى إنَّ لَنـا حَـديـثـاً مَنْ حَفِـظَ عَلَيْنـا حَفِـظَ اللهُ عَلَيْهِ دينـَهُ ودُنْـيـاهُ، يا مُـعَـلَّى لا تـَـكونـوا أسْـرَى في أيْـدي النـاسِ بحَديثِنا إنْ شـاءوا مَنـُّوا (آمَنـُوا) عَلَيْكُمْ وإنْ شـاءوا قَـتَـلوكُمْ، يا مُـعَـلَّى إنـَّهُ مَـنْ كَـتَـمَ الصَّـعْـبَ مِنْ حَديثِنا جَعَـلَهُ اللهُ نـوراً بَيْنَ عَـيْـنـَيْـهِ وَرَزَقَـهُ اللهُ العِـزَّةَ في النـاسِ ومَـنْ أذاعَ الصَّـعْـبَ مِـنْ حَديثِـنـا لَـمْ يَمُـتْ حَتَّـى يَعُـضـَّهُ السِّـلاحُ أوْ يَمـوتَ كَـبْـلاً، يا مُـعَـلَّى بْنَ خُنـَيْسٍ وأنتَ مَـقْـتـولٌ فَـاسْـتَـعِـدَّ!! - بصائر الدرجات: ج ٨ باب ١٣ ص ٤٢٣، ومنه بحار الأنوار: ج ٢ ص ٧١، ج ٤٧ ص ٨٧

(٦٠) الترجمة:

قال ما أوْدَى بحياة ذلك الحبيب شنقا سوى إفشاء الأسرار

(٦١) سورة الشورى: آية ٢٣

(٦٢) مناقب ابـن شهرآشـوب: ج٣ ص٢٨٦، بحـار الأنـوار: ج٣٩ ص٥٦، الجامـع الصغير للسـيوطي: ج٢ ص١٤٤، وورد في الدعـاء الثـاني من الصحيفة السـجادية في الصلاة على رسـول اللهﷺ: «اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّـدٍ أمـينِكَ عَلَى وَحْـيِـكَ ونـَجيبِـكَ مِنْ خَـلْـقِـكَ.... كَما نـَصَـبَ لأمْـرِكَ نفْسَـهُ وعَـرَضَ فيـكَ لِلْمَـكْـروهِ بَـدَنـَهُ وكاشَـفَ فـي الـدعـاءِ إلـيـكَ حـامَّـتَـه وحـارَبَ فـي رِضـاكَ أسْـرَتـَه وقَـطَـعَ فـي إحْـيـاءِ ديـنِـكَ رَحِـمَـهُ وأقْـصَـى الأدْنـَيْـنَ عَلَى جُـحـودِهِـمْ وقَـرَّبَ الأقْـصَـيْـنَ عَلَى اسْـتِجـابَـتِـهِمْ لَـكَ ووالَـى فيـكَ الأبْـعَـدينَ وعـادَى فيكَ الأقْـرَبيـنَ وأدْأبَ نفْسَـهُ في تـَبْليغِ رِسـالَتِـكَ وأتـْعَـبَـهـا بالدُّعـاءِ إلَى مِلَّـتِـكَ وشَـغَـلَـهـا بالنـُّصْـحِ لأهْـلِ دَعْـوَتِـكَ وهـاجَـرَ إلَى بِـلادِ الغُـرْبَـةِ ومَحَـلِّ النـأْيِ عَنْ مَـوْطِـنِ رَحْـلِـهِ ومَـوْضِـعِ رِجْـلِـهِ ومَسْـقَـطِ رَأسِـهِ ومَـأنـَسِ نفْسِـهِ إرادَةً مِنـْهُ لإعْـزازِ ديـنِـكَ واسْـتِـنـْصـاراً عَلَى أهْـلِ الكُـفْـرِ بِـكَ....».

(٦٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج١٠ ص١٦٣، شرح نهج البلاغة (لابن ميثم): ج٣ ص٤٢٥

(٦٤) وفي الحقيقة أن نفع المودة في قربى رسـول اللهﷺ عائد على الأمة لا على نبيِّها وذخرها لهم لا له، فقد قال الله

تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ - سورة سبأ آية ٤٧، أي قل يا محمد أن أجر أداء الرسالة وبيان الشريعة وهو المودة في القربى التي لم أسأل سواها هو نافع لكم دوني فتهتدون به وتنجون من عذاب يوم القيامة وأما ثواب عملي فليس بوسعكم القيام بأدائه بل هو على الله الذي يعلم مقدار أجري فيثيبني عليه ولا يضيعه - تفسير الصافي: مجلد ٤ ص ٢٢٥، تفسير البرهان: مجلد ٤ ص ٣٥٤، تفسير بيان السعادة: مجلد ٣ ص ٢٧١، وأقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لو لم تكن هذه الآية المباركة نزلت عليك وعَلِمنا بها علَّمنا الله بأن النفع عائد علينا لكفتنا آية المودة في قرباك وفاء لك ولأهل بيتك الطاهرين!!

(٦٥) بحار الأنوار: ج ٢٧ ص ٨٨

(٦٦) الكافي: ج ٢ ص ١٧٤ ح ١٤

(٦٧) جامع الأخبار: ص ١٨٥ ومنه بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٥، كنز العمال: ج ١ ص ٢٥

(٦٨) الترجمة:

كيف لا نهجر غير الحبيب من أجل الحبيب وقد هجر الكافر ربَّه من أجل صنمه!!

(٦٩) رياحين الشريعة: ج ٣ ص ٥٤

(٧٠) الترجمة:

كل محنة من قِبَلِه سبب للبشارة والسرور، والعبودية له بَذْرة الحرية
إنه لكفر إن أنا بعت جماله بالعالمين بسبب ذرة مصيبة أو محنة ابتلاني بها
إنه لكفر إن أنا بعت ذرة من حرقة القلب بعالم من الماء والطين.

(٧١) سورة النحل: آية ١٢٧

(٧٢) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١١٦ رواية ٢ باب ٢٠، تحف العقول: ٢٤٥

(٧٣) روى أبو محمد البصري عن أبي العباس خال شبل كاتب إبراهيم بن محمد قال: كنا أجرينا ذكر أبي الحسنعليه السلام فقال لي: يا أبا محمد لم أكن في شيء من هذا الأمر وكنت أعيب على أخي وعلى أهل هذا القول عيبا شديدا بالذم والشتم إلى أن كنت في الوفد الذين أوفد المتوكل إلى المدينة في إحضار أبي الحسنعليه السلام، فخرجنا إلى المدينة، فلما خرج وصرنا في بعض الطريق وطوينا المنزل وكان منزلا صائفا شديد الحر فسألناه أن ينزل فقال لا، فخرجنا ولم نطعم ولم نشرب، فلما اشتد الحر والجوع والعطش فبينما ونحن إذ ذلك في أرض ملساء لا نرى شيئا ولا ظل ولا ماء نستريح فجعلنا نشخص بأبصارنا نحوه، قال: وما لكم أحسبكم جياعا وقد عطشتم، فقلنا إي والله يا سيدنا قد عيينا، قال: عرِّسوا وكلوا واشربوا، فتعجبت من قوله ونحن في صحراء ملساء.... فقال: ما لكم!! عرِّسوا، فابتدرت إلى القطار لأنيخ وإذا أنا بشجرتين عظيمتين تستظل تحتهما عالَمٌ من الناس وإني لأعرف موضعهما أنه أرض براح قفراء، وإذا بعين تسيح على وجه الأرض أعذب ماء وأبرده، فنزلنا وأكلنا وشربنا واسترحنا وأن فينا من سلك ذلك الطريق مرارا، فوقع في قلبي ذلك الوقت أعاجيب وجعلت أحِدُّ النظر إليه أتأمله طويلا وإذا نظرت إليه تبسم وزوى وجهه عني، فقلت في نفسي:

والله لأعرفن هذا كيف هو، فأتيت من وراء الشجرة فدفنت سيفي ووضعت عليه حجرين وتغوطت في ذلك الموضع وتهيأت للصلاة، فقال أبو الحسن عليه السلام: استرحتم؟! قلنا: نعم، قال: فارتحلوا على اسم الله فارتحلنا، فلما أن سرنا ساعة رجعت على الأثر فأتيت الموضع فوجدت الأثر والسيف كما وضعت والعلامة، وكأن الله لم يخلق ثَمَّ شجرة ولا ماء ولا ظلالا ولا بللا فتعجبت من ذلك ورفعت يدي إلى السماء فسألت الله الثبات على المحبة والإيمان به والمعرفة منه وأخذت الأثر فلحقت القوم، فالتفتَ إليَّ أبو الحسن عليه السلام وقال: يا أبا العباس فعلتها!! قلت: نعم يا سيدي لقد كنت شاكا وأصبحت أنا عند نفسي من أغنى الناس في الدنيا والآخرة، قال عليه السلام: هو كذلك هم معدودون معلومون لا يزيد رجل ولا ينقص - بحار الأنوار: ج ٥٠ ص ١٥٦

(٧٤) بيت للشاعر الفارسي حافظ الشيرازي، وترجمته:

حاشا أن أتأوَّه من جورِك وجَفاك
فكُلُّ ما يَرِد علينا من مصائب من أهل اللطف لطْفٌ وكرامة.

(٧٥) الترجمة:

لا شيء يمحو العشق سوى عشق آخر
فلِمَ لا تتخذ لنفسك المعشوق الأفضل.

(٧٦) من المناجاة المعروفة بالمناجاة الشعبانية.

(٧٧) الكافي: ج ٢ ص ٨٢

(٧٨) وقد ورد في حديث صادقي على قائلها الصلاة والسلام: «العَمَلُ الدائِمُ القَليلُ عَلَى اليَقينِ أفْضَلُ عِندَ الله مِنَ العَمَلِ الكَثيرِ عَلَى غَيْرِ يَقينٍ» - تحف العقول: ص ٣٦١، عيون الحكم والمواعظ: ج ١٥ ص ٢٠٢ ح ٦

(٧٩) سورة المائدة: آية ٣٥

(٨٠) سورة البقرة: آية ٢٥٦

(٨١) سورة آل عمران: آية ١١٢، والحبل أي العهد، وسمي العهد حبلا لأنه يعقد به الأمان كما يعقد الشيء بالحبل، وقيل حبل من الله أي عهد من الله وحبل من الناس أي عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيه عليه السلام، وإنما اختص الذكر بوصيه أمير المؤمنين عليه السلام نظرا للأولوية في حضرة الولاية ولا شك أن المقصود هو العترة الطاهرة المطهرة، وعن إبان بن تغلب قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَمَا ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ الله وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ قال عليه السلام: ما يقول الناس فيها؟! قلت: يقولون حبل من الله كتابه وحبل من الناس عهده الذي عهد إليهم، قال عليه السلام: كذبوا!! قلت: ما تقول فيها؟! فقال عليه السلام لي: حبل من الله كتابه وحبل من الناس علي بن أبي طالب عليه السلام!! - تفسير فرات الكوفي: مجلد ١ ص ٩٢، وفي تفسير علي بن إبراهيم القمي أنها نزلت في الذين غصبوا حقوق آل محمد عليهم السلام، وفي تفسير بيان السعادة مجلد ١ ص ٢٩٣ أن ﴿بِحَبْلٍ مِنَ الله﴾ هي الفطرة التي فطر الناس عليها التي يعبر

عنها بالولاية التكوينية التي هي الكتاب التكويني الإلهي الذي كتابه التدويني ظهوره وبيانه ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ هو الاتصال بالنبي ﷺ بالبيعة العامة أو بالولي عليه السلام بالبيعة الخاصة الولوية المعبر عنها بالولاية التكليفية.

(٨٢) أعجف: مهزول والأنثى عجفاء.

(٨٣) تفسير علي بن إبراهيم القمي: ج ١ ص ٢٩٥، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٢٩

(٨٤) بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ٢٨

(٨٥) فقرة من الزيارة الجامعة

المنزل (٣٢)

الجَفاءُ عِنْدَ المحب

الجفاء في اللغة بمعنى البعد عن الشيء، وقيل: الجفاء الغلظة في الطبع والخرق في المعاملة والفظاظة فيها ورفض الصلة والبر والرفق، ويطلق أيضا على البعد عن الآداب.

وأما العرفاء فيقولون الجفاء أي الظلم، والظلم حجاب وستر وخفاء عن المعارف والمشاهد، وقيل أيضا أن الجفاء نقيض الوفاء، فالوفاء هو العمل بالعهد والجفاء هو نقض العهد، وقيل أيضا أن الجفاء عدم الوفاء في المقام والمقال.

وكما نرى من معاني الجفاء أنه قيد ووثاق على قدم السالك إلى الله موجب لتكثير الوسائط بينه وبين الحق سبحانه وإعاقته عن سرعة السير والوصول إلى الكمال المطلوب له وحبسه عن نيل الدرجات العالية والمقامات السَنيَّة، بل قد يجره إلى الوراء حيث الآثار السيئة والعواقب الوخيمة التي تحول بالمرة بينه وبين ينبوع الكمال ومطلق الكمال، ويمكن أن نقول أن الجفاء آفة موبقة وخصلة مهلكة وداعية إلى سخط الله عزَّ وجلَّ ويكون صاحبه آبقا عن جناب المولى سبحانه مبعَدا عن داره وحضرته.

وفي هذا المقام نلتمس بعون الله وتوفيقه من شعاع أنوار الكلمات الإلهية بريقا يضيء لنا درب الدخول في رحاب هذا المنزل الخطير ولنكون على بصيرة ندرك بها الحقائق والمعاني ما شاء الله أن يكشف لنا منها:

قال الله عزَّ وجَلَّ في الوثيقة الإلهية المجيدة: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *﴾[1].

وقال عزَّ وجَلَّ فيما يسمَّى بقضاء العهد: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ....﴾[2]!!

اعلم أيها السالك إلى الله أن منشأ السعادة البشرية أو شقائها إما طاعة الله تعالى أو عصيانه، أو

بمعنى آخر إما طاعة الله تعالى أو طاعة الشيطان التي تتمثل فيها كل معصية وضلال وجهل وعمى.

وقد أبان الله عزَّ وجلَّ في كتابه المنير سبل السعادة والرشاد والشقاء والفساد بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٣]، فسبل السعادة هي الخيرات المقرِّبة إلى الله تعالى وسبل الشقاء هي الشرور المبعدة عن الله تعالى!!

والله سبحانه وتعالى أودع علم التوحيد في ذواتنا وأخذ علينا عهدا بتوحيده في الطاعة وألزمنا العبودية والاسترقاق له وحده حين فتق أسماعنا في عالم الذر بكلمة: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجبنا نداء الحق بلسان القبول والانقياد والتسليم وقلنا ﴿بَلَى﴾.

وجاء في الحديث الإلهي: «كُلُّ عِبَادِي خُلِقَتْ حُنَفَاءَ فَاحْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ وَأَمَرُوهُمْ أَن يُشْرِكُوا بِي غَيْرِي»[٤].

فكل الموجودات-ومنها المؤمن والكافر-بحسب الفطرة الذاتية مسلم[٥] عارف بالله بالعلم البسيط[٦] وموحِّد بالكشف الصحيح[٧] إلا أن الله جلَّ وعلا يعلم بعلمه السابق أزلا والثابت أبدا بجحود بني آدم لربوبيته وخروجهم عن حقيقة العبودية له ومحض طاعته وعصيان أمره وكفران نعمته والميل عن صراطه واحتجاب العقول بسِتْر الكثرات وانغماس النفوس في بحر الشهوات وانغمار الروح في قيود التعلقات وادِّعاء المُلْكِية وحق التصرف بعدما أخرجهم برحمته وَجوده من ظلمة العدم ولم يكونوا من قبل شيئا مذكورا، ثم ألبسهم خلعة الوجود بكلمة ﴿كُنْ﴾ وأنزلهم إلى العالم الأدنى، ولولا علمه السابق بذلك لَمَا كتب عليهم عهدا دون سائر خلقه، ولما قال فيهم مؤكِّدا: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[٨]، فهو مع صرف عمره ونقصه في خسران نفسٍ دائم وهلاكٍ مستمر بارتكاب المعاصي والكفر بالله وعدم الوفاء بالعهد ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ....﴾[٩].

فعدم وفاء العبد بالعهد السابق الأزلي لاحتجابه بالغواشي الظلمانية والتخلي عن المعرفة الفطرية الأولى إنما هو لنقص استعداده وخسران رأس ماله الذي هو العمر والاستعداد لتضييعهما فيما هو فانٍ.

يقول بعض المشايخ أن من أصعب الآيات التي تمر على العارفين كل آية أشار إليها الحق سبحانه بالوفاء بالعهود والعقود لأن العبد لا يزال تحت حكم الأمر بالوفاء والأخذ عليه بالعهد ما لم يوَفِّ كامل حقيقة العبودية.

ولكن انظر إلى عامة الناس تجد أكثرهم – إلا من عَصَم الله – قد نقضوا عهد ربهم من بعد الميثاق، وانتهكوا شرط العبودية له من بعد الإقرار، وحلَّوا ما عقدوه من وحدانيته بالربوبية من بعد الإشهاد، فانهمكوا في الغواشي الطبيعية والحجب الظلمانية والموانع الجسمانية وعوامل الانحراف الموجبة للكفر

والانحطاط، واحتجبوا عن علم التوحيد المُودَع فيهم والفطرة الأصلية التي فُطِروا عليها، وأبدلوا «بَلَى» بـ «لا»، وغَدَوا يعبدون أربابا متفرقين حتى قالوا مستنكرين: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[١٠] بل كثرة الآلهة أعجب والله لو كانوا يعقلون[١١] ثم تجرأوا بأعظم من ذلك حين قالوا مستكبرين: ﴿....وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءالِهَتِنَا....﴾[١٢]، فأصبحت قلوبهم مراتع لوساوس الشيطان الذي ثبتت عداوته الجِبِلِّيَة للإنسان بشهادة الرحمن حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «أَبْغَضُ إِلهٍ عُبِدَ في الأَرْضِ عِندَ الله الهَوَى»[١٣]، ولمناسبة الاتحاد بين الهوى والشيطان فإن الهوى وما يتشعب منها من صفات بشرية رذيلة كالطمع والغضب والشهوة والحرص والحقد والحسد وغيرها مسكن للشيطان ومرتع يجول فيها بوساوسه كيف يشاء، ويزينها بزخارفه الخادعة، ويصبغها بصبغته الزائفة، ويبني حولها سدا رفيعا مصمتا يمنع نفوذ الأنوار الإلهية إليها، ويدفن في ساحتها الفطرة الأولى، حتى إذا ما انغمر فيها أصحابها والتفَّت حولهم شباكها وضعفت قواهم عن الخلاص منها وبلغ الشيطان أمنيته ونال بغيته وتمت حيلته يأتيهم في خاتمة المطاف يوم يُقضَي الأمر ويُحسَم الموقف ويُفرَغ من الحكم بين الخلائق والحساب فيخذلهم قائلا: ﴿....وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي....﴾[١٤] أي إني خالي من البرهان ولا حجة لي فيما كنت أدعوكم إليه سوى ما كان لي من الوسوسة والدعوة والإغواء ولم أجبركم على ذلك قسرا ولا قهرا ولا إكراها، وحين لا تنفع الحسرة والندامة يقول لهم مستهزئا: ﴿....فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ....﴾[١٥] حيث عدلتم عن أمر الله وتركتموه.

ويوم القيامة حيث يظهر الحق الذي لا يشوبه باطل يقف الشيطان معترفا وهو يقول: ﴿....إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ....﴾[١٦] أي إن الله وعدكم ووفى بوعده ووعيده وصدقكم ولم أوفِ أنا بما وعدتكم به وأكذبتكم.

وعلى هذا يمكن القول أن اتباع الإنسان مقتضى شهوته ومستَلَذِّها هو تعبُّد الهوى، ومع تعبُّد الهوى يظهر تسلط الشيطان وولايته عليه، والتي هي - بعبارة أخرى - تعبُّد للشيطان، لأن اتباع الهوى بأمر الشيطان ووحيه وتسويله عبادة له كما أن اتباع الرسل وطاعتهم بأمر الله تعالى عبادة لله وطاعة، ولهذا فإن اتباع الهوى وتعبُّدها جحود للحق وإن عبادة الشيطان المذكورة في الآية الكريمة: ﴿.... أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ....﴾ هي الجفاء الأعظم فيما عاهد به الإنسان ربه من توحيده في عبادته وربوبيته، ولولا التسلح بقوة داخلية صلبة رادعة تردع الأهواء النفسانية والشهوات الباطنية والمطامع الدنيوية والمغريات الوهمية وهي أقوى العوامل في دفع الإنسان

إلى الجحود والعصيان ومخالفة الرحمن لما تمكّن الشيطان من التسويل والإغراء والوسوسة والإغواء.

قال مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «دَعاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَروا ووَلَّوْا ودَعاهُمُ الشيطانُ فَاسْتَجابوا وأَقْبَلوا»[١٧]!!

وليس خوف السالك على نفسه من الشرك الجلي وهو عبادة الأصنام الحقيقية بل أشد ما يكون خوفه على نفسه من الشرك الخفي أو الشرك الأصغر وهو عبادة الأصنام المجازية والباطنية والتفات النفس إلى ما سوى الله من رياء وسمعة والذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء على الصفا في الليلة المظلمة[١٨].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأصْغَرُ»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟! قال صلى الله عليه وآله: «هو الرياءُ (الرئاءُ) يَقولُ اللهُ تعالَى يَومَ القِيامَةِ إذا جازَى العِبادَ بأعْمالِهِمْ اذْهَبُوا إلَى الَّذينَ كُنتُمْ تُراؤونَ في الدُّنْيا فَانظُرُوا هَلْ تجِدُونَ عِندَهُمُ الجَزاءَ»[١٩].

وقال صلى الله عليه وآله: «يَقولُ اللهُ سُبْحانَهُ أنا خَيْرُ شَريكٍ مَنْ أشْرَكَ مَعي شَريكاً في عَمَلِهِ فَهُوَ لِشَريكي دوني لأنِّي لا أقْبَلُ إلاَّ ما أخْلَصَ لي»[٢٠].

وقال صلى الله عليه وآله: «إنَّ المَلَكَ لَيَصْعَدُ بعَمَلِ العَبْدِ مُبْتَهِجاً بِهِ فَإذا صَعَدَ بحَسناتِهِ يقولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ اجْعَلُوها في سِجِّينِ إنَّهُ لَيْسَ إيَّايَ أرادَ بِهِ»[٢١]!!

وعن صادق الآل أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أحَداً﴾ قال: «الرجُلُ يَعْمَلُ شيئاً مِنَ الثوابِ لا يَطْلِبُ بهِ وَجْهَ الله إنَّما يَطْلِبُ تَزْكِيَةَ النَّاسِ يشْتَهي أنْ يُسْمِعَ بِهِ النَاسَ، فَهذا الَّذي أشْرَكَ بِعِبادَةِ رَبِّهِ»[٢٢]!!

من هنا قال بعض العلماء: «اجْتِنابُ الرِّياءِ مِنْ أصْعَبِ الأمورِ إلاَّ عَلَى مَنْ راضَ نَفْسَهُ ومَلَّكَها الإخْلاصَ ولا يَحْصُلُ ذلِكَ إلاَّ لِمَنْ أخَذَتْ يَدُ العِنايَةِ زِمامَهُ»!!

فالرياء داء عضال وعلة مهلكة وحجاب عن قبول فضل الله وفيضه، وهو ذو مراتب حسب شدته وضعفه وغلظته ورقته.

ثم يقول سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام: «حَقُّ اللهِ الأكْبَرُ أنْ تَعْبُدَهُ لا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً»[٢٣]!!

فكما أن السالك يوحِّد الله توحيدا ذاتيا بتوحيده في الألوهية عليه أن يوحِّده توحيدا أفعاليا بأن يكون اعتماده على الله تعالى اعتمادا كليًّا ولا يكون اعتماده على الأسباب الواسطة والموضوعة فيركن

إليها بقلبه ويسكن إليها ويفرحه وجودها ويحزنه فقدها من حيث لا يشعر، وإلى ذلك أشار الحق سبحانه بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[٢٤] أي مشركون بالله شركا خفيا، لأن الشرك الجلي لا يتفق مع الإيمان، وهو الشرك غير المغفور والمعنِيّ في الآية: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ....﴾[٢٥]، وأما الشرك الخفي فهو بعض مراتب الشرك الذي يجامع بعض مراتب الإيمان[٢٦] ومغفور إن شاء الله تعالى إذا جاهد صاحبه التخلص منه، والمؤمنون بالله مؤمنون بوجوده وهم كثيرون، وأما المؤمنون بالتوحيد فليسوا بمشركين به شيئا أيًّا كان، وهم الذين قال الحق جلَّ وعلا في شأنهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾[٢٧]، وقال: ﴿.... مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ....﴾[٢٨]، وهم أهل الصفاء العارفون بالله الموحدون له وقليلٌ ما هم.

عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال: هُوَ الرَّجُلُ يقولُ لَولا فُلانٌ لَهَلَكْتُ ولَولا فلانٌ لأَصَبْتُ كذا وكذا ولَولا فُلانٌ لضاعَ عِيالي ألا تَرَى أنَّه قد جَعَلَ لله شَرِيكاً في مُلْكِهِ يَرْزُقُه ويَدْفَعُ عنه!! قال: قلت: فيقول لولا أن الله منَّ عليَّ بفلان لهلكت؟! قال عليه السلام: نَعَمْ لا بأسَ بهذا[٢٩].

وعن أبي بصير عن أبي إسحق قالَ: هو قول الرجل لولا الله وأنت ما فُعِل بي كذا وكذا، ولولا الله وأنت ما صُرِف عني كذا وكذا[٣٠]!!

فالشرك الخفي يحمل في طيِّه رائحة الجفاء الخفي للحق سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية والسر عنده علانية وصاحبه خادع نفسه من حيث لا يشعر.

وخلاصة ما سبق من القول أن اتباع كل سبيل سوى سبيل الله جفاء لأنه موجب للغواية والضلال والانحراف عن الصراط المستقيم والسبيل القويم والحق سبحانه يقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذِلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣١]، والعهد وصية كما جاء في جُلِّ التفاسير القرآنية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ أي ألم أوصِكم!!

ومن المفردات المرادفة للجفاء الفسوق والإباق، فالفسوق في اللغة هو الخروج عن طاعة الله وترك أمره والخروج عن طريق الحق والميل إلى المعصية، والإباق هروب العبد من خدمة سيده ومولاه، وقد ذكر الله تعالى في كتابه نقْض عهده والخروج عن طاعته - وكلها معاني ومفاهيم الجفاء - تحت عنوان الفسوق وقال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[٣٢] أي خارجين عن الوفاء بالعهد.

فالفاسقون هم الجفاة الناقضون لعهد الله من بعد ميثاقه، ويؤكده قوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿.... وَمَا يَضِلُّ

بـــهِ إِلاَّ الْفَاسِـقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَـاقِـهِ....﴾[٣٣] وكذلك ما ورد في روايات أهل البيتعليهم السلام أن الجفاء شعبة من الفسوق[٣٤].

ويقـول العرفـاء على قدر العبوديـة يكون معيـار الوفاء والجفاء وميـزان الوصلـة والفُرقة ودرجة التقريـب والتبعيـد، وكـما قيـل: «مَــنْ كانَ في الـدُّنـيـا عَـبْـداً مَـحْـضـاً كانَ في الآخِــرَةِ مَـلِـكـاً مَـحْـضـاً»!!

وأما الفاسق أو الآبق عند العرفاء مَن خرج عن أصله الحقيقي، وهو الاتصاف بلوازم العبودية[٣٥] والافتقـار والانكسـار والتسـليم لله تعالى الذي من أجلـه خُلِق ولم يقف بين يدي ربـه خاضعا متذللا ممتثلا لأوامر سـيده ومولاه، بل تعدَّى إلى مزاحمته في صفات الربوبية وادعائه في نعوت الألوهية التي لا تليـق إلا بجناب الحق سـبحانه من الكِبْر والقهر والفخر والعلـو والعظمة وغيرها، فعلى قدر توجُّه العبد لغير الله تعالى نَقَص من عبوديته له وعَظُم جفاؤه.

وأما نتيجة البحث:

إن الله سبحانه وتعالى قد أوجب على نفسه الوفاء وقال: ﴿أُوفِ بِـعَهْدِكُمْ﴾ وهو الصادق في خبره بـشرط أن تفـي بعهد الله الذي طلبـه منك بقوله: ﴿أَوْفُـوا بِـعَهْدِي﴾، فأوجب على نفسـه كما أوجب عليـك، فـدلَّ عـلى كرمه ولطفه وفضلـه بالنزول إلى عبـاده[٣٦]، فأما من جانب الحق فالوفاء بلا شـك وترديد صفة إلهية قطعية بأن الحق سبحانه يوفي بكل ما أوجبه على نفسه ﴿....وَمَـنْ أَوْفَـى بِــعَـهْـدِهِ مِــنَ اللهِ....﴾[٣٧] وأما من جانبك أيها العبد فانظر في نفسـك هل وفيت بعهد الله؟! إنْ لم تكن كذلك فللَّـه الحجـة البالغة في عدم وفائك له ولا حجـة لك في ذلك وما ربُّك بظلاَّم للعبيد، وأما إن كنت من الأوفيـاء لله فانظر في نفسـك تارة أخرى هـل أتممت له الوفاء أم لا؟! فإن للوفـاء درجات ومقامات، وكلما كان وفاؤك خالصا نقيا لا يشوبه درن الجفاء كنت أحب إلى الله تعالى وأعظم منزلة.

يقـول العرفـاء أن الوفاء التام بعهد الله هو الإقرار التـام بربوبيته، وإنما يكون كذلك بالتوحيد فعلا وصفـة ووجـودا وذاتـا، ولتعلـم أن وصول العبد إلى الحق سـبحانه لا يمكـن مع بقـاء أنانيته الموجبة للإثنينية، ولا يكون إلا بالفناء فعلا وصفة ووجودا وذاتا، وغير ذلك لا يكون موفيا بعهد ربه.

قـال بعض أسـاتذة العرفـان في هذا المقام: أن العهـد الأزلي - أي الإقرار بالتوحيـد الحقيقي الذي أودعـه الله تعاليفـي ذوات عبـاده ومقـام الولايـة الكبرياالمطلقـة اللازمة لـه المذكور في الآيـة الكريمة ﴿أَلَسْتُ بِــرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[٣٨] لم يكن مختصا بالأولياء والعرفاء بل يتساوى فيه السعيد والشقي لعدم الاحتجـاب في تلـك العوالم أصلا بل الاحتجـاب يحصل بورود هذا العالم الدنيـوي، فإذا أوفى بالعهد السابق بالفناء التام يحصل له الأرباح بالبقاء بالله تعالى، وإلا فله الخسران والاحتجاب بالظلمات التي

بعضها فوق بعض، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ *﴾[٣٩] احتجابات عالم المادة ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا....﴾[٤٠] بمقام الولاية المطلقة الكلية والتوحيد الحقيقي.

فيا حسرة على العباد الذين ما عرفوا الله حق معرفته وما قدروه حق قدره ليفوا بتمام عهده إلا المخلَصين الذين اصطفاهم ربهم واجتباهم لنفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[٤١]، قيل أي أكمل وأتَمَّ وبالغ في الوفاء بما أوجب الله عليه من كل ما أُمِر وامتُحِن به وصبر على ذبح ولده وعلى نار نمرود وغير ذلك[٤٢] بيقين ثابت.

ولهذا كانت خيانة الرسولﷺ من أعظم الخيانات لأنها مقرونة بخيانة الله جلَّ جلالُه، وأن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ....﴾[٤٤] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ....﴾[٤٥] لدليل على أن خيانة الرسول لا تنفكُّ عن خيانة الله وأنها تؤدي إلى الكفر والضلال، فكما أن خيانة الله تعالى بترك فرائضه وأحكامه فإن خيانة رسولهﷺ بترك سنته وشريعته.

وأما أنت أيها السالك كيف السبيل إلى الله وإلى معرفته؟!

عن الدليل إلى الله أبي عبداللهعليه السلام: «نحْنُ وُلاةُ أمْرِ الله وخَزَنَةُ عِلْمِ الله وعَيْبَةُ وَحْيِ الله وأهْلُ دينِ الله وعَلَيْنا نَزَلَ كِتابُ الله وبِنا عُبِدَ اللهُ ولَوْلانا ما عُرِفَ اللهُ»[٤٦].

وإليك أيها السالك المحب لله هذه الوصية العِرفانية:

يقول العرفاء أن الأجير خادم أجرته فهو خادم نفسه لا خادم سيده، فليكن وفاؤك وفاء العبيد المملوكين لله العاملين بمقام العبودية في مُلك الله الملازمين لباب الله لا وفاء الأُجَراء الذين لا يزال نظرهم على الأجرة ولا حق لهم في التصرف في ملك الله والاطِّلاع على أسراره وحُكِم عليهم بالانصراف عن بابه والبعد عن داره وجنة لقائه بعد أن يوَفَّى إليهم أجورهم، واحذر أن تخالط وفاءك بشيء من الجفاء فيبعدك عن الحق أو يبطئ السير إليه وتكون بغفلتك أو جهلك من أولي الجفاء حين الوفاء.

وقد قال بعض المشايخ في ذلك: احْذَرْ أنْ تَفي لِيَفي إلَيْكَ، أوْفِ أنتَ بعَهْدِكَ واتْرُكْهُ يَفْعَلُ ما يُريدُ»، وقال: «مَنْ وَفَى بعَهْدِهِ لِيَفِي الحَقُّ بعَهْدِهِ لَمْ يَزِدْهُ عَلَى ميزانِهِ شيئاً وهُوَ قَوْلُهُ ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ولَيْسَ سِوَى دُخولُ الجَنَّةِ، وَرَدَ في الحَديثِ كانَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْداً أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، لَمْ يَقُلْ غَيْرَ ذلِكَ[٤٧] ﴿....وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ....﴾[٤٨] ولَمْ يَطْلُبْ المُوازَنَةَ ولا ذُكِرَ لَهُ هُنا أنَّهُ يَفي بعَهْدِهِ وإنَّما قالَ ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾، وما عَظَّمَهُ الحَقُّ فَلا أعْظَمَ مِنْهُ، فَاعْمَلْ عَلَى وَفائِكَ بعَهْدِكَ مِنْ غَيْرِ مَزيدٍ.

وفي ذلك أيضا قال بعض أرباب القلوب: الدُّعاءُ يوجِبُ الحُضورَ والعَطاءُ يوجِبُ الصَّرْفَ والمُقامُ عَلَى البابِ أشْرَفُ مِنَ الانصِرافِ بالمَبارِّ[٤٩].

ومن أعظم وثائق الحق سبحانه على عباده ما ترك رسول الله ﷺ في أمته وهو القرآن المجيد وأهل البيت عليهم السلام – فضلا عن نفسه الشريفة، وكلهم نور واحد –، ولذا كان أعظم الجفاء للحق سبحانه هو الجفاء في حقهما، ونظرا لعظم خطرهما ونفاسة شأنهما وثقل العمل بهما سماهما رسول الحق ﷺ ثقلين وقال: «إنِّي تارِكٌ فيكُمُ الثَّقَلَيْنِ مَا إنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِما لَنْ تَضِلُّوا كِتابَ الله وَعِتْرَتِي أهْلَ بَيْتي»[٥٠]، فترك رسول الله ﷺ الثقلين بين أيدي الأمة والأمة تركت سبيل الثقلين وخالفت أمر الله تعالى فضَلَّت وأضَلَّت إلا نفر قليل وهم أقل القليل وهم أصحاب اليمين!!

فأما القرآن المجيد فهو الوثيقة الإلهية المكتوبة بين العبد وربه والذكر المبارك الذي نزل على قلب رسول الله ﷺ، فعدم تلاوته وهجره والاستخفاف به وعدم تعلُّمه وتعليمه والعلم بمعانيه والعمل بأحكامه وإنكار حقه والجهل بعظيم نعمته بل وتفسيره بالرأي وتأويله على غير الوجه الصحيح له جفاء في حق الله تعالى، ولهذا قال رسول الله ﷺ ناصحا أمته: «اقْرَأوا القُرْآنَ وَلا تَجْفُوا عَنْهُ»، أي تعاهدوه ولا تبعدوا عن قراءته[٥١].

وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حمّاد عن حريز عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «القُرْآنُ عَهْدُ الله إلَى خَلْقِهِ فقَدْ يَنبَغي لِلْمَرْءِ المُسْلِمِ أنْ يَنظُرَ في عَهْدِ الله وأنْ يَقْرَأ مِنْهُ في كُلِّ يَوْمٍ خَمْسينَ آيَةٍ»[٥٢].

قال بعضهم: وطلبُ الهدى في غيره (أي القرآن) إنما يكون لظنِّ أن غيره حقٌّ أو أحقُّ وكلاهما كفر وضلال، ولذلك جاء في حديث المصطفى ﷺ: «مَنْ ابْتَغَى الهُدَى في غَيْرِهِ أضَلَّهُ اللهُ»[٥٣].

ثم يأتي رسول الله ﷺ يوم القيامة ويبث شكواه إلى الحق ويقول: ﴿.... **يا رَبِّ إنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً**﴾[٥٤] ذلك بأن عامة الأمة هجرت القرآن وجَفَت حقَّه اللَّهم إلا الآحاد من أولياء الله وأهل القرآن الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «أهْلُ القُرْآنِ أهْلُ الله وَخاصَّتُهُ»[٥٥] فالقرآن كلام الله وأهله أهل الله.

وللقرآن الكريم يوم القيامة شفاعة للمؤمنين كما قال رسول الله ﷺ: «القُرْآنُ شافِعٌ مُشَفَّعٌ ماحِلٌ مُصَدَّقٌ مَنْ جَعَلَهُ أمامَهُ قادَهُ إلَى الجَنَّةِ ومَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ ساقَهُ إلَى النار»[٥٦]، فكيف ترجو شفاعته يوم تنفع فيه الشفاعة وترجو الوصول إلى ربك وكنت راغبا عنه جافيا إياه في الحياة الدنيا!!

وأما أهل بيت النبوة والرسالة فهم معدن علم الله ومهبط وحيه وحفظة سره وحججه على خلقه،

آتاهـم الله مـا لم يُؤتِ أحدا من العالمين وجعل الصلاة عليهم إتماما للصلاة على نبيه الأمين، قَرَنهم الله تعالى ورسـوله ﷺ بالقرآن وقرن القرآن بهم، إذ هم المتعبدون بحفظ القرآن وبيان حقائقه، والعارفون بجلائلـه ودقائقـه [٥٧]، فـكان العدول عنهم وإنـكار فضائلهـم ومناقبهم وعلومهـم والإعراض عن أحاديثهم التي اشـتملت على صحيح السنةالنبوية والأسرار الإلهية والولائية وهجْرهم جفاء لله تعالى ورسـوله ﷺ وظلـم يعـود وباله على من جفا حقهم فيـذوق مـرارة الحسرة وألم الندامـة يوم القيامـة حيـث يقول الحق سـبحانه: ﴿وَيَـوْمَ يَـعَـضُّ الظَّـالِمُ عَلَى يَدَيْـهِ يَقُولُ يَـا لَيْتَنِي اتَّـخَذْتُ مَعَ الرَّسُـولِ سَـبِـيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّـخِذْ فُلاَنَاً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّـيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً *﴾[٥٨]!!

جـاء أعـرابي إلى النبـي ﷺ فقال: يا رَسـولَ الله هَـلْ لِلْجَنَّـةِ مِنْ ثَـمَـنٍ؟! قال ﷺ: نعَـمْ، قال: ما ثَـمَنُـهـا؟! قـال ﷺ: لا إلـهَ إلاَّ اللهُ يَقُـولُـهـا العَـبْـدُ مُخْـلِـصاً بها، قـال: وَمَا إخْلاصُـهـا؟! قال ﷺ: العَـمَـلُ بمـا بُعِـثْـتُ بِهِ في حَـقِّـهِ وَحُـبُّ أَهْـلِ بَيْـتي، قال: فِـداكَ أبي وأمّي وإنَّ حُـبَّ أهْـلِ الـبَـيْـتِ لَـمِـنْ حَـقِّـهـا؟! قال ﷺ: إنَّ حُـبَّـهُـمْ لأعْـظَـمُ حَقِّـهـا!![٥٩]، فطاعة مَنْ أمَر الله تعالى بطاعته طاعةٌ لله، وطاعة مَنْ نَهى الله تعالى عن طاعته نوع من الشرك وعبادة غير الله.

وقال ﷺ: «مَنْ أَبْـغَـضَ أَهْـلَ بَـيْـتـي وَعِـتْـرَتي لَمْ يَـرَني وَلَـمْ أَرَهُ يَـوْمَ الـقِـيـامَـةِ»[٦٠]!!

وكلٌّ يوم القيامة موقوف ومسؤول عنهما – أي كتاب الله والعترة – فردا فردا.

عن أبي عبدالله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: «أنـا أَوَّلُ قـادِمٍ عَـلَـى الله ثُـمَّ يَـقْـدِمُ عَـلَـيَّ كِـتـابُ الله ثُـمَّ يَقْـدِمُ عَلَيَّ أَهْلُ بَيْـتـي ثُـمَّ يَقْـدِمُ عَلَيَّ أُمَّـتي فَـيَـقِـفُـونَ فَيَسْـأَلُـهُـمْ مـا فَـعَـلْـتُـمْ في كِـتـابي وَأَهْـلِ بَـيْـتِ نَـبَـيِّـكُـمْ»[٦١]!!

«اللّـهُـمَّ صَـلِّ عَلَى مُحَمَّـدٍ وآلِ مُحَمَّـدٍ وأَفْـنِـنـا خَـيْـرَ الفَـنـاءِ إذا أَفْـنَـيْـتَـنـا عَلَى مُـوالاتِـكَ ومُـوالاةِ أَوْلِـيـائِـكَ ومُـعـاداةِ أَعْـدائِـكَ والرَّغْـبَـةِ والرَّهْـبَـةِ إِلَـيْـكَ والوَفـاءِ بعَـهْـدِكَ وَالتَّـصْـديـقِ بكِـتَـابِـكَ والاتِّـبـاعِ لِسُـنَّـةِ نَـبِـيِّـكَ صَلَّى اللهُ عَلَيـهِ وآلِـهِ وسَـلَّمَ، وأَدْخِـلْـنا مَعَـهُـمْ في كُلِّ خَيْرٍ ونَـجِّـنَـا بِـهِـمْ مِـنْ كُلِّ سـوءٍ، اللّـهُـمَّ واحْشُـرْنـا في زُمْـرَةِ الـهـادي الـمَـهْـدِيِّ، وأَحْـيِـنـا ما أَحْـيَـيْـتَـنـا عَلَى الوَفـاءِ بعَـهْـدِكَ وميثـاقِـكَ المَأخـوذِ مِـنـَّا عَلَى مُـوالاةِ أَوْلِـيـائِـكَ والبَـراءَةِ مِـنْ أَعْـدائِـكَ المُكَذِّبِـينَ بِـيَوْمِ الدِّينِ والناكِثينَ بمـيـثـاقِـكَ، وتَـوَفَّـنـا عَلَى ذلـك، واجْـعَـلْ لَـنـا مَـعَ الرَّسـولِ سَـبيلاً، وأَثْـبِـتْ لَـنـا قَـدَمَ صِـدْقٍ في الهِـجْـرَةِ إِلَـيْـهِـمْ، واجْـعَـلْ مَـحْـيـانـا خَـيْـرَ المَـحْـيـا ومَـماتَـنا خَـيْـرَ المَماتِ ومُـنْـقَـلَبَـنـا خَـيْـرَ المُنْقَـلَبِ برَحْـمَـتِـكَ يا أَرْحَمَ الراحِمينَ»!!

الهوامش

(١) سورة يس: آية ٦٠ – آية ٦١

(٢) سورة الإسراء: آية ٢٣

(٣) سورة الإنسان: آية ٣

(٤) الكشاف (للزمخشري): ج ٣ ص ٢٢ ومنه مفاتيح الغيب (لصدر المتألهين): ص ٥٥٧

(٥) قال تعالى: ﴿.... وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً....﴾ – سورة آل عمران: آية ٨٣

(٦) قال تعالى: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ....﴾ – سورة الإسراء: آية ٤٤، وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ – سورة الحديد: آية ١، والتسبيح لا يكون إلا بالمعرفة، وفي تفسير بيان مولانا أمير المؤمنين؈ «وَكَلِمَةَ الإِخْلاَصِ فَإِنَّها الفِطْرَةُ» يقول المولى محمد تقي المجلسي (قده) في «شرح من لا يحضره الفقيه» ج ٢ ص ٢٩ – ص ٣٠: «الفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللهُ الخَلْقَ عَلَيْها أيْ خَلَقَهُمْ لِيُوَحِّدُوهُ أوْ جَعَلَ في جِبِلَّتِهِمْ تَوْحيدَهُ كَما قَالَ تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهَ....﴾ – سورة العنكبوت: آية ٦١، ومن ثم كتب السيد ابن طاووس (قده) كتابا أثبت فيها بمائة وعشرين دليل بأن معرفة الله تعالى فطرية.

(٧) عن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبدالله؈ في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الآية قلت: معاينة كان هذا؟! قال: نَعَمْ فَثَبَتَتِ المَعْرِفَةُ وَنَسُوا المَوْقِفَ وَسَيَذْكُرونَهُ!! – بحار الأنوار: ج ٥ ص ٢٣٧، البرهان في تفسير القرآن (للسيد هاشم البحراني): مجلد ٢ ص ٦٠٩

(٨) سورة العصر: آية ٢

(٩) سورة العصر: آية ٣

(١٠) سورة ص: آية ٥

(١١) قال الفضل بن شاذان: سأل رجل من الثنوية أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليهما السلام وأنا حاضر فقال له: إني أقول إن صانع العالم اثنان، فما الدليل على أنه واحد؟ فقال؈: «قولُكَ إنَّهُ اثْنانٌ دَليلٌ عَلَى أنَّهُ واحِدٌ لأنَّكَ لَمْ تَدَعْ الثاني إلاَّ بَعْدَ إثْباتِكَ الواحِدَ، فَالواحِدُ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ وأكْثَرُ مِنْ واحِدٍ مُخْتَلَفٌ فيهِ» – التوحيد: ص ٢٧٠

(١٢) سورة هود: آية ٥٣

(١٣) إحياء العلوم ج ١ ص ٨٥، المحجة البيضاء: ج ١ ص ٨٥ رواه الطبري من حديث أبي أمامة

(١٤) سورة إبراهيم: آية ٢٢

(١٥) سورة إبراهيم: آية ٢٢

(١٦) سورة إبراهيم: آية ٢٢

(١٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٩ باب ١٤٤ ص ٨٨

(١٨) روي عـن أبي محمد الحسـن العسـكري قال: «الإشـراكُ فـي الـنـاسِ أخْـفَـى مِـنْ دَبـيـبِ الـنـمْـلِ عَلَى الـمَسْـحِ الأسْـوَدِ في اللَّـيْـلَـةِ المُظْـلِمَـةِ» - تحف العقول: ص ٤٨٧، وروي في تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨٠٥ عن رسول الله قال: «الريـاءُ أخْـفَـى مِـنْ دَبـيـبِ النـمْـلَـةِ السَّـوْداءِ في اللَّـيْـلَـةِ الظـلْـماءِ عـلَـى الـمَـسْـحِ الأسْـوَدِ».

(١٩) بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٢٦٦، منية المريد: ص ٣١٧ نقلا عن مسند أحمد بن حنبل: ج ٥ ص ٤٢٨، الدر المنثور: ج ٤ ص ٢٥٦

(٢٠) بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٣٠٤

(٢١) منية المريد: ص ٣١٨، الكافي: ج ٢ ص ٢٩٤

(٢٢) الكافي: ج ٢ ص ٢٩٣

(٢٣) تحف العقول عن آل الرسول: ص ١٨٥

(٢٤) سورة يوسف: آية ١٠٦

(٢٥) سورة النساء: آية ٤٨، آية ١١٦

(٢٦) راجع تفسير السيد العلامة الطباطبائي لهذه الآية المباركة

(٢٧) سورة المؤمنون: آية ٥٩

(٢٨) سورة غافر: آية ١٤ وآية ٦٥، سورة البينة: آية ٥

(٢٩) تفسير العياشي: مجلد ٢ ص ٢٠٠

(٣٠) تفسير نور الثقلين: مجلد ٢ ص ٤٧٥

(٣١) سورة الأنعام: آية ١٥٣

(٣٢) سورة الأعراف: آية ١٠٢

(٣٣) سورة البقرة: آية ٢٦ - آية ٢٧

(٣٤) عن أمير المؤمنين قال: «الفِسْـقُ عَلَى أرْبـعِ شُـعَـبٍ عَلَى الجَـفـاءِ والعَـمَـى والغَـفْـلَـةِ والعُـتُـوِّ» - تحف العقول: ص ١٦٦، الكافي: ج ٢ ص ٣٩١

(٣٥) لا محض العبودية، فالعبودية حقيقة ذاتية ثابتة في العبد لا مقام كسبي، وحال يستصحبه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً﴾ - سورة مريم: آية ٩٣، فكل ما سوى الله عبد لله سواء كان مطيعا أو مخالفا، ولا يزال العبد عبدا وإن خرج عن لوازمها.

(٣٦) كما جاء في أدعية المعصومين: «يا مَنْ هُوَ عالٍ في دُنُوِّهِ ودانٍ في عُلُوِّهِ» وما شابه.

(٣٧) سورة التوبة: آية ١١١

(٣٨) سورة الأعراف: آية ١٧٢

(٣٩) سورة العصر: آية ١ - آية ٢

(٤٠) سورة العصر: آية ٣

(٤١) سورة النجم: آية ٣٧

(٤٢) عن أبي عبدالله﵇ في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال: إنَّهُ كانَ يقولُ إذا أصْبَحَ وأمْسَى أصْبَحْتُ ورَبِّي مَحْمودٌ لا أشْرِكُ بالله شيئاً ولا أدْعُو مَعَ الله إلهاً آخَرَ ولا أتَّخِذُ مِنْ دونِ الله وَلِيَّا - علل الشرائع: ص٣٧، تفسير البرهان: مجلد٥ ص٢٥٤، الكافي: ج٢ ص٥٣٤ عن أبي جعفر﵇ مثله.

(٤٣) بحار الأنوار: ج ٣٩ ص ٨٤، وتمام الحديث: «يَا عَلِيُّ مَا عَرَفَ اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ غَيْري وغَيْرُكَ وما عَرَفَكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ غَيْرُ الله وغَيْري»

(٤٤) سورة الأنفال: آية ٧١

(٤٥) سورة الأنفال: آية ٢٧

(٤٦) بصائر الدرجات: ج ٢ باب ٣ ص ٨١، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٢٤٦، وروى الشيخ الصدوق في التوحيد عن ابن أبي يعفور قال قال أبو عبدالله﵇: «إنَّ اللهَ واحِدٌ أحَدٌ مُتَوَحِّدٌ بالوَحْدانِيَّةِ مُتَفَرِّدٌ بأمْرِهِ خَلَقَ خَلْقاً فَفَوَّضَ إلَيْهِمْ أمْرَ دينِهِ فَنَحْنُ هُمْ، يا ابْنَ أبي يَعْفور نَحْنُ حُجَّةُ الله في عِبادِهِ وشُهُداؤُهُ عَلَى خَلْقِهِ وأمَناؤُهُ عَلَى وَحْيِهِ وخُزَّانُهُ عَلَى عِلْمِهِ وَوَجْهُهُ الَّذي يُؤْتَى مِنْهُ وعَيْنُهُ في بَرِيَّتِهِ ولِسانُهُ الناطِقُ وبابُهُ الَّذي يَدُلُّ عَلَيْهِ نَحْنُ العالِمونَ بأمْرِهِ والدَّاعُونَ إلَى سَبيلِهِ بنا عُرِفَ اللهُ وبنا عُبِدَ اللهُ نَحْنُ الأدِلاَّءُ عَلَى الله ولَوْلانا ما عُبِدَ اللهُ» - التوحيد: ص ١٥٢

(٤٧) روى العياشي والكافي عن الصادق﵇ في تفسير الآية ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي أوْفِ لكم بالجنة - تفسير العياشي: ج ١ ص ٤٢، الكافي: ج ١ ص ٤٣١ رواية ٨٩

(٤٨) سورة الفتح: آية ١٠

(٤٩) رياض السالكين: ج ٤ ص ٣١٧

(٥٠) بصائر الدرجات: ج ٨ باب ١٧ ص ٤٣٣، وجاء في بعض الروايات أنه﵌ قال: «إنِّي تَارِكٌ فيكُمْ مَا إن تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَن تَضِلُّوا بَعْدِي أبَداً كِتابَ الله وعِتْرَتي أهْلَ بَيْتِي» - وهذا حديث متفق عليه بين الفريقين نذكر بعض مصادرها: مستدرك الوسائل: ج ٧ ص ٢٥٤، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٢٣، أمالي الشيخ المفيد: المجلس ٦ ص ٤٦، صحيح مسلم:٢/ ٢٣٧، صحيح الترمذي: ٢/ ٢٢٠، سنن الدارمي: ٢/ ٤٣١، كنز العمال: ١٥/ ٩١، حلية الأولياء: ١/ ٣٥٥، نهاية ابن الأثير: باب الثاء والقاف مادة ثقل، وإتمام الحديث في بعض الروايات: «.... فانظُرُوا كيفَ تُخَلِّفوني فيهما» وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٨٨، وعن رسول الله﵌ قال: «أيُّها الناسُ إنِّي تاركٌ فيكُم حُرُماتِ الله كِتابَ الله وعِتْرَتي والكَعْبَةِ البيتِ الحَرامِ» ثم قال أبو جعفر﵇: «أمَّا كِتابَ الله فَحَرَّفوا وأمَّا الكَعْبَةَ فَهَدَمُوا وأمَّا العِتْرَةَ فقَتَلُوا وكُلَّ وَدائِعِ الله فَتَبَّرُوا» - بصائر الدرجات: ج ٨ باب ١٧ ص ٤٣٣، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ١٤٠.

(٥١) بحار الأنوار: ج٣ ص٨٩، وفي الحديث: «تَعَلَّمُوا كِتابَ الله وتَعاهَدُوهُ» - مسند أحمد بن حنبل: ج ٤ ص ١٤٦، وروى مسلم الحديث: «تعاهَدوا القُرآنَ» - صحيح مسلم ج ١ ص ٥٤٥، وقال النووي في شرحه (نقلا بالمعنى) أي حافظوا عليه بتجديد العهد والتلاوة لئلا يُنسى - شرح صحيح مسلم للنووي: ج

٦ ص ٧٧.

(٥٢) مرآة العقول: ج ٢ ص ٣٤، الكافي: ج ٢ ص ٦٠٩

(٥٣) رياض السالكين: ج ٥ ص ٤٥١، وجاء في بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٣١: «وَمَنْ طَلَبَ الهُدَى في غَيْرِهِ أضَلَّهُ اللهُ».

(٥٤) سورة الفرقان: آية ٣٠

(٥٥) النهاية لابن الأثير: ج ١ ص ٨٣، عن الصادقعليه السلام عن أبيهعليه السلام قال قال النبيصلى الله عليه وآله: «إنَّ أهْلَ القُرآنِ في أعْلَى دَرَجَةِ الآدَمِيِّينَ ما خَلا النبيِّين والمُرْسَلين فَلا تَسْتَضْعِفُوا أهْلَ القُرْآنِ حُقوقَهم فإنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ لَمَكاناً» - بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ١٨٠

(٥٦) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ١٣٦، والماحل أي الخصم المجادل، ويراد به أيضا الشاكي وقد يكون بمعنى الماكر كما جاء في قوله تعالى: ﴿.... وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ - سورة الرعد: آية ١٣ - أي شديد المكر.

(٥٧) راجع مجمع البيان: مجلد ٤ ص ٤٠٨ في تفسير الكريمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا....﴾ - سورة فاطر: آية ٣٢

(٥٨) سورة الفرقان: آية ٢٧ - آية ٢٩، وفي خطبة لأمير المؤمنينعليه السلام المعروفة بخطبة الوسيلة يقول فيها في تعقيب الآية: «أنا الذِّكْرُ الَّذي عَنْهُ ضَلَّ والسَّبيلُ الَّذي عَنْهُ مالَ والإيمانُ الَّذي بهِ كَفَرَ والقُرآنُ الَّذي إيَّاهُ هَجَرَ والدِّينُ الَّذي بهِ كَذَّبَ والصِّراطُ الَّذي عَنْهُ نَكَبَ» - تفسير نور الثقلين: مجلد ٤ ص ١٢، كنز الدقائق (للشيخ القمي المشهدي): مجلد ٩ ص ٣٨٩، الكافي: ج ٨ ص ٢٨ رواية ٤

(٥٩) مستدرك الوسائل: ج ٥ باب ٣٦ ص ٣٥٨ رواية ٦٠٨١

(٦٠) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٣١، التوحيد: ص ١١٨

(٦١) بصائر الدرجات: ج ٨ باب ١٧ ص ٤٣٢، ومنه بحار الأنوار: ج ٧ ص ٢٦٥، وجاء في تفسير القمي مجلد٢ ص٤٤٠ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ - سورة التكاثر آية ٨- قال تُسأل هذه الأمة عما أنعم الله عليهم برسول اللهصلى الله عليه وآله ثم بأهل بيتهعليهم السلام، وجاء في تفسير القمي أيضا مجلد٢ ص٢٢٢ لقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ - سورة الصافات آية ٢٤ - يعني عن ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام، وجاء مثله من طريق العامة ونقلها أبو نعيم الإصفهاني في كفاية الخصال: ص ٣٦٠ وابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: ص ١٤٧ والعلامة سبط ابن الجوزي في التذكرة: ص ٢١ والألوسي في روح المعاني في تفسير الآية، وعبدالرزاق الحنبلي في كشف الغمة: ص ٩٢ والحاكم الحسكاني عن أبي سعيد الخدري وعن ابن عباس وعن سعيد بن جبير كلهم عن النبيصلى الله عليه وآله.

(٦٢) عيون الأخبار: ج ١ ص ٣١٣ باب ٢٨، بحار الأنوار: ج ٢٤ ص ٢٧١، تفسير البرهان: مجلد٥ ص١٦، وروى صاحب مشارق الأنوار عن رسول اللهصلى الله عليه وآله أنه قال: «وأنَّ في السَّماءِ الرابعَةِ مَلَكٌ يَقولُ في تَسْبيحِهِ: سُبْحانَ مَنْ دَلَّ هذا الخَلْقَ القَليلَ مِنْ هذا العالَمِ الكَبيرِ عَلَى الفَضْلِ الجَليلِ».

المنزل (٣٣)

خُلودُ المحب

قال الراغب في المفردات الخلود تبري الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وقيل أيضا هو دوام الثبات والبقاء اللازم الذي لا ينقطع.

يقول الحكيم الإلهي والعارف الصمداني صدر المتألهين الشيرازي (قده) في أسفاره في حب الإنسان للحياة الأبدية والبقاء الخالد:

إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى جَعَلَ بحكمتِه الإلهيَّة في طبْعِ النفوسِ البشريَّة محبَّةَ الوجودِ[١] والبقاءِ، وجَعَلَ في جبلَّتها كَراهَةَ الفَناءِ والعَدَم، وهذا حقٌّ لِمَا عَلِمْتَ أنَّ طبيعةَ الوجودِ خيرٌ مَحْضٌ ونَورٌ صِرْفٌ وبقاؤه خيريَّةُ الخيرِ ونوريَّةُ النورِ، والطبيعةُ لَمْ تَفْعَلْ شيئاً باطِلاً، وكلَّما ارْتكَزَ فيها لابُدَّ أنْ يكونَ له غايةٌ يترتَّبُ عليهِ وينتَهي إليها، فعُلِم مِنْ هذا أنَّ مَحَبَّةَ النفوسِ للبقاءِ وكَراهَتَها للموتِ ليسَ إلاَّ لِحِكْمةٍ وغايةٍ هي كونها عَلَى أتمِّ الحالاتِ وأكْمَلِ الوجوداتِ، فكَونُ النفوسِ مَجْبولَةٌ عَلَى طَلَبِ البَقاءِ ومحبَّةِ الدوام دَليلٌ عَلَى أنَّ لَها وجوداً أخْرَوِيًّا باقِياً أبَدَ الدهْرِ، وذلك لأنَّ بقاءها في هذه النشأةِ الطبيعيَّةِ أمْرٌ مُستحيلٌ، فلَوْ لَمْ يَكُنْ لها نَشْأةٌ أخْرَى باقيةٌ تنتقلُ إليها لَكانَ مَا ارْتكَزَ في النفسِ وأودِعَ في جبلَّتِها مِنْ مَحَبَّةِ البقاءِ السرْمَديِّ والحياةِ الأبديَّةِ باطِلاً ضائِعاً، ولا باطِلَ في الطَبيعةِ كما قالَهُ الحُكماءُ الإلهيُّون»[٢].

فالله تبارك وتعالى جعل في جِبِلَّة كل إنسان وأصل فطرته وخلقته وطبعه محبة الوجود والحياة الدائمة والمعيشة الأبدية، وجعل فيها الشعور بالضجر من انقطاعها وكراهة زوالها والجزع من العدم

أن تلحق بها، وهذه حقيقة من حقائق عالم الوجود التي لا بطلان فيها يشعر بها كل إنسان في باطنه، وهذه الحقيقة إن دلَّت على شيء فإنما تدلُّ على أن هناك حياة أبدية دائمة محفوظة من الموت ومصونة من الفناء يشتاق إليها كل إنسان ويتوق إليها من حيث فطرته الأولى، ولولا وجودها في عالم الخِلْقة والطبيعة كان ذلك الاشتياق عبثاً وباطلاً، وهذا بخلاف ما يقوله الحكماء الإلهيُّون بأن لا عبث في الوجود ولا باطل في الطبيعة ولا زائد لغير معنى، وإنَّ ما في العالم حق كله ومقصود لمعنى.

والنفوس البشرية حينما انحدرت من المَرقَى الشامخ الأعلى إلى مهاوي العالم الأدنى وهبطت من مَطالع أنوار القدس والجبروت إلى السُّكنَى في ظلمات الناسوت صارت بين عوالم مختلفة، عالم العقل وعالم الحس وعالم الخيال، فجعلت تجول في ميادين اللَّذات والمشتهيات والأمزجة باحثة عن ذلك الاشتياق الكامن إلى الخلود والبقاء، ولما كانت الحياة في هذه الدنيا فانية زائلة لا محالة بالموت الطبيعي كما جاء في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ....﴾[٣] أي الخلود في هذه الدنيا، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ....﴾[٤] بالانتقال من حال إلى حال ومن دار إلى دار، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[٥] فلا محيص لمخلوق عنه، فلابد أن تكون هناك حياة أخرى باقية خالدة لا موت فيها ولا زوال حتى تظهر حقيقة الاشتياق المكنون في باطن كل إنسان والتي أشار إليها الحي الباقي بقوله: ﴿.... وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ....﴾[٦].

ولكن سؤال يرد على أذهاننا: هل حاصل هذا الاشتياق الكامن في النفوس بالخلود والبقاء لا يتحقق إلا عقب الموت الذي كُتِب على كل نفس؟! أم أن للمحب العاشق المشتاق خلود خاص يسبق توقيته أجل الموت؟!

لابد أن نشير مقدَّما إلى أنواع اللذات وأقسامها ومراتبها وشرافة بعضها على بعض وعلى أثرها وبتوفيق من الله تعالى نبين حقيقة الخلود عند المحب:

اعلم أن اللذة إدراك لحصول الكمال الخاص بالقوة المدركة، والحواس الظاهرة آلات تُدرَك بقواها اللذات الحسية، والحواس الباطنة آلات تُدرَك بقواها اللذات الخيالية والوهمية، والقوة العاقلة تُدرَك بها اللذات العقلية وحقائق الأشياء كما هي.

وقوى الحواس الظاهرة خمسة هي: الباصرة- الشامة- الذائقة- السامعة- اللامسة، وقوى الحواس الباطنة خمسة هي: الخيال- الحس المشترك- الوهم- الحافظة- المتخيلة، وهناك أيضا قوى كامنة وهي سبعة: الجاذبة – الماسكة – الهاضمة – الدافعة – الغاذية – النامية – المولدة، وبإضافة قوتي الغضب والشهوة تصبح مجموع القوى تسع عشر قوة كلها تدعو النفس إلى طلب اللذات الجسمانية والخيالية والشهوانية، وتضاد هذه القوى قوة وحيدة تدعو النفس إلى الله تعالى وإلى طلب اللذات

الروحانية والعقلية وتتجلى فيها أنوار معرفة الله وهي القوة العاقلة.

وباعتبار آخر نقول أن للإنسان منازل ودرجات بحسب إدراكات قوى النفس وأغراضها ومراتب علوِّها وشرافتها أو دنوِّها وخساستها وهي أربعة:

النفس الملكية (القوة العقلية أو القدسية): وشأنها إدراك حقائق الأشياء على ما هي عليها وإدراك المعاني الكلية والذوات المجردة والمعارف الحقة والتمييز بين الخير والشر والحق والباطل وتسخير البدن على فعل الخيرات والعبادات والطاعات الإلهية ونفض أدناس علائق النشأة الفانية والتوجه إلى أمور الآخرة الباقية والخلوة مع الله والأنس بذكره ومناجاته وعشق المعارف الإلهية والمبادئ القدسية والتفكر في خلق الله وصنعه وآياته والتشوق إلى لقائه ومشاهدة أنوار جماله.

النفس السبُعِية (القوة الغضبية): وشأنها حب الرئاسة وبسط السلطة والقدرة والمنازعة والغلبة والظفر بالمطلوب والشعور بالحقد والحسد والبغضاء والتهوُّر والانتقام والتلبيس وحب تملُّك المال ورصده والشغف بجمعه وادخاره.

النفس الشيطانية (القوة الوهمية): وشأنها الميل إلى المكر والخديعة والوعود الكاذبة واستنباط الحيل ومزاولة المكائد بمختلف الوسائل والفنون، ومن شأنها أيضا الظن والرجاء والتمني.

النفس البهيمية (القوة الشهوية): وشأنها الحرص على لذات البطن والفرج وما شابههما.

وعلى الرغم أن النفس الإنسانية جبلت على حب البقاء على أتم الحالات التي هي عليها من ملكية أو سبعية أو شيطانية أو بهيمية، إلا أن في الإنسان القابلية والاستعداد وقوة الارتقاء للانتقال من حضيض أدنى درجات النفس أي النفس البهيمية إلى أوجها وهي النفس القدسية الملكية، ومن ثَمَّ الاشتياق إلى المرتبة العَلِية التي ارتقت إليها أكثر من اشتياقها إلى المرتبة الدنيَّة ما لم يُعِقْها عائق يمنعها من السير على الفطرة السليمة وما لم تطرأ عليها آفة تخرجها عن استقامتها، ولهذا فكل نفس اشتاقت إلى الكمال وارتفعت عن مرتبة الحسيات والشهوات الباطلة ثم ارتقت من مرتبة التخيلات الزائفة وكملت في العلم والمعرفة حتى تجردت عن كوني الحس والخيال ورفضت عالمي الطبيعة والمثال ووصلت إلى مرتبة العقليات العالية واستكملت بالمكاشفات النورية والمشاهدات العرفانية الذوقية واستحكمت فيها إدراك الحقائق اليقينية والمعارف الإلهية لا تحب الرجوع إلى ما كانت عليه في الأيام السالفة، بل تشعر بالندم وعدم الرضا على ما مضى من انغماسها في تلك المراتب السافلة وتتأذى إن هي أقبلت عليها رذيلة النقصان بعد الكمال.

فمن الناس من ترك مقتضيات القوى الحيوانية والجسمانية والوهمية المستخدمة في جذب اللذائذ الدنيوية والنفسية، وانقادت نفسُه بنور الإيمان إلى العقل السليم والعرفان، واستعْلَت بقوتيهما على

باقي القوى، بل قهرتها على متابعتها ومطاوعتها، واستنارت بأنوار عالم الملكوت، فكان بمنزلة الملائكة المقربين والرسل المكرَّمين، ومنهم من أخلد إلى الأرض راضياً بالحياة الدنيا ومألوفاتها راغباً في الأمور الطبيعية ومادياتها مطيعاً للقوى الحيوانية المجردة عن العقل والشرع وكان بينه وبين الفطرة الأولى بُعْد المشرقين، فلحِقَ بدرجة البهائم والأنعام بل كان أضلَّ سبيلا.

وفيما أوحى الله تبارك وتعالى لنبيه عيسى عليه السلام: «يا عيسَى!! لا خيْرَ في لَذاذَةٍ لا تَدُومُ وعَيْشٍ مِنْ صاحِبِهِ يَزولُ»[٧]!!

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «هَلَكَ خُزَّانُ الأمْوالِ والعُلَماءُ أحْياءٌ باقُونَ ما بَقِيَ الدَّهْرُ أعْيانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وآثارُهُمْ في القُلُوبِ مَوْجُودَةٌ»[٨]!!

وفي حديث المعصومين عليهم السلام: «في طَلَبِ الدُّنْيا ذُلُّ النُّفُوسِ وفي طَلَبِ الآخِرَةِ عِزُّ النُّفُوسِ، ويا عَجَباً لِمَنْ يَخْتارُ المَذَلَّةَ في طَلَبِ ما يَفْنَى ويَتْرُكُ العِزَّ في طَلَبِ ما يَبْقَى»!!

قال الحكيم سقراط: «قُلوبُ المُغْرَقينَ بالحَقائِقِ مَنابِرُ المَلائِكَةِ وبُطونُ المُتَلَذِّذينَ بالشَّهَواتِ قُبورُ الحَيَواناتِ الهالِكَةِ»!!

فبعض النفوس بعد نزولها أصبحت مشوبة بأحكام الطبيعة، ميَّالة إلى عالم الحس والمادة، مُعْرِضة عن السعادات العقلية والروحانية، مداوِمة على طلب البُغْيات العاجلة، ناقضة عهد ربها، مسافرة في صحبة هواها حتى أضلَّها عن سبيل الرشاد، فأخلدت إلى أرض الدنيا ونفرت عن دار الآخرة، وعشقت أمرا معدوما، وطلبت طلبا باطلا، وأحبَّت محبوبا مجازيا فانيا، واشتبه عليها زعمها بأن لمحبوباتها حقيقة، وظنت وهي في غاية الشقاء بانصرافها عن جانب القدس أنها وجدت منبع اشتياقها، وأن اللذات التخيلية والسعادات الوهمية التي يتمتع بها أصحابها هي الخالدة الباقية، فقالوا وهم محجوبون بالغفلة عن اللذات الحقيقية: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا....﴾[٩] ولكن الحق تبارك وتعاليذمَّهم وتوعَّدهم على ذلك وقال: ﴿إِنَّ هؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾[١٠].

وأما بعضها الآخر فقد وَفَت بعهد ربها، واتخذت سبيل الرشد والنجاة، ومالت إلى عالم العقل والمجرَّدات، واتصلت بالمبدأ الأعلى، وتجافت عن مضاجع الدنيا، واستوحشت عن مهابط اللذات الحسية، واضمحلت في عينها ظلال المحسوسات ورسوم المجازات الدنيَّة، وحنَّت إلى الابتهاجات العقلية واللذات المعنوية والمعارف الحقيقية، فرفرفت بجناحي العلم والعمل وبمعونة قوى البدن، وطارت بهما إلى عالم القدس وحظيرة القرب حيث الخلود الحقيقي والبقاء السَّرْمدي والسعادة

الأبدية والنعيم المقيم والوعد الإلهي الحق: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ....﴾(١١)!!

يقول الشاعر:

اگر لذّتِ ترك لذَّتْ بداني
دگر لذّتِ نفس لذّتْ نداني(١٢)

ولما كان الغالب على الطباع العامية أن أقوى اللذات وأكمل السعادات هي لذة الأكل والشرب والجماع وأنها المستعْلِية على باقي اللذات وأن ما عداها لذات ضعيفة بل منسوجات وهمية لا حقيقة لها حتى أن غالب المطيعين لأوامر الله والمنتهين بنواهيه لا يعبدونه إلا لأجل ما يجدوه من لذات المطاعم والمناكح في الدار الآخرة فقد جاء أهل الحكمة وأرباب القلوب بالحجج والبراهين لبيان شرافة اللذات العقلية وأفضليتها على اللذات الحسية والشهوية، ونشير إلى بعض ما جاء به العلامة المجلسي (قده) في «بحار الأنوار» من تلك الحجج والبراهين:

الحجة الأولى: لو كانت اللذة والسعادة متعلقة بقضاء الشهوة وإمضاء الغضب لكان الحيوان أشرف من الإنسان في هذا الباب، وهذا أمر مردود.

الحجة الثانية: كلما كانت أسباب اللذة والسعادة أكثر توفرا كانت اللذة والسعادة أكثر حصولا، فلو كانت السعادة متوقفة على قضاء شهوتي البطن والفرج فكلما كان الإنسان أكثر اشتغالا بهما كان أكمل سعادة وأقوى لذة، وهذا أمر مردود أيضا لأن الإنسان في هذه الحالة يكون كالبهائم المترددة بين هذه الشهوات في الدناءة والخساسة.

الحجة الثالثة: أن الحيوان يشارك الإنسان في لذات الأكل والشرب والجماع، فلو كانت هذه اللذات موجبة لكمال السعادة فلا فضيلة للإنسان على الحيوان في ذلك، بل إن الإنسان ينازعه عقله ويحبسه عن كثير مما يشتهيه والحيوان لا يحبسه شيء عن ذلك بل يقضيها بلا معارض فيكون أكمل في نيل هذه اللذات.

الحجة الرابعة: إذا بحثنا عن حقيقة هذه اللذات لوجدنا أن حاصلها ليس إلا دفع الآلام عن النفس، فالالتذاذ بالطعام ناتج عن الإحساس بألم الجوع، والالتذاذ بشرب الماء ناتج عن الإحساس بألم العطش، والالتذاذ بالجماع ناتج عن قِدم العهد بالوقاع، والالتذاذ بلبس الملابس الثقيلة أو الخفيفة ناتج عن الإحساس بألم البرد أو الحر، ولما كان الحال هكذا نقول أنه لا سعادة في هذه اللذات لأن الحالة السابقة هي حصول الألم، والأكل والشرب واللبس والجماع تدفع آلام النفس كالأدوية التي تدفع آلام البدن، فترجع حالتها إلى أصلها وطبيعتها، والراحة من الألم ليس كمال ولا سعادة.

الحجة الخامسة: أن العلم الضروري حاصل بأن سعادة الملائكة أكمل من سعادة الحيوانات والحشرات، ولا شك أن الملائكة منزَّهة عن هذه اللذات الحسية والشهوية، فلابد أن تكون السعادات في غير هذه اللذات والشهوات، ولما كانت هذه اللذات ممتنعة عن واجب الوجود سبحانه وتعالى فهذا دليل أقوى بأن هذه اللذات ليست مؤدية إلى الشرف والكمال، وإن قيل أن الكمال الإلهي بحكم الألوهية يختلف عن الكمال الإنساني قلنا أن لا نزاع أن حصول الكمال الإلهي مُحال على الخلق، إلا أن هناك حديثا قائلا بالتخلُّق بأخلاق الله والفلاسفة قالوا بالتشبُّه بصفاته، فغاية السعادة التشبُّه بالمبدأ الأعلى، ولا شك أن التقليل من نيل هذه الشهوات واللذات أقرب إلى الكمال والسعادة من الاستكثار منها.

الحجة السادسة: ما تقرر في عقول الناس أنهم إذا رأوا رجلا مصروف الهمة في طلب الأكل والشرب والوقاع وتحصيل الأسباب الموجبة للذات الجسمانية والبدنية حكموا عليه بالنزول إلى مرتبة البهائم، والعكس من ذلك إذا رأوا رجلا معرِضا عن الإفراط في الحصول على هذه اللذات إلا ما تصرف فيها على الوجه المشروع وسبيل العدل والعقل المقرِّب إلى الله تعالى وما تمسُّ إليه الحاجة مما تقوم به قوام هذا الجسم وما لم تكن لهوى النفس ومحض الشهوة الشاغلة عن ذكر الله قضوا عليه بالتقرب إلى مرتبة الملائكة، وهذا دليل على أن حصول هذه اللذات والإفراط فيها دناءة ونقص لا شرف وكمال.

الحجة السابعة: كل شيء كان في ذاته كمالا وسعادة وجب إظهاره والفخر به، والمعلوم أن لا أحد يفخر بكثرة الأكل والشرب والوقاع إلا من كان سفيها، ثم أن الوقاع لا يكون إلا في الخلوة فلا يقدم على إظهاره في الملأ أحد إلا اتُّهِم بالجنون، وعلى هذا فإن هذه الأفعال لا تُعَدُّ من الكمالات والسعادة[١٣].

وقد جاء في الكتب القديمة: «مِسْكِينٌ عَبْدِي يَسُرُّهُ ما يَضُرُّهُ»، فالعبد مسرورة نفسه بخدمة دواعي شهواتها من غير قيد ولا مراقبة، مغتبطة بالأنس بها من غير محاسبة ولا مواظبة، في حين أن ذلك ليس إلا ضرر عائد عليه لأن تلك الشهوات مقيدة بزمان حياته لا خلود فيها، وحياته الدنيا فانية لا محالة، فيدخل في ساحة المحشر ودار المقامة والخلود صفر اليدين خائب المقصد مردود المساعي لا يملك لنفسه شيئا، بل يحشر - والعياذ بالله - في زمرة البهائم والحيوانات.

يقول الشاعر:

أراكَ تَطْلُبُ دُنْيا لَسْتَ تُدْرِكُها
فَكَيْفَ تُدْرِكُ أُخْرَى لَسْتَ تَطْلُبُها

ومن اللذات التي يعتقد الإنسان أنها موجبة للخلود والبقاء والسعادة الأبدية هي لذة تكثُّر الأموال والبنين والأهل والعشيرة.

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ *﴾[١٤] فالذي لم يقنع من المال ما يرفع به حوائجه بل لحبه الغريزي بالبقاء اشتغل بتحصيله وجمعه وعدِّه وهو يحسب أنه يخلده في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَن يَحُورَ *﴾[١٥]، أي كان ناعما بشهواته ظانًّا أنها الغاية في وجوده وأنه لن يرجع إلى الله تعالى أبدا فيسرُّه ما يناله من متاع الدنيا ويختال بها وينسيه ذلك أمر الآخرة، وقد ذم الله تعاليالفرح بمتاع الدنيا الزائل والبطر في معاصي الله ونسيان الآخرة ونعيمها الدائم وسماه فرحا من غير حق، قال تعالى بعد ذكر آيات العذاب في النار: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[١٦].

وما أروع ما أشار إليه صدر المتألهين (قده) في بيان شرافة اللذات العقلية والروحانية على اللذات الحسية والخيالية قائلا:

«السعادةُ ربَّما يُظَنُّ بها أنَّها الفوزُ بالدرجاتِ الحسِّيَّة والوصولُ إلى الرياساتِ الخياليَّةِ وما أبْيَنَ لِمَنْ تحقَّقَ الأمورَ وتفطَّنَ بالمعارِفِ أنَّ السعاداتِ العاجليَّةَ واللَّذاتِ الحسيَّةَ الفوريَّةَ ليسَ شيءٌ منها سعادةً حقيقيَّةً ولا ينالها بهجةٌ عَقليَّةٌ بسببِ انْحصارِها في عالَمِ الغربَةِ ووجودِها في دارِ الجسَدِ واحتباسِها عن مُلاحظةِ جَمالِ الأبدِ ومعاينةِ الجَلالِ السرْمَدِ ولا شكَّ أنَّ أقْصَى غايَةٍ يتأتَّى لأحَدِ الموجوداتِ الوصولُ إليها هو الكَمالُ المُخْتَصُّ به والمُلائِمُ المنسوبُ إليه وكلَّما انْحَطَّ عنه فهو نقصانٌ بالحقيقةِ فيه، ولنوعِ الإنسانِ كمالٌ خاصٌّ لِجَوهَرِ ذاتِهِ وحاقِّ حقيقَتِهِ لا يفوقُها فيه فائِقٌ ولا يَسْبِقُ به عليها سابِقٌ وهو الاتِّصالُ بالمَعْقولاتِ ومُجاوَرَةُ الباري والتجَرُّدُ عن المادِّيَّاتِ»[١٧].

هر كه امروز معاينه رخ دوست نديد
طفل راهيست كه او منتظر فردا شد[١٨]

وقال بعض أرباب القلوب: لا ريْبَ أن اللَّذةَ العقليَّةَ أتمُّ وأعْظَمُ من الحسيِّة بما لا يتناهَى، والترَقِّي إلى الله تعالى بالأعْمالِ الحميدةِ والأخْلاقِ المجيدةِ ولذَّةُ مُناجاتِهِ السعيدَةِ مِنْ أفْضَلِ الكمالاتِ وأعْظَمِ اللَّذاتِ، فمِنَ العَجَبِ كيفَ جَعَلَ اللهُ عَلَى طاعَتِهِ وما يُتَقَرَّبُ إليهِ جَزاءً!! فإنَّ الدالَّ عَلَى الهُدَى فَضْلاً عَن المُوَفِّقِ والمُمِدِّ عَلَى فِعْلِهِ أوْلَى بأنْ يكونَ لَهُ الجَزاءُ لا عَلَيْهِ، لَكِنْ بسْطَةَ جُودِهِ وسِعَةَ رَحْمَتِهِ اقْتَضَى الأمْرين

مَعـاً، قـالَ تعالَى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾[١٩]، فانظُرْ كَيْفَ أفادَ إحْسـاناً وَسَمّاهُ جَزاءً؟! واقْضِ حَقَّ العَجَبِ مِنْ ذلِكَ واشْكُرْ مَنْ سَلَكَ بِكَ هذِهِ المَسالِكَ»[٢٠].

وخلاصة القول أن الطبيعة الإنسانية مؤلفة من جانبين جمع بينهما في حقيقة وجودية واحدة، جانب ناسوتي وجانب لاهوتي، أو بمعنى آخر جانب مادي جسماني وآخر مجرَّد روحاني، والجانب الأول يتناسب والبقاء في هذا العالم الفاني حتى يدركه الموت، وأما الجانب الثاني فينتقل به إلى عالم البقاء الدائم والخلود الأبدي، فإذا تخلَّت النفس عن الظلمات الجسمانية بأسرها وصَفَت عن الكدورات الطبيعية بتمامها وطهرت من العوارض المادية بأكملها وتحلَّت بالفضائل الأخلاقية والمحامد السنِيَّة وأغمضت عينٌ عن لذات الدنيا وفتحت الأخرى على الملكوت الأعلى سطعت عليها لمعات أنوار الجمال وبرقت لها شعاعات ضياء الجلال وانكشفت لها حقائق الأشياء فابتهجت بما يرِدُ عليها من فيوضات الرحمن وأنِسَت بلقاء الملك المنان وسعدت بجواره وتنعَّمت بقربه فلم تبالِ بنعيم الدنيا الزائلة ولم تنخدع بلذاتها الفانية ولم تَخَفْ فَقْد محبوب ولم تحزن على فوت مطلوب.

قال الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيهﷺ: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[٢١]، فحبَّب إليه رزق ربه الأسعد عنده والموصوف بالخير والبقاء والخلود[٢٢].

قال مولانا الإمام الصادقعليه السلام: «لَوْ يَعْلَمُ النـاسُ ما في فَضْلِ الله تعالَى ما مَدُّوا أعْيُنَهُمْ إلَى ما مَتَّعَ بِهِ اللهُ مِنَ الأعْداءِ مِنْ زَهْرَةِ الحَياةِ الدُّنْيا ونَعيمِها وكانَتْ دُنْياهُمْ عِنْدَها أقَلَّ مِمّا يَطَؤونَهُ بأرْجُلِهِمْ وَلَنَعِمُوا بمَعْرِفَةِ الله تعالَى وتَلَذَّذوا بها تَلَذُّذَ مَنْ لَمْ يَزَلْ في رَوْضاتِ الجِنانِ مَعَ أوْلِياءِ الله، إنَّ مَعْرِفَةَ الله أُنسٌ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ وَصاحِبٌ مِنْ كُلِّ وَحْدَةٍ وَنورٌ مِنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ وَقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ وَشِفاءٌ مِنْ كُلِّ سُقْمٍ»[٢٣].

وقال مولانا علي بن الحسينعليه السلام: «إنَّ جَميعَ ما طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ في مَشارِقِ الأرْضِ ومَغارِبِها بَحْرِها وبَرِّها وسَهْلِها وجَبَلِها عِنْدَ وَلِيٍّ مِنْ أوْلِياءِ الله وأهْلِ المَعْرِفَةِ بحَقِّ الله كَفَيْءِ الظِّلالِ»[٢٤].

جاء في بعض رسائل صدر المتألهين (قده) هذه الأبيات:

گه كنى يك رَه نظر در شهر جان
نِفْرت آيد مَر تو را زين خاكدان
گر بيندازى نگاهى سوى دل
كم شوى در كار دنيا مشتغل

گر بيابى ذوق معنى يك نفس
تلخ گردد بر مذاقت هر هوس
گر ز طيب شهر جان آگه شوى
زين رياحين جهان تو نشنوى
گر سماع نغمه مستان كنى
گوش دل با سوى اين دستان كنى
ميل دنيا كَر كند كَمره شود
از خساست همجو خاك ره شود[٢٥]

قال المولى عزَّ وجلَّ في حديث قدسي: «يـا ابْـنَ آدَمَ، أنـا حَيٌّ لا أمـوتُ أطِـعْـنـي فـيـمَـا أمَـرْتـُـكَ أجْـعَـلُـكَ حَـيًّـا لا تَـمـوتُ»[٢٦]!!

فخلـود العارف يبدأ قبل قيام السـاعة، يوم يموت موتا اختياريًّا، ويفنى عن كل ما سـوى الله فناء كليًّا، ويتوجه إلى المبدأ الأعلى توجها دائميًّا، ويرجع إلى بارئه رجوعا شوقيًّا، ويبقى مع ربه بقاء أبديًّا، فلا يقطع سيره عارض الموت الذي كتب على كل نفس، بل يخرج من دار الفناء وحطامها باختياره ولا يزال بدنه بين جدرانها، ويدخل دار السلام ونعيمها، فذلك اليوم عند العارف يوم الخلود.

هرگز نميرد آنكه دلش زنده شد به عشق
ثبت است بر جريده عالم دوام ما[٢٧]

ويقـول العرفـاء: أن لأهل الشـهود من المؤمنين لقاء يتحقق قبل قيام السـاعة لأنهـم قوم ماتوا عن إنياتهم وتعيناتهم في هذه الدار وتجردوا عن طبائعهم وخلعوا هيئاتهم النفسانية والطبيعية فأحياهم الله بحياته وشاهدوا جمال وجهه الباقي في كل شيء، ومن كان هذا نعته فهو حي خالد بخلود الحق!!

إلـهـي!! عَجَبـاً لِقُلوبٍ سَـكَـنـَت إلَى الدُّنْيـا وتـرَوَّحَتْ بـِرَوْحِ الـمُـنـَى وقَـدْ عَـلِـمَـتْ أنَّ مُـلْـكَـهـا زائِـلٌ ونَـعيمَها راحِـلٌ وظِـلَّـها آفِـلٌ وسَـنـَدَها مـائِـلٌ وحُـسْـنَ نَـضـارَةِ بَـهْـجَـتِـها حـائِلٌ وحَقيقـتَـها بـاطِـلٌ كـيـفَ لا يَـشْـتـاقُ إلى رَوْحِ مَـلَـكوتِ الـسَّـمـاءِ!! وأنـَّى لَـهُـمْ ذلِـكَ وقَـدْ شـَغَـلَـهُـم حُـبُّ الـمَـهـالِـكِ وأضـَلَّـهُـم الـهَـوَى عَـنْ سَـبـيـلِ الـمَـسـالِـكِ!!

إلـهـي!! اجْـعَـلْـنـا مِمَّـنْ هـامَ بذِكْـرِكَ لُـبُّـهُ وطـارَ مِنْ شـوقـهِ إلَيْكَ قَـلْـبُـهُ فَاحْـتـَوَتـْهُ عَلَيْـهِ دَواعِـيَ مَحَبَّـتِـكَ فَحَصَـلَ أسـيراً في قَـبْـضَـتِـكَ فَـأوْزِعْـني شـُكْـرَكَ ولا تـُؤمِـنـّي مَكْرَكَ ولا تـُنْسِـني ذِكْـرَكَ وجُـدْ بمـا أنـتَ أوْلَـى أنْ تـَجـودَ بـِهِ يـا أرْحَـمَ الراحِـمـيـن.

الهوامش

(١) يقول الحكيم السبزواري (قده) في حاشية الأسفار: أي جَعَلَ في فطرتِها محبَّةَ الوجودِ الحيِّ القيُّومِ الباقي، وهذا الوجودُ المجازيُّ والحياةُ العَرَضِيَّةُ والبَقاءُ المتشابكُ بالفَناءِ لمَّا كانَتْ أظْلالُ الوجودِ الحيِّ القيُّومِ الباقي كانت النفوسُ مُحِبَّةً عاشِقَةً لها (أي للوجود المجازي) وكارِهَةً عَنْ مُقابلاتِها، لكِنْ أينَ الجَمالُ والجَلالُ مِنَ الظِّلالِ سِيَّما الظِّلالُ النازِلُ في الغايَةِ!!

(٢) الأسفار الأربعة: مجلد ٩ ص ٢٤١

(٣) سورة الأنبياء: آية ٣٤

(٤) سورة آل عمران: آية ١٨٥، سورة الأنبياء: آية ٣٥، سورة العنكبوت: آية ٥٧

(٥) سورة الزمر: آية ٣٠

(٦) سورة العنكبوت: آية ٦٤

(٧) الكافي: ج ٨ ص ١٣٥، تحف العقول: ٤٩٧

(٨) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٣٤٦

(٩) سورة المؤمنون: آية ٣٧

(١٠) سورة الإنسان: آية ٢٧

(١١) سورة السجدة: آية ١٧

(١٢) الترجمة:

إذا علمت أن اللذة في ترك اللذة
فسوف تعلم أن لذة النفس ليست بلذة

(١٣) مقتبس من بحار الأنوار: ج ٦١ ص ١٢٧

(١٤) سورة الهمزة: آية ٢ – آية ٣

(١٥) سورة الانشقاق: آية ١٣ – آية ١٤

(١٦) سورة غافر: آية ٧٥، قال الراغب: الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية، والمرح شدة الفرح والتوسع فيه، وذهبت جماعة إلى اعتبار المرح حالة من الفرح المتزامن مع نوع من الطرب والاستفادة من النعم الإلهية في طريق الباطل، والفرح إما أن يكون حقا فيحمد عليه أو يكون باطلا فيذم عليه، لذا جاء في الآية مقيدا بكلمة ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وأما المرح فلا يكون إلا لهوا وباطلا فهو مذموم، لذا جاء في الآية مطلقا.

(١٧) الأسفار الأربعة: مجلد ١ ص ١

(١٨) الترجمة:

مــن لم يــر الــيــوم وجــه الحــبــيــب مــعــايــنــة
فــهــو طــفــل يــنــتــظــر طــلــوع الــغــد!!

(١٩) سورة الرحمن: آية ٦٠

(٢٠) رياض السالكين: ج ٢ ص ٥٠٤

(٢١) سورة طه: آية ١٣١

(٢٢) قال أبو عبدالله الصادقؑ: لما نزلت هذه الآية استوى رسول اللهﷺ جالسا ثم قال: «مَنْ لَمْ يَتَعَزَّ بِعَزَاءِ الله تَقَطَّعَتْ نفْسُهُ عَلَى الدُّنْيا حَسَراتٍ وَمَنْ أَتْبَعَ بَصَرَهُ ما في أَيْدي النَاسِ طالَ هَمُّهُ وَلَمْ يَشْفِ غَيْظُهُ وَلَمْ يَعْرِفْ أنَّ لله عَلَيْهِ نِعْمَةٌ إلاَّ في مَطْعَمٍ أوْ مَشْرَبٍ قَصُرَ أَجَلُهُ ودَنا عَذابُهُ» - تفسير القمي: مجلد ٢ ص ٦٦، تفسير البرهان: مجلد ٤ ص ٤٩، وقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وزينة الفسقة في اللباس والمركوب وغير ذلك - تفسير مقتنيات الدرر: مجلد ٧ ص ١٣١، وقال بعض الزهاد: يجب غض البصر عن أبنية الظلمة وملابسهم المحرمة لأنهم اتخذوا ذلك لعيون النظارة فالناظر إليها محصِّل لغرضهم وكأنه يحملهم على اتخاذها - تفسير جوامع الجامع: مجلد ٢ ص ٤٤٣

(٢٣) الكافي: ج ٨ ص ٢٤٧

(٢٤) تحف العقول: ص ٣٩١، ومنه بحار الأنوار: ج ١ ص ١٤٤

(٢٥) الترجمة:

لــو تــلــقــي نــظــرة واحــدة إلى ديــار الــروح
لشــعــرت بالنفــور من كــومــة الــتــراب
لــو تــلــقــي نــظــرة واحــدة إلى الــقــلــب
لــمــا اشــتــغــلــت بــالــدنــيــا إلا قــلــيــلا
لــو تجــد ذوق المــعــنــى بــنَــفَــس واحــد
لــشــعــرت في مــذاقــك مــرارة كــل هــوى
لــو تــدرك طــيــب عــالــم الــروح
لــمــا شــمــمــت ريــاحــين هــذا الــعــالــم
لــو تــســمــع نــغــمــات الــســكــارى
لــوجَّــهــت ســمــع قــلــبــك جِــهــتــهــم
مــن مــال إلى الــدنــيــا تــعــرَّض للضيــاع
وكــان مــن الخــســاســة كــتــراب الــطــريــق

(٢٦) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٧٦

(٢٧) الترجمة:

لم يــمــت أبــــدا مــن أحــيــا قــلــبــه بــالحـــب والــعــشــق

فــقــد كُــتــب خــلــودنــا في صحيفة الــعــالم والــكــون.

المنزل (٣٤)

شَوقُ المحب

كُلُّ الجِهاتِ لِشَمْسِ حُسْنِكَ مُشْرِقُ
ولِكُلِّ ذي قَلْبٍ إلَيْكَ تَشَوُّقُ
يا واهِبَ الحُسْنِ البَديعِ لأهْلِهِ
كُلٌّ لِحُسْنِكَ في الحَقيقَةِ يَعْشَقُ

الشوق والاشتياق لغةً نزاع النفس إلى الشيء وتوقانه إلى تحصيله، والتشوق هيجان الشوق، وأما عرفاناً فهو احتياج القلب إلى لقاء المحبوب، وشوق المحب لله هو حركة الروح في طلب لقائه، ورجاء اللقاء يقتضي تلك الحركة، ولما كان وقوع اللقاء مؤكَّدا كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ....﴾[1] فتحققه لا يكون إلا بالفناء عن النفس وهو الموت الحقيقي[2].

وعلى هذا فالشوق حركة روحانية إلى لقاء المحبوب إذا كان المحبوب هو الله سبحانه، وحركة جسمانية حسية إلى لقاء المحبوب إذا كان ذلك المحبوب من شكله، وفي كلا الحالين لابد أن يكون المشوَّق إليه موجودا معلوما لا معدوما مجهولا، لأن الشوق للمعدوم المحض والطلب للمجهول المطلق مستحيل.

والشوق من مستلزمات المحبة وأوصافه، فكل محب مشتاق وكل مشتاق محب، ومن ليس بمشتاق ليس بمحب ومن ليس بمحب ليس بمشتاق، وازدياد أحدهما ازدياد للآخر ونقصانه نقصان للآخر، ولتقريب المعنى يمكن تصور ذلك كدائرة نصف محيطها يسمى المحبة ونصفه الآخر الشوق، واكتمال الدائرة يستلزم تناسبا بينهما تناسبا طرْدِيًّا، فحاصل ازدياد الشوق ازدياد المحبة وحاصل ازدياد المحبة ازدياد الشوق حتى تكتمل الدائرة صحيحة لا عِوَج فيها.

وكذلك التلازم والتناسب المؤكد بين الشوق والمعرفة، فالشوق سبيل لمعرفة الله تعالى، والحركات الشوقية موجبة للمعارف الإلهية والعلوم اليقينية والحقائق الكشفية، قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ اشْتاقَ خَدَمَ ومَنْ خَدَمَ اتَّصَلَ ومَنْ اتَّصَلَ وَصَلَ ومَنْ وَصَلَ عَرَفَ»[٣]!!

وبطريقة عكسية فإن الشوق إلى الحق تبارك وتعالى على قدر حبه، وحبه على قدر تجلِّيه، وتجلِّيه على قدر معرفته، والعارف بالله الفاني في الله أبدا ناظر إلى ربه عرفانا وحبا وعشقا وشوقا، فيتجدد طرب الأشواق في قلبه بتجدد الواردات القدسية في ذاته وبحكم حقيقة المعيَّة الإلهية المتجلية في الآية المباركة: ﴿.... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ....﴾[٤]!!

ونستفيد في دقائق بحثنا هذا من أقوال أكابر العارفين والحكماء الإلهيين لا سيما ما نقله الحكيم الإلهي صدر المتألهين (قده) في أسفاره والذي حكى في هذا المطلب مستوفيا، وسنبين طرْفاً منها بقدر ما تمس الحاجة إليها إن شاء الله تعالى.

في بيان الفرق بين الشوق إلى ما هو متعلق بأمور الدنيا ولذَّاتها والشوق إلى الله تعالى وما يُنسَب إليه يقول صدر المتألهين الشيرازي (قده):

«لا يخْفَى عليكَ أنَّ كلَّ مُحِبٍّ لشيءٍ مِنَ الأشياءِ الدنيَوِيَّةِ مُشتاقٌ إليهِ هائِمٌ به عِندَ الفُقْدانِ وأنَّه مَتَى ما وَصَلَ إليهِ ونالَ ما يَهْواهُ مِنْهُ حَصَلَ مَقْصودَهُ وبَلَغَ حاجتَهُ مِن الاسْتِمْتاعِ والتلَذُّذِ بقُرْبِه فإنَّه لابُدَّ يوماً أو ساعةً أن يُفارِقَه ويَمِلَّه أو يتغيَّرَ عليهِ ويَذْهَبَ عنهُ تِلْكَ الحَلاوَةُ ويَتَلاشى لهُ البشاشةُ ويَخْمَدَ لَهيبُ ذلكَ الاشْتياقِ والهَيَجانِ وربَّما يَصيرُ عينُ ما هو المَحْبوبُ وبالاً وآفةً علَى المحِبِّ ومَرَضاً وعِلَّةً لهُ ورُبَّ معشوقٍ آدَمِيٍّ صارَ مِنْ أعْدَى الأعْداءِ وأوحَشَ الأشياءِ عندَ مُحِبِّه، إلاَّ المُحِبينَ لله والمُؤمنينَ بآياتِه والمُشْتاقينَ إلَى لِقائهِ مِنْ عِبادِهِ وأوليائِهِ الصَّالِحينَ، فَإنَّ لَهُمْ كُلَّ يوم مِنْ مَحْبوبِهِمْ قُرْبَةً، وكُلَّما قَرِبُوا منْهُ ازْدادَ شَوقُهُمْ وقَوِيَ عِشْقُهُمْ، وكُلَّما ازْدادَ الشَّوقُ ازْدادَ القُرْبُ وهكَذا إلَى أبَدِ الآبادِ كَما في قولِهِ تعالَى: ﴿والَّذِينَ آمَنُوا أشَدُّ حُبًّا لله﴾، وأشارَ إلَى حالِ المُحِبِّينَ سِواهُ بقَولِهِ: ﴿.... كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً....﴾»[٥]!!

يقول أهل معرفة الله أن كل ممكنات عالم الوجود موجودة بغيرها لا بذواتها ومفتقرة إلى الغني الموجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده حتيستكمل به ذواتها ويخرجها من العدم إلى الوجود ومن القوة إلى الفعل ومن النقص إلى الكمال وكل ما سوى الحق قاصر وعاجز وفقير ومستفيض يحتاج إلى مكمِّل ومتمِّم له، من أجل ذلك أودع الله تعاليفي ذات كل مخلوق توجُّها إلى تحصيل

الكمال وطلب التمام حسب قابليته وقوته الاستعدادية المناسبة له للتقرب إليه، ولابد أن يكون لهذا التوجه الغريزي والطلب الجبِلِّي غاية ونهاية لازمة، ولولا الغاية والنهاية المرجوَّة لكان ارتكاز التوجه والطلب في الغريزة والجِبِلَّة عبثا باطلا معطلا، ولكن - كما أشرنا سابقا - أنه لا عبث في الوجود ولا باطل في الطبيعة.

وبحكم أن كل موجود في عالم الوجود ناقص ومشتاق إلى كمال ذاته، وكلٌّ يرى كمال ذاته في ما هو أعلى منه وأشرف، وأن العشق والشوق إلى العالي سبب وجوده على كمالاته الممكنة، لذا يجعله غاية له يقصده ويعشقه ويشتاق إليه لنيل كماله المشتاق إليه، وهكذا تتدرج مراتب العشق والشوق من السافل إلى العالي ومن المعلول إلى العلة إلى أن تنتهي مدارج العشق ومقاصد الشوق إلى عشق واجب الوجود وقصده والشوق إليه، لذا فإن العشق والشوق سارٍ في جميع الموجودات، وكل الأشياء في النهاية عاشقة ومشتاقة إلى لقاء غاية الغايات وهو الحق سبحانه وتعالى طبعا وإرادة.

ومن أشعار صدر المتألهين (قده) في شوق الموجودات إلى موجِدِها:

از كمالش هفت گردون ذره اى
از نوالش هفت دريا قطره اى
هست دريا تشنه ديدار او
سوز خور از حسرت رخسار او
نور خورشيد از جمالش لمعه اى
آب دريا در فراقش دمعه اى
گريه باران ز شوق روى اوست
ناله رعد از هواى كوى اوست[٦]

وقال بعض العارفين: لَعَمْري إنَّ السَّماءَ بسُرْعَةِ دورانِها وشِدَّةِ وَجْدِها والأرضَ بفَرْطِ سُكونها لَسَيَّانٌ في هذا الشأنِ، ولَعَمْرُ إلهكَ لقد اتَّصَلَ بالسَّماءِ والأرْضِ مِنْ لَذيذِ ما نالَتا مِنْ تَجَلِّي جَمالِ الأوَّلِ ما طَرِبَتْ به السَّماءُ طَرَباً ورَقْصاً فَهي بَعْدُ وفي ذلك الرقْصِ والنشاطِ وغُشي به عَلَى الأرْضِ لِقُوَّةِ الوارِدِ فَأُلْقِيَتْ مَطْروحَةً عَلَى البِساطِ، وسَرَيانُ لَذَّةِ التجَلِّي عَبَّدَهُما، ومُشاهَدَةُ لطْفِ الأزَلِ هي الَّتي سَلَبَتْ أفْئِدَتَهما كما قيلَ في الشعْرِ:

فَذلِكَ مِنْ عَميمِ اللُّطْفِ شُكْرُ
وهذا مِنْ رَحيقِ الشَّوْقِ سُكْرُ[٧]

والإنسان - وهو المجموع لهذه الأشياء [٨] فمجموع لنقصاناتها بالتبع - مشتاق بكله إلى الجامع لجميع صفات الكمال المطلق والتام الحقيقة وفوق التمام الذي له الأسماء الحسنى وهو الحق الأعلى جلَّ ذكره، فإذا أدرك الإنسان حسن الباري وجمال أنواره وبهائه لرآه أحق الأشياء التي يشتاق إليها، وهذه مرتبة لم يصل إليها وإلى معرفتها وتصديقها والصدق فيها إلا الكمَّلين من العرفاء الواصلين.

وعـــده وصـــل تـــو را غـير بـه فـــردا انـداخـت

دارم اميـد كـز امـــروز بفـــردا نـرسـد [٩]

فالعجب كل العجب ممن عرف الله سبحانه وتعاليكيف يسلو عنه [١٠] وذاق حبه كيف يصبر عنه!!

يقول الحكماء أن في كل موجود عشقا طبيعيا وشوقا غريزيا، وبالعشق يُحفَظ كمال الموجود وبالشوق يُطلَب كمال المفقود، وحيث لا كمالَ إلا لله ولا استكمالَ موجودٍ إلا بالله فهو المقصود الحقيقي وإليه المصير.

ولكن هناك من غلبت عليه نشأة الحس والمادة، واستلذ بمألوفات الدنيا ومشتهياتها، وطلب حظوظ النفس ورغباتها، وظن أنها المقصودة، وزعم أن لمحبوباته الحقيقة، فمال عن عشقه الطبيعي وشوقه الغريزي للحق إلى عشقها والتمتع بها والشوق إليها عند فقدها والسرور عند الظفر بها، وهو غافل عن ربه، مطرود عن جناب قربه، وفاقد وجوده في قلبه كما هو فاقده في عينه فلم يره، وناسيه فلم يطلبه، والحقيقة أنه اشتبه عليه الأمر، وأن ما أحبه معدوم ومجازي، وما طلبه باطل لا حقيقة له، فالشوق إليه - كما يقول العرفاء - توهُّم باطل والباطل عدم.

وهناك من ارتقى عن المرتبة الأولى وغلب عليه رجاء ثواب الآخرة وتوقف طلبه عندها، فاشتاق إلى ما وعده الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله من نعيم الجنة وسرورها وحورها وقصورها وأشجارها وأنهارها، وعمل بتفاصيل الطاعات والعبادات وكسْب الخيرات، وغايته الوصول إليها والعيش فيها والتنعم بلذاتها وشهواتها، وهذه المرتبة مرتبة وسطية، لأن غاية شوقه الجنة المحسوسة بما فيها من حظوظ نفسه من المآكل والمشارب والمناكح، وشوقه إلى الحق في الحقيقة مشوب بأغراض النفس والهوى غير فارغ عن جميع ما يشغله عن الحق سبحانه مُعرض عن معرفته غير متأمل بباطنه إلى الحضرة الإلهية وحقائق أسمائه وصفاته وأفعاله.

وأما من ارتقى عن المرتبتين الأولين، ونصب نفسه مخلصا لله، ورفض الدنيا والآخرة، واشتاق إلى لقاء الله بعدما ضاق صدره لفراقه وهجرانه، وسلك مسلكا طالبا به الله بعد فقده وبعاده، واتخذ إلى موطنه الأصلي سبيل الرجوع بعد غربته وارتداده، وروَّض نفسه للتخلي عن كل

الهمومـات إلا همًّـا واحدا، ونفـى عن قلبه كل المحبوبـات إلا محبوبا واحدا، هنالك يفتح الله له سـبل اللقـاء حيث يقول وقوله الحـق: ﴿والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينـَا لَنَـهْدِيَنـَّهُمْ سُـبُلَنَـا....﴾[١١] بأن يفيض عليه مـن عطفـه ورحمتـه ولطفه وحنانه، فيعينه بها على نفسـه والهـوى ويزهر في قلبه مصبـاح الهدى فيبصر طريقه ويكمل مسيره حتى يخلصه لنفسه ويجتبيه للقائه.

وقد يتفرع من هذه الطائفة المريد الذي يعْلَق قلبه ببعض أسـماء الله الثواني التي هي أسـماء الأفعال كـ «المحسـن» و«المنعم» و«المفضـل» و«المنان» و«الرزاق» و«المعطي» و«الكريـم»، ويتوقف حد نظره إلى إفاضـات الحـق بالعطـاء والنعـم، وهي بوجهٍ حجب وسـواتر عـن الله من حيث ذاتـه، وعلى هذا فهـو يشـتاق بعد غيبته إلى معاينة لطائف محبوبه ومننه ومطالعـة جوده وكرمه ومحو صفاته وفناء أفعاله في صفات الحق وأفعاله، وفي هذا المقام لا يكون المحبوب الذي يشتاق إليه المحب هو الحق تعالى بذاته بل جعل الحق واسطة لنيل حظوظ نفسه ووسيلة لحصول لَذّاتها، فمحبته مشوبة بأغراض النفس، إن أحسـن إليه الحق بإحسـان أو نعمة سعد بها وتسلَّى بها عن ذات المحسـن المنعم وسكنت حرارة شوقه إليه.

گـر از دوسـت چـشـمـت بـه احـسـان اوسـت
تـو در بـنـد خـويـشي نـه در بـنـد دوسـت
خـلاف طـريـقـت بـود كـه اولـيـاء
تـمـنـّا كـنـنـد از خـدا جـز خـدا[١٢]

ويقول العرفاء أن الأسماء والصفات الظاهرة في التجليات الأسمائية والصفاتية هي حجب نورانية، وأن الـذات لا تـزال محتجبـة بالصفات، وخرْق هـذه الحجب يختص بالكمَّلين مـن العرفاء الواصلين الذين هم مظاهر التجليات الذاتية لا الأسـمائية بعد فنائهم بالموت الإرادي في الذات ومشـاهدة جمال نور الأنوار، وقد أشار إلى ذلك مولى الموحدين أمير المؤمنينعليه السلام بقوله: «كَـمـالُ الإخْـلاصِ لَـهُ نَـفْـيُ الـصِّـفـاتِ عَـنْـهُ»[١٣]!!

فطوبى للمحبين العاشقين الذين أحبُّوا الله تعالى حب إخلاص في جميع صور أسمائه عند ظهوره في مظاهر جماله وجلاله ولطفه وقهره، والواصلين من السـالكين إلى المعارج وأهل شـهودالحق والعرفان الخارجـين عن حظـوظ أنفسـهم الغافلين عن مشـاهدة إنيَّاتهـم المضمحلَّة في الحق ذواتهم السـالكين سـلوكا روحانيـا حتى تجلَّى ربهم في قلوبهم على الدوام فلم يفقـدوه طرفة عين، بل تحققوا بلقائه في دار الدنيـا في عين القرب منه، فلم يشـتاقوا إلى لقائه، لأن الشـوق إلى اللقاء لا يكـون إلا للمحروم البعيد حيـث الفـراق ودوام الحجـاب المانع عن إدراك أنوار العلـم والعرفان، ومادامت الإنيَّة متوسـطة بينه

وبين الحق فهو عاجز عن إدراكه وقاصر في معرفته، ومن ثَم الشوق إليه شوق المقرَّبين، وأما أهل الشهود الواصلون فشوقهم إلى دوام اللقاء أبدي لا زوال له، وأحداق قلوبهم شاخصة إلى جنابه وهم يشاهدون تجليات جمال الحق اللامتناهي يطلع عليهم في كل يومٍ في شأن وفي كل لحظةٍ في صورةٍ جديدةٍ من صور الوجود، وتترادف عليهم لذَّات معرفته مضاعَفة متزايدة بتزايد ظهور جماله، وتستلذُّ قلوبهم أبدا بمذاق طعم وصاله وعرفانه، فيزدادون شوقا إليه.

قال مولانا أمير المؤمنين في حال المحب المشتاق: «أتْعَبَ نفْسَهُ لأخراه وَزَهَدَ في الفَاني شَوْقاً إلَى مَوْلاه»[١٤]، قال عليه السلام أيضا في صفات المتقين المشتاقين: «لَوْلاَ الآجالُ الَّتي كَتَبَ اللهُ تعالَى لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرْ أرْواحُهُمْ في أبْدانِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوقاً إلَى لِقاءِ اللهِ والثوابِ وخَوْفاً مِنْ أليمِ العِقابِ»[١٥].

وقال الصادق عليه السلام: «المُشْتاقُ لا يشْتَهي طَعاماً ولا يَلْتَذُّ بشَرابٍ ولا يسْتَطيبُ رُقاداً ولا يأنَسُ حَمِيماً ولا يَأوِي داراً ولا يَسْكُنُ عُمْراناً ولا يَلْبسُ لَيِّناً ولا يَقِرُّ قَراراً ويَعْبُدُ اللهَ لَيْلاً ونَهاراً راجِياً أنْ يَصيرَ إلَى ما اشْتاقَ إلَيْهِ ويُناجيهِ بلِسانِ شَوْقه مُعَبِّراً عَمَّا في سَريرَتهِ كَما أخْبَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَن مُوسَى في مِيعادِ رَبِّهِ بقَوْلِهِ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، وَفَسَّرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله عَنْ حالِهِ أنَّهُ لا أكَلَ وَلا شَرِبَ وَلا نامَ وَلا اشْتَهَى شَيئاً مِنْ ذلكَ في ذهابِهِ ومَجيئِهِ أرْبَعينَ يَوْماً شَوْقاً إلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»، ثم قال عليه السلام: «فَإذا دَخَلْتَ مَيْدانَ الشَّوْقِ فَكَبِّرْ عَلَى نَفْسِكَ وَمُرادِكَ مِنَ الدُّنْيا وَوَدِّعْ جَميعَ المَألُوفاتِ وأحرِمْ (وَاجْزِمْ) عَنْ سِوَى مَعْشوقكَ ولَبِّ بينَ حَياتِكَ ومَوْتكَ لَبَّيكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ وأعْظَمَ اللهُ أجْرَكَ، ومَثَلُ المُشْتاقِ مَثَلُ الغَريقِ لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إلاَّ خَلاصُهُ وقَدْ نَسِيَ كُلَّ شيءٍ دونَهُ»[١٦].

وقال ذو النون المصري: «إنَّ للهِ عِباداً مَلأ قُلوبَهُمْ مِنْ صَفاءِ مَحْضِ مَحَبَّتِهِ وَفَسَحَ أرْواحَهُمْ بالشَوقِ إلَى رُؤيَتِهِ فَسُبحانَ مَنْ شَوَّق إليهِ أنفُسَهُمْ وَأدْنَى مِنهُ فَهْمَهُمْ وَصَفَتْ لَهُ صُدورُهُمْ».

وقال بعض العارفين أن الشوق غلبة ذكْر متمَنٍّ واضطراب الصبر عن فَقْده وشدة طلبه وهو للعوام، والشوق يكون إلى غائب، أما في طريق الخواص فالمشتاق إليه حاضر، وشوق الخاص أن يكون هو غائبا والحق حاضرا!! لذا اعتبر العرفاء أن الشوق علة عظيمة، والمشتاق متعلق قلبه بغائب، وصاحب علة ومرض، لأن الشوق إنما يكون إلى غائب والحق حاضر لا يغيب، ومذهب العرفاء إنما قام على المشاهدة، ولهذه العلة لم ينطق القرآن باسمه[١٧]!!

فالحركة الشوقية لا تتوقف عند حدِّ اللقاء كما يراه بعض العلماء والحكماء فحسب، بل تزداد شدة وقوة ودواما عند اللقاء وتاليه، ويؤيد ذلك أكابر العارفين، ومنهم سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه.

وعلى هذا فالمحب لغير الله تعالى يشتاق إليه عند غيبة ظاهر محبوبه وصورته، والمريد السائر إليه يشتاق في بادئ الأمر إلى لقائه عند غيبته عن قلبه، ومن ثم التعلق بتجليات أسمائه وصفاته، فيشتاق إلى التلاقِ ويتألم بالفراق، وأما المحب لله المستغرق في حبه له والمتوجه بكله إليه فهو في مشاهدة دائمة لمحبوبه، وكلما زاد مشاهدةً ونظرا إليه تجلَّى له جمال الحق أكثر فأكثر، فزاد حبا، فزاد شوقا، لذا يسمي أهل العرفان مشاهدة المحبوب شوقا.

قال الشاعر:

وَمِنْ عَجَبٍ أنِّي أحِنُّ إليهِمُ ... وأسألُ شوقاً عنهم وهُمُ مَعي

وتَبْكيهِمْ عَيْني وهُمْ في سَوادِها ... وتشْتاقُهُمْ نَفْسي وهُمْ بَيْنَ أضْلُعي[١٨]

ويرى بعض العارفين - حسب مراتب الشوق - أن هناك فروقا بين المعنى العرفاني لكل من الشوق والاشتياق ويقولون:

- أن الشوق من البعد والاشتياق من القرب المفرط،

- وأن الشوق يسكن باللقاء، لأنه هبوب القلب إلى غائب فإذا ورد سكن، والاشتياق يهيج باللقاء، لأنه حركة يجدها المحب عند اجتماعه بمحبوبه فرحا به لا يقدر أن يبلغ غاية وجْدِه فيه، فلو بلغ سَكَن لأنه لا يشبع منه، فإنَّ الحس لا يفي بما يقوم في النفس من تعلقها بالمحبوب، فهو كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا،

- وأن الشوق بتحصيل اللقاء يزول والاشتياق مع الوصال يكون.

قال الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لَآتٍ....﴾[١٩].

فمن أراد السير إلى الله تعالى مشتاقا إليه يرجو في ذلك لقاءه لابد ضرورة أن يتحرك إليه بروحه ويفنى عن نفسه ويتجرد عن هيكله حتى يتم اللقاء ويتبدل شوق الفراق إلى ما هو أعظم منه وأشد وهو الشوق إلى روح القرب والوصال.

ويحمل أكثر المفسرين كلمة ﴿لِقَاءَ الله﴾ على يوم الحساب والجزاء والثواب، لأن حدَّ نظرهم متوقف عند السعادة التي مفهومها التلذُّذ بالنعم الجسمانية في الجنة الحسية، ولم يعلموا أن الفضيلة

والسعادة غير منحصرة بالأمور المادية، بل إن السعادة وكل السعادة في القرب إلى جوار الرحمة الإلهية ودرك الفيوضات الروحانية والرحمانية.

يقول العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في تفسير ﴿لِقاءَ اللهِ﴾:

«إنَّ العِبادَ يَكونونَ في مَوْقفٍ لا يَكونُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ اللهِ حِجابٌ كَمَا هُوَ الشَّأنُ يَوْمَ القِيامَةِ الَّذي هُوَ ظَرْفُ ظُهورِ الحَقائِقِ» وهذا كله حاصل للعارف في هذه النشأة الدنيا بتجلي الحق لقلوب عباده الفانين فيه.

ويقول الخاجه عبدالله الأنصاري (بالفارسية):

إلهى تو را آن كس بيند كه تو را در ازل ديد

وآن كس تو را بديد كه دو گيتى او را نابديد

وتو را او ديد كه ناديده بسنديد[٢٠]

وفيما أوحى الله تبارك وتعالى لنبيه عيسى عليه السلام: «يا ابْنَ مَرْيَمَ لَوْ رَأتْ عَيْنُكَ ما أعْدَدْتُ لأوليائِي الصَّالِحينَ ذابَ قَلْبُكَ وزَهَقَتْ نَفْسُكَ شوقاً إليهِ فَلَيْسَ كَدارِ الآخِرَةِ دارٌ تَجاوَرَ فيها الطَّيِّبونَ ويَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فيها المَلائكَةُ المُقَرَّبونَ وَهُمْ مِمَّا يَأتِي يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ أهْوالِها آمِنُونَ دارٌ لا يَتَغَيَّرُ فيهَا النَّعيمُ ولا يَزولُ عَنْ أهْلِها»[٢١].

وأي دار أوسع من دار الكرامة والرضوان وأي نعيم ألذ من نعيم مشاهدة الرحمن!!

ومن المصاديق البارزة في الشوق إلى الله تبارك وتعالينبي الله شعيب عليه السلام حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بَكَى شُعيبٌ عليه السلام مِنْ حُبِّ الله عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بَصَرَهُ ثُمَّ بَكَى حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ ثُمَّ بَكَى حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ فَلَمَّا كَانَتِ الرابِعَةُ أَوْحَى اللهُ إليهِ: يا شُعَيْبَ، إلَى مَتَى يَكُونُ هذا أبَداً مِنكَ؟! إنْ يَكُنْ هذا خَوْفاً مِنَ النارِ فَقَدْ آجَرْتُكَ وإنْ يَكُنْ شَوْقاً إلَى الجَنَّةِ فَقَدْ أَبَحْتُكَ، فَقَالَ: إلهي وسَيِّدي أنتَ تَعْلَمُ إنِّي مَا بَكَيْتُ خَوْفاً مِنْ نارِكَ وَلا شَوْقاً إلَى جَنَّتِكَ وَلكِنْ عَقَدَ حُبُّكَ عَلَى قَلْبي فَلَسْتُ أصْبِرُ أوْ أراكَ، فَأوْحَى اللهُ جَلَّ جَلالُهُ إلَيْهِ: أمَّا إذا كانَ هذا هكَذا فَمِنْ أجْلِ هذا سَأُخْدِمُكَ كَلِيمي مُوسَى بْنَ عِمْرانَ»[٢٢]!!

وفي مقابل فئة الراجين لقاء الله والمشتاقين إليه تقع فئة الغافلين عن الشوق إلى رب العالمين القاصرة هممهم على لذائذ الدنيا وزخارفها المنهمكة نفوسهم في شهواتها الضالّ سعيهم في الحياة الدنيا ولم يخطر الحق على بالهم أبدا وحسبوا أنهم يسيرون في طريق الهدى، أولئك الذين لا تشملهم العناية الإلهية

بل ويسلب الحق عنهم التوفيق ويكِلُهم إلى أنفسهم ويستدرجهم من حيث لا يشعرون، يقول الله تعالى: ﴿....فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [٢٣] أي يتردَّدون ويتحيَّرون في الضلال، ثم تتمثل سوء خاتمتهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلِينَ * أولئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *﴾[٢٤]!!

وأما المرتبة التالية من استحقاقية محبة المحب وشوقه بعد محبة الله والشوق إليه هو محبة الإنسان الكامل المشتمل لجميع مظاهر أسماء الله تعالى وصفاته والشوق إليه، وهم الخلَّص من الأولياء وأولي العصمة من الأنبياء والأوصياء الذين جعلهم الله تعالى برازخ بين الحق والخلق، فكانوا الدالِّين على ربهم بذواتهم، لا سيما سيدنا وحبيب قلوبنا رسول الله الأعظم ونبيه الأكرم محمدﷺ وآل بيته الطاهرينعليهم السلام الذين خلق الله تعالى العالم بسببهم ولأجلهم.

عن المفضل بن عمر - في وصف شيعة مولانا جعفر بن محمدعليه السلام: «مَنَعَ نَفْسَهُ لَذَّاتِ الدُّنْيا ونَعيمَها خَوْفاً مِنَ الله وشَوْقاً إلَيْنا أهْلِ البَيْتِ»!!

وكذلك قولهﷺ في أحُد: «وَهَذا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ»[٢٦]!!

وقال النبيﷺ لعليعليه السلام: «يا عَلِيّ إنَّ الجَنَّةَ تَشْتاقُ إلَيْكَ وإلَى عَمَّارٍ وَسَلْمانٍ وأبِي ذَرٍ والمِقْدادِ»[٢٧]!!

وقالﷺ: «إنَّ الجَنَّةَ لأشْوَقُ إلَى سَلْمانٍ مِنْ سَلْمانٍ إلَى الجَنَّةِ وإنَّ الجَنَّةَ لأعْشَقُ لِسَلْمانٍ مِنْ سَلْمانٍ إلَى الجَنَّةِ»[٢٨]!!

وروي أن النبيﷺ قال: «اشْتاقَتِ الجَنَّةُ إلَى أرْبَعَةٍ مِنَ النِّساءِ مَرْيَمَ بِنتِ عِمْرانَ وآسِيَةَ بِنتِ مُزاحِمٍ زَوْجَةِ فِرْعَونَ وهِيَ زَوْجَةُ النَّبِيِّﷺ فِي الجَنَّةِ وخَدِيجَةَ بِنتِ خُوَيْلِدٍ زَوْجَةِ النَّبِيِّﷺ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وفاطِمَةَ بِنتِ مُحَمَّدٍﷺ»[٢٩]!!

وقد أوحي إلى بعض الصدِّيقين: «إنَّ لي عِباداً مِنْ عَبِيدي يُحِبُّوني وأحِبُّهُمْ، ويَشْتاقونَ إلَيَّ وأشْتاقُ إلَيهِمْ ويَذْكُروني وأذْكُرُهُمْ، فَإنْ أخَذْتَ طَريقَهُمْ أحْبَبْتُكَ، وإنْ عَدَلْتَ عَنهُمْ مَقَتُّكَ» قال: يا رب ما علامتهم؟! قال: «يُراعُونَ الظِّلالَ بالنَّهارِ كَمَا يُراعِي الشَّفِيقَ غَنَمَهُ، ويَحِنُّونَ إلَى غُروبِ الشَّمْسِ كَمَا تَحِنُّ الطَّيْرُ إلَى أوْكارِها عِندَ الغُرُوبِ، فَإذا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ وَاختَلَطَ الظَّلامُ وفُرِشَتِ الفُرُشُ ونُصِبَتِ الأسِرَّةُ وخَلاَ كُلُّ حَبيبٍ بِحَبيبِهِ نَصَبُوا إلَيَّ أقْدامَهُمْ، وافْتَرَشُوا إلَيَّ وُجُوهَهُمْ، ونَاجُونِي بِكَلامِي، وتَمَلَّقُونِي بِأنْعامِي، مَا بَيْنَ صارِخٍ وبَاكٍ، وبَيْنَ مُتَأوِّهٍ وَشاكٍ، وبَيْنَ قائِمٍ وقاعِدٍ، وبَيْنَ

راكِـعٍ وسـاجـدٍ، بعَـيْـني مَا يَـتَـحَمَّلونَ مِـنْ أجْـلِي، وبِسَـمْـعِـي مَـا يَـشْـكُونَ مِـنْ حُـبِّي، أَوَّلُ مَـا أُعْـطِـيهِـمْ ثَـلَاثـاً: الأوَّلُ أَقْـذِفُ مِـنْ نُـورِي فِي قُـلوبِـهِمْ، فَـيُخْـبِـرونَ عَنِّي كَمَا أُخْـبِـرُ عَنهُمْ، وَالـثَّـانِي لَوْ كَانَـتِ السَّـمَاوَاتُ وَالأرْضُـونَ وَمَا فِيـهِمَا مَـوَارِيـثَـهُمْ لاسْـتَـقْـلَلْـتُـهَـا لَـهُمْ، وَالثالِثُ أُقْـبِـلُ بِوَجْـهِي عَلَيْـهِمْ، أفَـتَـرَى مَنْ أَقْـبَلْتُ عَلَيْـهِ بِوَجْـهِي يَعْلَمُ أَحَدٌ مَـا أُرِيـدُ أنْ أُعْطِيهِ!!»[٣٠]

وأما آفة شوق المشتاقين فهي الغفلة، وهي آفة وجريرة يؤاخَذ عليها الخواص من المحبين المشتاقين ويعاقِبون أنفسهم عليها!! فكل شيء في عالم الإمكان يدور في فلك العشق شوقا إلى جماله وانسياقا إلى طلب لقائه ولا يتصور لها غفلة إلا الثقلين، فلا تكن من الذين يقولون يوم اللقاء المحتوم: ﴿... يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا...﴾[٣١]!!

پنبه غفلت برون میکن زگوش

تا بیابی نغمه های همچو نوش[٣٢]

وقد أشار الشاعر حافظ الشيرازي إلى حال المشتاقين الملتهبة قلوبهم بالشوق إلى المحبوب الحق الذين لا يتصورون لحظة سِنَة أو غفلة عنه بهذا البيت الجميل:

روَد به خواب دو چشم از خيال تو هيهات

بوَد صبور دل اندر فراق تو حاشاك[٣٣]

وبعد بيان مفهوم الشوق من الجهة الخلقية -أي من الخلق إلى الحق وإلى كل ما ينسب إلى الحق من الأنبياء والأولياء- نتطرق إلى بيان الجهة الحقية من الشوق، أي شوق الحق إلى الخلق وحنينه إليهم بما يليق بجناب قدسه وجلاله.

أوحى المولى جلَّ شأنه إلى نبيه داود عليه السلام: «يـا داوُدُ لَـوْ يَـعْـلَـمُ الـمُـدْبِـرونَ عَـنِّـي كَـيْـفَ انـتِـظـارِي لَـهُـمْ ورِفْـقِـي بِـهِـمْ وشَـوْقِـي إلَى تَـرْكِ مَعَـاصِـيـهِـمْ لَمَـاتُـوا شَـوْقـاً إلَـيَّ»[٣٤]!!

وقال سبحانه: «مَـنْ تَـقَـرَّبَ إلَيَّ شِـبْـراً تَـقَـرَّبْـتُ إلَـيْـهِ ذِراعـاً وَمَـنْ تَـقَـرَّبَ إلَيَّ ذِراعـاً تَـقَـرَّبْـتُ إلَـيْـهِ بـاعـاً....»[٣٥].

وقد جاء في بعض الكتب أنه قال سبحانه: «ألاَ طَـالَ شَـوْقُ الأبْـرَارِ إلَـى لِـقَـائِـي وَإنِّـي إلَـيْـهِـمْ لأشَـدُّ شَـوْقـاً»!!

إن الحق سبحانه وتعالى إذ هو في غاية الكمال والتمام ومنزَّه عن أنحاء النقص ومقدَّس عن كدورات القصور في الوجود والذات محال أن يتصف بالشوق إلى شيء مما خلق لإكمال ذاته وإتمامها بالمفهوم الخاص بالخلق علا عن ذلك علوًّا كبيرا، بل لكونه تام الوجود وفوق التمام يليق به أن يُشتاق إليه ويعشقه كل من سواه.

وقـد تسـأل: إذاً مـا معنـى شـوق الحـق إلى الخلـق الـذي ورد في الأحاديـث القدسـية والجوامـع الحديثية؟!

نقول: إن شـوق الحق إلى الخلق يختلف عن شـوق الخلق إلى الحق كل الاختلاف، وحاشا أن يكون شـوق الحـق كشـوق خلقه وإليـه الرُّجْعَـى والآخـرة والأولى، ولكن يمكـن أن نقول أن الشـوق من الصفات التشـبيهية لله سـبحانه كالتعجب والفرح والاسـتواء والتردد والفراغ والاستحياء والتقرب والمعيَّة والكُرْه والمحبة والنسيان والمكر والسخرية وما أشبه ذلك من الصفات الإلهية التي جاءت على ألسنة الشرائع والمشابهة لصفات المخلوقين.

وأما في بيان شـوق الحق للخلق فكما ذكرنا بدءاً أن العرفاء يقولون أن عشـق الأدنيللأعلى والشوق إليه هو من أجل استكمال ذاته وإتمامها، والمستكمَل بغيره ناقص في ذاته، ثم يقولون: وأما عشق الأعلى للأدنى والشوق إليه ليس من أجل استكمال ذاته وإتمامها به أو حصول منفعة أو مصلحة من ورائه، بل على سـبيل الفيض والترشُّـح وعين العناية والتلطُّف وكمال الإحسـان والتفضُّل وسعة الرحمة والتودُّد ومطلـق العلم بالموجودات والإحاطـة التامة على الكون والكائنات، ومن أجل تحريك الأدنى وجذبه إليه ومحو آثاره.

از دم صبـح ازل تـا آخـر شـام ابـد
دوسـتى ومهـر بر يـك عهـد ويـك ميثاق بود
سـايـه مـعـشـوق اگر افتـاد بـر عـاشـق چـه شـد
مـا بـه او مـحـتـاج بـوديـم او بـه مـا مشـتـاق بـود[٣٦]

ثـم إن الحركـة الحُبِّية الغيبية المقدسـة مـن الله تبارك وتعالى لعبـاده والتوجه الشـوقي إليهم أصله: «أحْبَبْـتُ أنْ أُعْـرَفَ»[٣٧]، فـالله سـبحانه وتعالى خلق الخلـق حين خلقهم وهو غني عـن طاعتهم غير متـضرر بمعصيتهـم وهو غايـة كل شيء وغني عـن كل شيء والكلُّ مفتقر إليه وليس وراء شـوقه إلى عباده غاية وهو المنزه عن الأغراض والمصالح إلا حب كمالات ذاته المقدسة الأزلي واللامتناهي، فهو سبحانه -كما قال الشيخ الرئيس في إشاراته[٣٨]- عاشق ومعشوق لذاته من غير وقوع كثرة فيه.

فالـذات المتعاليـة الفيّاضـة التـي كل جمال وكمال رشـح خير وفيـض دائم من جمالـه وكماله محبوبة بالـذات إلى واجب الوجود، وعلى حسـب القاعدة العرفانية: «الحبُّ موجِـبٌ للظهور والتعيَّنُ يقْتَضي المَظْهَرِيَّـة» إذا تجمَّـل العبد بالجـمالات وارتفع بالكمالات وكان مظهرا من مظاهر أسـماء الحق وصفاته أحبه ربه واشـتاق إليه من حيث حبه لنفسـه المقدسـة وعشـقه لكـمال ذاته المتعاليـة التامة لا من حيث الاستكمال وإتمام الخير، فالمشتاق إلى رشحاته وفيوضاته وخيراته على من سواه إنما هو مشتاق إلى نفسه

وذاته.

ثم يقول العرفاء أن شوق الحق هو شوقه في أن يراه الخلق في صور تجلياته وكمالاته ومظاهر أسمائه وصفاته، وأن يكونوا على أفضل ما يمكن من معرفته والتقرب إليه، قال تعالى في حديث قدسي: «مَنْ أَحَبَّ لِقاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِـقـاءهُ»(٣٩)، والقلوب هي المعمِيَّة ورؤية الخلق للحق هي المفقودة لا تعينات الخلق مفقودة لدى الحق وهو اللطيف الخبير الذي أحاط بكل شيء علما والقائل سبحانه: ﴿....وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَـمَا كُنتُمْ....﴾(٤٠)، ومن لم يشـتَقْ إلى الله تعالى في دنياه وكره لقاءه كره الله لقاءه ولم يشْـتَقْ إليه بل ينساه كما قال سبحانه في كتابه: ﴿.... فَالْيَوْمَ نَـنْـسَاهُمْ كَمَا نَـسُوا لِقَـاءَ يَوْمِـهِـمْ هَـذا....﴾(٤١)!!

ويقـول أرباب القلوب أن شـوق كل مشـتاق على قـدر علمه وإدراكه للمعـاني الظاهرة في محبوبه، والحـق تعالى منبـع العلم الذاتي والصفاتي، فعلمه بحقيقة أحبائه المشـتاقين إليه وكمالاتهم أتم وأكمل، فمحبته وشـوقه إياهم أعظم وأقوى، والأمر ألطف وأرقُّ من أن يُتصوَّر بأن الحق سـبحانه أشـد حبا وشـوقا إلى لقاء محبيه المشـتاقين إليه منهم إليه، وقد ورد في الخبر أنه تعالى قال عن نفسـه: «وأنا أشـدُّ شـوقـاً إلَى لِقـاءِ عَـبْـدي»، وهذه الملاقـاة والرؤية بين العبد المشـتاق والرب الأشـوق لا تحصل إلا بالموت وارتفاع الحجب وشـهود الحق في تجلياته، سواء بالموت الطبيعي الحاصل للمشتاقين الزاهدين والعابدين أو بالموت الإرادي الحاصل للعارفين الـمـوحـديـن والخروج من الدار المنافية لهذا اللقاء، لـذا عـرَّف العرفاء هذا اللقـاء بلقاء خاص، وأن شـوق الحـق إلى الـمـشـتـاقـيـن إلـيـه بـنـيـلـهـم الراحة والعناية الخاصة بلقائه.

والله المتعالي الذات يشـتاق إلى المؤمن العارف به في جميع حالاته، فهو يشـتاق إلى صوته وإلى دعائه وإلى ذكـره وإلى خلوتـه، روي عن العالـمعليه السلام: «إنَّ اللهَ يُؤَخـرُّ إجابَةَ الْمُؤمِنِ شـوْقاً إلَى دُعـائِـهِ وَيَقُـولُ صَـوْتـاً أحِـبُّ أنْ أسْـمَـعَـهُ»(٤٢)!!

ونعم ما قيل:

هر چند دعا کنی اجابت نکنم
زيرا كه مراد من از آن زاری تست(٤٣)

وكذا الإنسـان الكامل الأكمل لكونه أشـد المخلوقات تعلقا وعشـقا بخالقه مفطـورا على كمالاته وفضائـله التي تليق به متصـلا بمنبع الفيض والجود على الدوام قابلا لتجليات النور الإلهي بلا وسط ماثلا بين يدي الحق مستغرقا في مشـاهدة حسنه وجماله ولا حجاب بينه وبين ربـه بل هو الحجاب بين الخلـق وربـه فلا يزيـده اتصاله بالعـالم الأدنى فضلا وكمالا بـل العالم الأدنى يطلبه وهو المفيض عليه مـن رشـحاته وجـوده وعطاياه، وفي الوقـت الذي هو أعرف الموجـودات بربه وأفقرهـا إلى بارئه ولا

أكمل منه في العبودية له فهو الغني بربه عن العالمين، بل ما كان خلْق العالمين إلا لأجله: «لَوْلاكَ ما خَلَقْتُ الأفْلاكَ»[٤٤]، فسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه، لذا لم يكن شوقه إلى ما دونه حاجةً منه إليه لإكمال ذاته ولا زيادة في فضيلته وكرامته بل عناية منه به.

روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «تَفوحُ رَوائِحُ الجَنَّةِ مِنْ قِبَلِ قَرْنٍ، واشَوْقاهُ إلَيْكَ يا أُوَيْسَ القَرَنيِّ»[٤٥]!!

وكذلك قوله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام في شيعته وأصحابه العارفين به: «يا عَلِيّ أقْرِئْهُمْ مِنِّي السَّلامَ مَنْ رَآني مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يَرَني، وَأعْلِمْهُمْ أنَّهُمْ إخْواني الَّذينَ أشْتاقُ إلَيْهِمْ»[٤٦]!!

عن عبدالله بن الوليد قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول ونحن جماعة: «والله إنِّي لأحِبُّ رُؤيَتَكُمْ وأشْتاقُ إلَى حَديثِكُمْ»[٤٧]!!

وخلاصة القول أن الحب والشوق والحنين واللقاء موجود على الدوام متبادل بين الكامل بالذات والمستكمل به المشتاق كل منهما إلى الآخر، فصار كلٌّ من الخالق والمخلوق مشتاقا من وجه ومشتاقا إليه من وجه آخر.

بجانْ مشتاقِ روى تست حافظ
ترا در حال مشتاقان نظر باد[٤٨]

«فيا فَرْحةً لِقُلوبِ الواصِلين ويا حَياةً لِنُفوسِ العارِفين ويا نِهايةَ شَوقِ المُحبِّين أنتَ الذي بِفِنائِك حَطَّت الرِّحالُ وإليكَ قَصَدَت الآمالُ وعَلَيْكَ كانَ صِدْقُ الاتِّكالِ، فيَا مَنْ تَفَرَّدَ بالكَمالِ وتَسَرْبَلَ بالجَمالِ وتَعَزَّزَ بالجَلالِ وجادَ بالإفْضالِ لا تُحْرِمْنا مِنكَ النَوالَ، إلهي بِكَ لاذَتِ القُلوبُ لأنَّك غايةُ كلِّ محبوبٍ، وبِكَ اسْتَجارَت فَرْقاً من العُيوبِ، وأنتَ الَّذي عَلِمْتَ فحَلِمْتَ ونَظَرْتَ فرَحِمْتَ وخَبَرْتَ فسَتَرْتَ وغَضِبْتَ فغَفَرْتَ، فَهَلْ مُؤمِّلٌ غيرُكَ فيُرْجَى!! أمْ هلْ رَبٌّ سِواكَ فيُخْشَى!! أمْ هلْ مَعْبودٌ سِواكَ فيُدْعَى!! أمْ هَلْ قَدَمٌ عِندَ الشدائِدِ إلا وهِيَ إلَيْكَ تَسْعَى!! فَوَعِزِّ عِزِّك يا سُرورَ الأرْواحِ ويا مُنتَهَى غايةِ الأفْراحِ إنِّي لا أمْلِكُ غيرَ ذُلِّي ومَسْكَنَتي لَديكَ وفَقْري وصِدْقِ تَوَكُّلي عَلَيْكَ، فَأنا الهارِبُ مِنكَ إلَيْكَ، وأنا الطالِبُ منكَ ما لا يَخْفَى عَلَيْكَ، فَإنْ عَفَوْتَ فَبِفَضْلِكَ، وإنْ عاقَبْتَ فَبِعَدْلِكَ، وإنْ مَنَنْتَ فَبِجودِكَ، وإنْ تَجاوزْتَ فَبِدوامِ خُلودِك، فَارْحَمْنا بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الراحِمينَ»!!

الهوامش

(١) سورة العنكبوت: آية ٥

(٢) شرح منازل السائرين (للعارف الكامل كمال الدين عبدالرزاق الكاشاني): ص ٢٢٤، وقال عفيف الدين التلمساني في شرح منازل السائرين باب الشوق ص ٤٠٧ أن استناد الشيخ الأنصاري رضي الله عنه إلى الآية المذكورة في باب الشوق أن الشيخ يرى أنَّ ﴿يَرْجُوا﴾ في قوله تعالى (الآية) هي بمعنى يشتاق بلسان الاعتبار لا بلسان التفسير.

(٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٣٤٢

(٤) سورة الحديد: آية ٤

(٥) الأسفار الأربعة: مجلد ٧ ص ١٨٥

(٦) الترجمة:

الأفلاك السبعة من كماله ذرة   والبحار السبعة من عطائه قطرة

البحر في ظمأ للقائه   وحرقة الشمس من حسرة جماله

نور الشمس في جماله لمعة   وماء البحر في فراقه دمعة

بكاء المطر من الشوق إلى رؤيته   وأنين الرعد من هوى داره

(٧) الأسفار الأربعة: مجلد ٢ ص ٢٧٨

(٨) يقول العرفاء أن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان في صورة جامعة شاملة حاصرة لصفات الموجودات كلها في نفسها من جماد ونبات وحيوان وجعله الكون الجامع لجميع حقائق الوجود ومعانيه ومراتبه وهو العالم الأصغر الذي انعكست في مرآة وجوده كل كمالات العالم الأكبر والمختصر الشريف الذي تمثلت فيه كمالات الحضرة الإلهية الأسمائية والصفاتية في أعظم صورها، قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام:

أَتَزْعَمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغيرٌ   وفيكَ انطَوَى العالَمُ الأَكْبَرُ

(٩) الترجمة:

لقد أجَّل الغير موعد وصلك إلى الغد   وأملي أن لا يتصل يومي هذا (يوم الوصال) بغد

(١٠) السَّلْو: الابتعاد والهجران

(١١) سورة العنكبوت: آية ٦٩

(١٢) الترجمة:

إن كـان نـظـرك لمحبوبك لإحسانه إليك
فأنت عبد نفسك لا عبد محبوبك
وهذا خلاف الطريقة والسلوك
بأن يتمنى الأولياء من الله سوى الله

(١٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٧٢

(١٤) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٧٣

(١٥) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ باب ١٨٦ ص ١٣٢

(١٦) مصباح الشريعة: باب ٩٨ ص ٦٥ ومنه بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٤

(١٧) منازل السائرين: باب الشوق

(١٨) وقيل أن البيتين كما يلي:

ومِنْ عَجَبٍ أنّي أحِنُّ إليهِمُ
وأسألُ عنهم من أرى وهُمُ مَعي
وترصدهمْ عَيْني وهُمْ في سَوادِها
ويَشْتاقُهُمْ قلبي وهُمْ بَيْنَ أضْلُعي

(١٩) سورة العنكبوت: آية ٥

(٢٠) الترجمة:

إلهي لا يراك إلا مَن في الأزل رآك
ولم يـرَك إلا الذي أفنى الكونين
ويراك الذي رجَّحك على من سواك من قبل أن يراك!!

(٢١) الكافي: ج ٨ ص ١٣٥، تحف العقول: ص ٤٩٧

(٢٢) علل الشرائع: طبع دار إحياء التراث العربي ط ٢ ص ٥٧ ويقول الشيخ الصدوق: والله أعلم يعني بذلك لا أزال أبكي أو أراك قد قبلتني حبيبا، ومنه بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٣٨٠، ويقول العلامة المجلسي: أي إلى أن يحصل لي غاية العرفان والإيقان المعبر عنها بالرؤية وهي رؤية القلب لا البصر والحاصل طلب كمال المعرفة بحسب الاستعداد والقابلية والوسع والطاقة.

(٢٣) سورة يونس: آية ١١

(٢٤) سورة يونس: آية ٧ - آية ٨

(٢٥) تفسير الإمام الحسن العسكري: مجلد ١ ص ١٨٨ - ص ١٨٩، ومنه بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ٣٣

(٢٦) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٤٨

(٢٧) روضة الواعظين: ص ٣٠٧ ط ١٩٨٦، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣٤١

(٢٨) روضة الواعظين: ص ٣٠٩ ط ١٩٨٦، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣٤١

(٢٩) بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ٥٣

(٣٠) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٦

(٣١) سورة الأنبياء: آية ٩٧

(٣٢) الترجمة:

أخرج قطنة الغفلة من أذنك

حتى تجد نغماتٍ كالشراب

(٣٣) الترجمة:

أن تنام عيناي عن خيالك!! هيهات

أو أن يصبر قلبي على فراقك!! حاشاك

(٣٤) وجاء في تذكرة المتقين: ص ١٢٣، ص ١٣٤ بهذه العبارة: «لَوْ عَلِمَ الْمُدْبِرونَ كَيْفَ اشْتِياقي بِهِمْ لَماتُوا شَوْقاً».

(٣٥) بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ١٨٩، مستدرك الوسائل: ج ٥ باب ٧ ص ٢٩٧، سنن ابن ماجة: ج ٢ كتاب الأدب ص ١٢٥٥

(٣٦) أبيات للشاعر العارف حافظ الشيرازي، وترجمتها:

من طلوع صبح الأزل إلى آخر ساعات ليل الأبد

كانت ولا تزال كل محبة على أساس عهد وميثاق

فماذا يحصل لو وقع ظل المعشوق على العاشق

نحن محتاجون إليه وهو إلينا مشتاق!!

(٣٧) قال تعالى: «كُنتُ كَنزاً مَخْفِيًّا فَأحْبَبْتُ أنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الخَلْقَ لِكَي أُعْرَفَ» - كشف الأسرار: ج ٨ ص ٣٨٧، بحار الأنوار: ٨٧ ص ٣٤٤

(٣٨) شرح الإشارات: ج ٣ ص ٣٦١

(٣٩) بحار الأنوار: ج ٨١ ص ٢٦٧، نهاية ابن الأثير: ج ٤ ص ٢٦٦

(٤٠) سورة الحديد: آية ٤

(٤١) سورة الأعراف: آية ٥١

(٤٢) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٢٩٦

(٤٣) الترجمة:

مهما تدْعُني لن أستجيبَ لك

لأن مرادي من ذلك سماع أنينك فحسب

(٤٤) المناقب: ج ١ ص ٢١٧، مفاتيح الغيب (لصدر الدين الشيرازي): ص ١٤

(٤٥) بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ١٥٥

(٤٦) -بحار الأنوار: ج ٣٩ ص ٣٠٨

(٤٧) محاسن البرقي: باب ٣١ ص ١٦٣ ح ١١٤

(٤٨) الترجمة:

إن «حافظ» مشتاق بروحه إلى جمال وجهك

فانظر بنظرة إلى حال المشتاقين

المنزل (٣٥)

مَراحِلُ الشَّوقِ عِنْدَ المحب

بعد بيان معاني الشوق وجهاته والفرق بين شوق العوام وشوق العارفين، نبين في هذا المنزل صور الشوق ودواعيه ثم المراحل التي يطويها السالك المشتاق حتى الوصول إلى الله تبارك وتعالى.

يقول العرفاء أن الشوق على صورتين:

إما أن يكون الشوق إلى ما بقي من إدراك كمالٍ مطلوبٍ لم يظهرْ كلُّه أو إلى ظهور كمالاتٍ أخرى لم تظهر بعد إلى جانب ما ظهر منها قَبْلا!! وفي كلتا الصورتين يحتاج السالك إلى النور لإظهار كمالٍ أو بعضِ كمالٍ، وسنشير إلى تفصيل ذلك في طي البحث لاحقا.

فالسالك المشتاق قد يدرك في طريقه المُوصِل إلى محبوبه جزءا من كمال الحق فيلتذ به، ولكنه لا يتوقف عند هذا الحد، بل يشتاق إلى ظهور تمام كماله وإدراكه حتى يلتذ بتمام ظهور الكمال ويسعد به غاية اللذة والسعادة.

وبعد إدراك السالك كمالا من كمالات المحبوب والاستغراق والفناء فيه والتلذذ بما حباه به المحبوب من لطائفه ومنَحه من أسراره ووهبَه من عطاياه وهو يعلم أن لمحبوبه كمالات أخرى لا متناهية وبحكم الشوق الإلهي الأشد والتقريب الإلهي المضاعَف المنزَّه عن التجسيم والمشار إليه في الحديث القدسي: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعاً وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ باعاً»[١] يشتاق السالك إلى إدراك مزيد من الكمالات التي لم يصل إليها بعد، ومع سيره في كمالات المحبوب وزيادة القرب والاتصال والمشاهدة وفي ظل نور سيادة حضرة الحق تبارك وتعالى يَكمُل هو من حيث عبوديته أكثر فأكثر، ويعلم أسرار الوجود وآيات الحق في كل مرتبة من مراتب عالم المُلك والملكوت والغيب والشهود شيئا فشيئا، ويرقى على مدارج الكمال، حتى يستوفي سيره الكمالي وينتظم في سلك

العارفين الكُمَّلين ويلتذ بكماله الذي لا تشبهه لذة ولا تقارنه بهجة ولا تبلغه سعادة.

وأما مراحل الشوق فهي أربعة كما بيَّنها المحقق نصير الدين الطوسي (قده) [٢] في بعض رسائله وقال:

١- الشَّوقُ إدْراكُ لَذَّةِ المَحَبَّةِ اللاَّزِمَةِ لِفَرْطِ الإرادَةِ المُمْتَزَجَةِ بألَمِ المُفارَقَةِ،

٢- وَهُوَ في حالِ السُّلوكِ بَعْدَ اشْتِدادِ الإرادَةِ يَكونُ ضَروريًّا ورُبَّما كانَ حاصِلاً قَبْلَ السُّلوكِ وذلِكَ إذا حَصَلَ الشُّعورُ بكَمالِ المَطْلوبِ وَلَمْ تَنضَمّ إلَيْهِ القُدْرَةُ عَلَى السَّيْرِ وَقَلَّ الصَّبْرُ عَلَى المُفارَقَةِ،

٣- وَكُلَّما تَرَقَّى السَّالِكُ في سُلوكِهِ كَثُرَ الشَّوْقُ وَقَلَّ الصَّبْرُ،

٤- حَتَّى يَصِلَ إلَى المَطْلوبِ فتَخْلَصَ حينَئِذٍ لَذَّةُ نَيْلِ الكَمالِ مِنَ الألَمِ ويَنتَفِي الشَّوْقُ [٣].

فأولى مراحل الشوق ومبدؤه هو إدراك لذة المحبة والعشق في اتصال المريد بالمراد عند اشتداد الميل والإرادة، وهذه اللذة فيها ضرْبُ ألمٍ من المفارقة وطلب المشتاق المتمنِّي إلى لقاء المحبوب، وتشتد ضرورة الشوق وملازمته له في حال السلوك مع اشتداد الإرادة، وضرورة الشوق قد تكون سابقة على السلوك عند إدراك كمال المطلوب وعدم انضمام القدرة اللازمة على الحركة والسير واشتداد ألم المفارقة وعدم الصبر عليها، ثم ترتفع مراتب الشوق ويضطرب الصبر عن الفقدان والمفارقة مع الترقِّي في مدارج السلوك شيئا فشيئا إلى أن يصل السالك إلى مطلوبه، فتصفو لذة الوصول إلى نيل الكمال من شائبة ألم المفارقة، وينتفي الشوق، ولا يشعر بشيء سوى لقاء المحبوب ولذة وصاله.

وقد يكون معنى انتفاء الشوق أن السالك بعد الوصول إلى المحبوب يتخلص من الإنية والإثنينية فينتفي الشوق من البين، ونقول أن هذه المراحل خاصة بالمريد المشتاق إلى المحبوب الغائب عنه الذي يسكن عند الوصال بعد الحركة ويزول شوقه بتحصيل اللقاء، وأما العارف الواصل الخاص فمحبوبه على الحقيقة حاضر وحركته الشوقية إليه لا تتوقف مع وجود اللقاء بل تتزايد طلبا لدوام الوصال والمشاهدة واللقاء.

وبيانا للمطلب وتوضيحا المقام نشير إشارة لطيفة إلى بعض المفردات كالإرادة والنية:

يقول العلماء في معنى الإرادة: أن حدوث الإرادة قبل حدوث الفعل هو تصور الفعل واعتقاد النفع فيه ثم الرويَّة ثم الهمة ثم انبعاث الشوق من القوة الشوقية ثم تأكده واشتداده إلى حيثية يحصل فيه الإجماع الباعث على الفعل وذلك كله إرادة [٤]!!

فالإرادة قوة متوسطة بين القوة الشوقية والقوة الفاعلة، ويمكن القول أن الإرادة هي

الـشـوق المؤكد أو الـنـيـة أو الـعـزم.

يقول المحقق العظيم والمحدث الكبير المولى محسن الكاشاني (قده) في أمر النية:

«لا تـَحْـصُـلُ النيَّـةُ الكامِـلَـةُ الُمـعْـتَـدُّ بـِـهـا في العِـباداتِ وغَـيْـرِها إذا أريدَتْ بــِها الـقُـرْبَـةُ مِـــنْ دونِ ذلِـكَ الـمَـيْــلِ والإقْـبـالِ، وقَـمْـَـعِ ما يُضـادُّهُ مِنَ الصَّـــوارِفِ والأشْـــغـالِ، وهُـوَ لا يَـتـيَـسَّــرُ إلاَّ بصَـرْفِ القَـلْــبِ عَنِ الأمــورِ الدُّنْـيَـوِيَّــةِ، وتـَطْـهـيـرِ الـنَّـفْسِ عَـنِ الصِّـفاتِ الذَّمـيـمَــةِ الـدَّنِـيَّـةِ، وَقَـطْـعِ النَّـظَـرِ عَنِ الحُظوظِ العـاجِـلَـةِ بالكُـلِّـيَّــةِ، وتـَـوْجـيـهِ القَـلْـبِ إلَى المَوْلَـى دونَ جَميعِ ما سِـواهُ بالنـِـيَّـةِ، وَذلِكَ مَـيْـلٌ لا يَـتـيَـسَّـرُ إلاَّ لِمَـنْ نـَوَّرَ اللهُ قَـلْـبَـهُ بالـعِـرْفـانِ وَاليَـقـيـنِ، وهَـداهُ صِـراطَ عِـبـادِهِ الُمـخْـلَـصـيـنَ»[٥].

ويقول الشـيخ البهائي[٦] (قـده): «أنَّ الُمـرادَ مِــنَ الـنـيَّـةِ الصَّـادِقَـةِ انبِعــاثُ القَـلْـبِ نـَحْـوَ الـطَّـاعَـةِ غَـيْـرُ مَلْحوظٍ فـيـهِ شـيءٌ سِـوَى وَجْـهِ الله سُـبْحانــَهُ».

ومن شرائط العمل لله تبارك وتعالى النية الخالصة عن أغراض النفس وكدورات العوارض.

روى الشـيخ الصدوق رضي الله عنه بإسـناده عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال له زيد الشـحام: إني سمعتك تقول نـيَّــةُ الُمـؤمِـنِ خـيْـرٌ مِنْ عَمَـلِـهِ فكيف تكون النيـة خيرا من العمل؟! فقال عليه السلام: لأنَّ العَمَلَ إنـَّما كانَ رِئــاءَ المَخْـلُوقـيــنَ والنـِّيَّـةُ خـالِـصَـةٌ لِـرَبِّ العَـالَـمـيـنَ فَـيُـعْـطِـي عَــزَّ وَجَـلَّ عَلَى النـِّيَّـةِ مَـا لَـمْ يُـعْـطِـي عَـلَـى الـعَـمَـلِ!!

فالنيـة من أعمال القلب وهو أفضـل من الجوارح بل الغالب والحاكم عليها، فعمله خير من أعمالها بـل الآمـر والقائد لها، وقيل أن النيـة روح العمل، فخيريَّـة العمل من خيريَّة النيـة وشرِّيَّـة العمل من شــرِّيَّـة النيـة، لـذا كان كمال الأعـمال وقبولها وفضلهـا وفضيلتها راجعة إلى حسـن النيـة وخلوصها وصفائهـا وصدقهـا، إلى جانب أن شرافة العمل من شرافـة العامل له وما ينطوي عليه القلب من حبه والشـوق إليه، فمن اسـتولى عـلى قلبه حب الله تبارك وتعـالى وكان عمله على جهـة القربة المحضة إلى سيده ومولاه ومقصوده الحقيقي موافقة رضاه كان عمله خير الأعمال وأفضلها، وأما من استولى على قلبه حب ما سوى الله من مال أو جاه أو رياسة أو غيرها من حظوظ النفس ومطالب الدنيا المبعِدة عن الحق سبحانه كان عمله أقبح الأعمال وأبشعها.

عن رسـول الله صلى الله عليه وآله أنه قـال: «مَـنْ كانَ لَهُ قَلْـبٌ صـالِـحٌ تـَحَـنـَّـنَ اللهُ عَلَيْــهِ»[٧]، فإذا صلح قلب العبد وسلم من الآفات والعاهات كان من الذين يشتاق إليهم ربهم اشتياق ترحُّم وتكرُّم وعناية.

قـال عـلي عليه السلام: «قُلوبُ العِبــادِ الطَّاهِـرَةِ مَواضِـعُ نـَظَـرِ الله سُـبْحانـَهُ وتعَالَى فَمَــنْ طَـهَّـرَ قَلْبَـهُ نـَظَـرَ اللهُ إلَيْـهِ»، ونظر الله إلى العباد وعنايته بهم هو عين محبته لهم وإفاضته عليهم وشوقه إليهم.

يقول صاحب «رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين» السيد علي خان المدني الشيرازي (قده)[٨] في شرح هذه العبارة من الصحيفة: «وَامْنُنْ عَلَيَّ بشَوْقٍ إِلَيْكَ وبالعَمَلِ لَكَ بِمَا تُحِبُّ وتَرْضَى»:

«وقد يُسَمِّي أرْبابُ الطريقةِ مُشاهَدَةَ المَحْبوبِ شوقاً باعتبار أنَّ المُشاهِدَ طالِبٌ لمرتبةِ الاتِّحادِ وهو لَمْ يصِلْ إليها بَعْدُ، وأتبَعَ عليه السلام طَلَبَ الشوقِ بطلَبِ العملِ لأنَّ العملَ مِنْ لوازِمِ الشوقِ الصادِقِ، فإنَّ مِن صِدْقِ شوقِهِ إلى مَحْبوبٍ أجْهَدَ نَفْسَه في الأعْمالِ المُوصِلَةِ إليه، وبالَغَ فيما يحبُّه ويرْضاه، ويكونُ عملُه لهُ بمقْدارِ قوَّةِ شوقِه إليه، فَسَألَ عليهِ السَّلامُ العَمَلَ لهُ تعالَى مـمَّا يحبُّ ويرْضَى ليُتِمَّ صِدْقَ شوقِهِ إليهِ ويَصِلَ إلى لَذَّةِ الوَصْلِ الخالِصَةِ مِنْ ألَمِ الفِراقِ»[٩].

وفيما أوحى الله تعالى إلى نبيه داود عليه السلام: «مَنِ اشْتاقَ إلَى حَبيبٍ جَدَّ في السَّيْرِ إلَيْهِ يا داود ذِكْري في الذاكِرينَ وجَنَّتي لِلْمُطيعين وزِيارَتي لِلْمُشْتاقينَ»[١٠]!!

فطي المراحل المتتالية للتوجه الشوقي إلى الحق تعالى مسبِّب لغلبة القوة المَلَكية القدسية على القوة الحسية والشهوية ومن ثم القوة الوهمية والمتخيلة، وإذا رسخ في النفس وبلغ إلى حد المَلَكة فإنه يبعث إلى الإعراض عن كل ما يشغل عن الحق بقطع العلائق ومحو العوائق وملازمة الجد في العمل، ويكون منشأً للخوف والرجاء من الباري عزَّ وجلَّ ومخالفة الهوى والسَّلْو عن لذات الدنيا وسبيلا إلى معرفة الله تعالى ومعرفة الحقائق اليقينية والإفاضات الكشفية والودائع الخفيَّة، ومن عرف الله تعالى وأحبه واشتاق إلى مشاهدة جماله ولذة وصاله وأخلص في عبادته وطاعاته وأنِس بخلوته وذكره أحبه الله تعالى وقرَّبه إليه في مجلس قربه وكان له عند الله تعالى لزلفى وحسن مآب!!

واعلم أيها السالك إلى الله أن ظهور نور الكمالات والتجليات الإلهية على القلب متفاوت قوة وضعفا بحسب القرب من المبدأ الفياض أو البعد عنه، وبحسب ما يتوسط بينهما من قلة الوسائط وكثرتها، وجلاء مرآة القلب وكدرها، فالبعض تظهر له أنوار جميع الكمالات والبعض الآخر دون ذلك، ولاستقبال هذه الأنوار وانعكاسها على القلب لابد من صقل مرآة القلب وجلائه وتصفيته من كدورات المعاصي وشوائب التعلقات والمرادات وتزيينه بحسنات الصفات والنسُك والطاعات والرياضات المعنوية والمجاهدات.

واحذر أيها السالك إلى الله من خطر الرذائل الأخلاقية والهواجس النفسانية أن تطفئ أنوار المحبة والعشق والشوق في قلبك، أو أن تطرد الوفاء والصفاء والصدق واليقين وأي معنى من المعاني السامية والحقائق النيِّرة منه، فإنَّ أبعدَ القلوب عن الله تعالى هو القلب المظلم.

وقد ذكرنا في مفتتح بحثنا أن طي مراحل الشوق إلى الكمال المطلق لا يكون إلا بالنور المسبِّب للكشف والظهور، فكما أن نور بصر عين الظاهر لإدراك المبصَرات والمحسوسات فإن نور بصيرة عين القلب لإدراك المجردات والتجليات.

وحب الجمال أمر فطري مُودَع في جِبِلَّة كل إنسان، إلا أن شعلة نور الجمال الأزلي لا يتوقَّد في القلب إلا برفع الحجب والموانع عنه، ومع رفعها شيئا فشيئا يتجلى ذلك النور أكثر فأكثر فينير المَسلَك إلى مبدأ البهاء والجمال، ومن ثم يفيض عليه الله تعالى من أنواره وألطافه ما يشاء.

گر نور عشق حق به دل وجانت اوفتد
بالله كز آفتاب فلك خوبتر شوى
يكدم غرق بحر خدا شو گمان مبر
كز آب هفت بحر به يك موى تر شوى
از پاى تا سرت همه نور خدا شود
در راه ذو الجلال چو بى پا وبى سر شوى[11]

وفيما أوحى الله تعالى إلى نبيه داودعليه السلام: «يا داوُد إنِّي خَلَقْتُ قُلوبَ المُشْتاقينَ مِنْ نُورِي»!! فإذا وجدت قلبك مشتاقا حق الاشتياق إلى الله تعالى فهذا دليل على أنه مخلوق من نور الله.

نقل عن المرحوم السيد أحمد الكربلائيرضي الله عنه أنه قال: كنت ذات يوم أستريح في مكان ما فأيقظني شخص وقال: إذا أردت أن تشاهد النور فقم من مكانك، وعندما فتحت عيني رأيت نورا ليس له حد أو حدود يحيط بمشرق العالم ومغربه.

والواجب الوجود سبحانه هو نور الأنوار ومفيض الأنوار والأسرار، غير متناهي الشدة في نوريته الحقيقية، لم تدركه الأبصار لشدة ظهوره وهو يدرك الأبصار، ولم تُحِطْ به العقول والأفهام لسعة شموله وهو اللطيف الخبير، قال مولى الموحدين أمير المؤمنينعليه السلام عن ربه: «نورٌ يَشْرُقُ مِنْ صُبْحِ الأزَلِ»، والنور اسم من أسماء الله تعالى، بل - وكما قال سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائيرضي الله عنه في إحدى جلساته الخاصة - أن «النور» اسم سري من أسماء الله تبارك وتعالى، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بشدة ظهوره.

ثم كل جمال وكمال في الوجود بمراتبه إنما هو رشحٌ من مطلق الجمال والكمال الأزلي، وكل صورة وحقيقة ومجلى لمعةٌ من شعاع شمس العظمة والوجود الحقيقي، وما من ذرة في ملكوت السماوات والأرض وعوالم العقول والأجسام إلا ونافذ فيها نور رحمته ومحاطة بقيُّوميَّته ومقهورة تحت

سلطانه، قال تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ....﴾[١٢]!!

بـــوَد نــا محـرمـان را چشـم ودل كـور
وگـــــر نـــه هـيـج ذره نـيـسـت بـى نـور
بــخـــوان تــو آيـــه نـــور الـــســـماوات
كـه چـون خـورشـيـد يـابـى جمـلـه ذرات[١٣]

ولما كان الحق سبحانه نورا شديد الإشراق قوي الظهور استحال على العقول إدراكه فضلا عن الأبصار، ولولا انعكاس أنواره على المظاهر لم يكن سبيل للوصول إليه.

قال رسول الله ﷺ في حق ربه: «حِجابُهُ النورُ»[١٤]!!

فالحق جلَّ شأنه محتجب بأنوار عزه وجلاله وكبريائه، ولو كشف ذلك الحجاب فتجلى لخلقه ما وراءه من حقائق الصفات وعظمة الذات وسُبُحات الوجه لم يبْقَ مخلوق إلا احترق.

ولهذا لا يكون إدراك النور المطلق إلا بنور ولا يقع الكشف والظهور إلا بنور، فخلق الله في العالمين نوراً غايةً في الكمال يدل عليه ويهدي إلى سبيله ويسلك إلى رؤيته ولقائه، وكان ذلك النور المبدَع من نور عظمة المعبود والجوهرة الشريفة في خزائن الرحمة والجود والدرة البيضاء في صدف عالم الوجود حبيب الإله محمَّد ﷺ!!

عن بُرَيدٍ قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «مُحَمَّدٌ ﷺ حِجابُ الله»[١٥].

قال الحق سبحانه في حديث قدسي مخاطبا نبيه ﷺ: «إنَّكَ نُوري في عِبادِي»[١٦].

فكان أشد المظاهر نوريةً، وأكمل مجالي الحق ضياءً، وأشد الخلق قرباً إلى منبع النور الوضَّاء، ولولا نوره لم تثبت رؤية الحق سبحانه!!

ولنعرج في هذا المقام إلى طرْف من أقوال الأكابر والعظماء في بيان تجليات النور الإلهي عبر النور المحمدي عليه صلوات الله وسلامه الأبدي:

يقول العالم الرباني الفيض الكاشاني (قده) في تفسير «الصافي»:

«ومَحبَّةُ الرسولِ إنَّما تكونُ بمتابعَتِهِ وسُلوكِ سبيلِهِ قولاً وعملاً وخُلُقاً وحالاً وسيرةً وعقيدةً، ولا يتَمَشَّى دعْوَةُ محبَّةِ الله إلاَّ بهذا فإنَّه قُطْبُ المحبَّةِ ومَظْهَرُها، فمَنْ لَمْ يكُنْ له مِن متابعتِهِ نصيبٌ لَمْ يكُنْ له مِنَ المحبَّةِ نصيبٌ، ومَنْ تابَعَه حَقَّ المتابعَةِ ناسَبَ باطِنُهُ وسِرُّه وقلبُه ونفسُه باطِنَ الرسولِ وسِرَّه وقلبَه ونفسَه وهو مَظْهَرُ محبَّةِ الله، فلَزِم بهذه المناسَبَةِ أنْ يكونَ لهذا التابعِ قِسْطٌ مِنْ محبَّةِ الله بقَدْرِ نصيبِهِ مِنَ المُتابَعَةِ، فيُلْقي اللهُ محبَّتَه عليه، ويُسْرِي مِنْ باطِنِ الرسولِ

نـورَ تلكَ المـحبَّـةِ إليـه، فيكونُ مَحْبوباً لله مُحِبـًّا له، ومَنْ لَمْ يتـابِـعْـه خـالَـفَ باطِنُـه باطِـنَ الرسـولِ، فـبَـعُـدَ عَنْ وَصْـفِ المَحْبـوبـيَّـةِ، وزَوالُ المحبَّـةِ عَنْ قـلـبِـهِ أَسْـرَعُ ما يكونُ، إذْ لَـوْ لَـمْ يحبُّـه اللهُ لَمْ يَـكُنْ مُـحِـبـًّا لـه»[١٧]!!

ويقول صدر المتألهين الشيرازي (قده) في تفسيره لآية النور:

«ثـمَّ لَمَّـا كانَ أَوَّلُ مَـنْ قَـرَعَ بـابَ الاسـتـنـارَةِ بنـورِ الله وأوَّلُ مَـنْ نَـطَـقَ بـلا إلـهَ إلاَّ اللهُ هـو العَـبْـدَ الأعْلَى والعَـقْـلَ الأوَّلَ والمُـمْـكِـنَ الأشْـرَفَ والحَـقيقَـةَ المُحَمَّـدِيَّـةَ، فهُـو مِـصْـبـاحُ نـورِ اللهِ وبتَـوَسُّـطِـه يقْـبَـلُ الاسْـتـضاءةَ والاسْـتِنارَةَ جَميعُ المَـاهِـيَّـات الواقِـعَـةِ في فَضـاءِ قـابِـلِـيَّـةِ الوجـودِ، والهَـوِيـَّاتِ السـاكِـنَـةِ في هَـواءِ بُـيـوتِ أهْـلِ المَحَبَّـةِ والعُبـودِيَّـةِ لمُبْـتَـدِعِ الوجـودِ، الفائِـضِ لِنـورِ الخيـرِ والجُـودِ، فـذاتُ النَّـبِـيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ كالمِـرْآةِ المَصْـقـولَـةِ الَّتي يُحـاذِي بـها وَجْـهَ النيِّـرِ الأعْـظَـمِ، وتـُوازِي شـطْـرَ الحَـقِّ، فَتَجَلَّى لهُ وَجْـهُ رَبِّـكَ ذو الجَـلالِ والإكْرام، فَكُلُّ مَنْ صَحَّتْ نِسْبَـتُـهُ إليـهِ مِنْ فُـقَـراءِ أمَّـتِـهِ سـابِـقـاً ولاحِـقـاً انْـعَـكَسَ نـورُ الحَقِّ مِنْـهُ صَـلَّـى اللهُ عليـهِ وآلِـهِ إلـيـهِ».

ثم يقول (قده):

«وَاعْـلَـمْ أنَّ الـغَـرَضَ الأصْـلِـيَّ مِـنَ الـعِـبـاداتِ والـريـاضـاتِ هُـوَ تَـصْـفِـيَـةُ وَجْـهِ الذَّاتِ والمُحـاذاةُ بالـقُـلـوبِ الصـافِـيَـةِ شَـطْـرَ نـورِ الحَـقِّ الأحَـدِ خـلْـفَ زُجـاجَـةِ مُـحَـمَّـدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وآلِـهِ يُشـاهِـدُ نـورَ الله ويَـقَـعُ عَلَيْـهِ ضَـوْءُ مَـعْـرِفَـةِ الله».

وأمـا العـترة الطاهـرة فهـم أهل بيت النبـوة الذين هـم هـو إلا النبوة، وقـد قال رسـول الله ﷺ: «خـلُـقْـتُ مِـنْ نـور الله وَخُـلِـقَ أهْـلُ بَـيْـتـي مِـنْ نُـوري»[١٨]، وقال ﷺ: «خـلُـقْـتُ أنـا وَعَـلِـيٌّ مِــنْ نـور واحِـدٍ»[١٩]، وقـال أمـير المؤمنين عليه السلام: «أنـا مِـنْ أحْـمَـدَ كَالضَّـوءِ مِـنَ الضَّـوْءِ»[٢٠]، وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «يَفْصِلُ نورُنا مِـنْ نـورِ رَبِّـنـا كَشُـعاعِ الشَّـمْـسِ مِـنَ الشَّمْسِ»[٢١]!!

وأقول: «أشْـهَـدُ أنَّ أرْواحَـكُـمْ ونُـورَكُـمْ وطـيـنَـتَـكُـمْ واحِـدَةٌ طـابـَتْ وطَـهُـرَتْ بَـعْـضُـهـا مِـنْ بَـعْـضٍ خـلَـقَـكُـمُ اللهُ أنْـواراً فَجَـعَـلَـكُـمْ بـعَـرْشِـهِ مُـحْـدِقـيـنَ»[٢٢]!!

وأمـا نـور الولاية والإمامة المشرقة في عصرنا هذا هو نور وصي الأوصياء وحامل مواريث الأنبياء المستتر عـن الخلائق والمؤمَّل لإظهـار الحقائق ولي الله الأعظم صاحب العـصر والزمان مولانا الحجة بن الحسـن المهدي عجَّل الله تعالى فرجه وسـهَّل مخرجه وقرَّب زمانه وأسعد نواظر شيعته برؤيته وسَرَّ قلوب مواليه بظهوره.

وعـلى هـذا فإن النفس حينما تعشـق المحبوب المجـازي الذي هو من وجهٍ محبـوب حقيقي وأكمل

مظاهـر نـور الله - ونعني بذلك مَـن أمر الله تعالى بحبهم وموالاتهم وطاعتهم وجعلها سـبيلا إلى حبه وموالاته وطاعته - فهي في الحقيقة تعشـق المحبوب على الحقيقة والكامل على الإطلاق، وتشـتاق إلى لقائـه والتقـرب إليـه، وفناء الوجود في الذوات المقدسـة الفانيـة في الله والباقية بالله هـو تحصيل ملكة الانفصال عن النفس والوجودالفاني والاتصال بالحق الباقي سبحانه.

وعلى هذا وفي السير إلى الله تبارك وتعاليلابد من التوسل بوسائط الفيض والأنوار الطاهرة المطهَّرة وذلك لسلامة الحركة الشوقية واستقامتها وضمان الوصول إلى الحق سبحانه.

رضـوان الله تعالى على روح سـيدنا الأسـتاذ العلامـة الطباطبائي الذي كان ينطـق بكلمات من نور ويقـول (بـما معنـاه) أن المحـب الله إذا تجلى لـه برق من نـور جمال الحق تبـارك وتعالى عـبْر أنوار جمال المصطفى وآله صلوات الله تعالى عليهم أجمعين وأصاب ذلك البرق قلبه المسـتنير فيدرك النور المتجلي بنور قلبه ويفنى عن ذاته ووجوده ولا يرى لنفسه ولا يده ولا رجليه وجودا ولا اعتبارا بل يكون فانيا بكله في الله عزَّ وجلَّ، ويتمنى مزيد أنوار التجلي ويشتاق إلى دوام اللقاء، ويقول وهو ينطق بلسان قلبه المنوَّر بنور الحق: «اللَّهُمَّ إنـِّي أسْـأَلُكَ مِـنْ جَـمـالِـكَ بأجْـمَـلِـهِ وَكُلُّ جَـمـالِـكَ جَـمـيـلٌ»[٢٥]!!

وهل الجمال إلا النور!! وهل النور إلا الجمال!!

ولـما كان النـور المتجـلي على القلب هـو نور الحق الأبـدي فإنه مسـتمر الفيض دائم البقـاء إلى يوم الحشر.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿.... نُـورُهُـمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِـأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَـا أَتْمِمْ لَنَـا نُـورَنَـا وَاغْفِرْ لَنَـا إِنَّـكَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيـرٍ﴾[٢٦].

يقول الجنابذي في تفسيره ﴿أَتْـمِـمْ لَـنَـا نُـورَنَـا وَاغْـفِـرْ لَـنَـا﴾:

«فإنَّهم بظُهورِ هذا النورِ والصورَةِ الَمَلكوتيَّةِ مِنْ أمامِهم تشْتَدُّ لَوْعَتُهم وتَزْدادُ حُرقَتُهم وتَزيدُ طَلِبَتُهم فيَطْلُبـونَ ازْدِيـادَ الظـهـورِ واشْـتـدادَ هـذا النـورِ بحيثُ لا يَـبْـقَى لَـهُمْ ذاتٌ وأثـرٌ، فَإنَّ مَـثَـلَـهُـمْ في تِـلْـكَ الحـالِ مَثَـلُ الفَـراشِ والسِّــراجِ لا يَسْــكُـنـونَ مـا كانَ لَـهُمْ ذاتٌ وحَرَكَةٌ، ﴿وَاغْفِرْ لَنَـا﴾ الحُدودَ والنواقِـصَ المُـلْـحَـقَـةَ بـنـا المـانِـعَـةَ لَـنـا مِـنْ كَـمـالِ إدْراكِ هـذا النــورِ»[٢٧]!!

ويقول مير سيد علي الحائري الطهرانيرَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تفسيره:

«إنَّ الأنْــوارَ كَـثـيــرةٌ، نــورُ الصـفــاتِ ونــورُ الأفْـعــالِ ونـورُ العِـبــاداتِ مِثْــلِ الـصَّـلاةِ والـوضــوءِ كَمــا قـــالَ صَـلَّى اللهُ عليـهِ وآلِـهِ وسـلَّمَ: والصَّــلاةُ نــورٌ، والسِّــرُّ فيــهِ أَنَّ المُـصَـلِّي يُـنـاجِــي رَبَّــهُ ويَتـوَجَّــهُ إليـهِ، وقَـدْ قــالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسـلَّمَ إنَّ العَـبْـدَ إذا قـامَ يُـصَـلِّي

فـإِنَّ اللهَ يَـنْـصِـبُ لَـه وَجْـهَـهُ لِـلـقـائِـدِ، واللهُ نـورُ الـنـورِ، فَـالـذَّاتُ الـمُـظْـلِـمَـةُ إذا واجَـهَـتْ الـذَّاتَ المُـنـيـرةَ وقـابَـلَـتْـهـا بـمُحاذاةٍ صَحيحـةٍ فَـإِنَّـهـا تـكْـتَـسِـبُ، ألا تـرَى أنَّ الـقَـمَـرَ الَّذي هـو في ذاتِـهِ جِـسْـمٌ أسْـودٌ مُـظْـلِـمٌ كَمَدٌ كَثيـفٌ كَيْفَ يَكْتَـسِـبُ النورَ بالمُقابَـلَةِ، وكَيْـفَ يَتَفـاوَتُ نـورُهُ بحَسَـبِ التـفـاوُتِ الحاصِـلِ في المُحـاذاةِ والمُقـابَـلَـةِ، فإذا تَـمَّـتِ المُـقـابَـلَـةُ كَـمُـلَ اكْتِسـابُ الـنـور»[٢٨]!!

إلهنا!! إن كنا من الذين تشملهم بعناياتك ورحماتك الخاصة يوم القيامة ومن الذين يسعى نورهم بـين أيديهـم ونقول: ﴿أَتْـمِـمْ لَنَـا نُـورَنَـا﴾، فذلك من باب ضيق الخناق، لأنك أنت نور السماوات والأرض ونحن الفقراء إليك.

إلهنـا!! هذا النور الذي اكتسبته قلوبنا وحملناه زادا معنا إلى هذا اليـوم هو من نورك الذي أضاء له السماوات والأرض، فأتمه لنا تفضُّلا منك ورحمة إنك على كل شيء قدير.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الـحُـسَـيْـنَ مِـصْـبـاحُ الـهُـدَى».

أيها المشتاق إلى الله، النور لا يُدرَك إلا بالنور، والهداية إلى النور لا يكون إلا بالنور، ولا يمكنك أن تتقرب إلى الله تعالى بالهداية إلا بنور مصباح الهدى!!

وفي الختام نتوجه بقلوبنا إلى الله تعالى ونقول:

«إلهي فَاجْـعَـلْـنـا مِـنَ الَّذيـنَ تَـوَشَّـحَـتْ أشْـجـارُ الشـوقِ إلَـيْـكَ في حَـدائِـقِ صُـدورِهِـمْ وأخَـذَتْ لَـوْعَـةُ مَـحَـبَّـتِـكَ بمَـجـامِـعِ قُـلوبِـهِـمْ فَـهُـمْ إلَى أوْكـارِ الأفْـكـارِ يَـأوُونَ وفي رِيـاضِ الـقُـرْبِ وَالـمُـكاشَـفَـةِ يَـرْتَـعُـونَ وَمِـنْ حِـيـاضِ المَـحَـبَّـةِ بكَـأسِ المُلاطَـفَـةِ يَـكْـرَعُـونَ»[٢٩]

آمين رب العالمين!!

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

مؤلفات السيّد الدّيباجيّ الالكترونية

١ - سيماء الأولياء وكراماتهم (ج٢)
٢ - حقوق الإنسان في الإسلام
٣ - حقوق المرأة في الإسلام
٤ - السيدة خديجةؑ: مقاومة، إيثار، أسطورة
٥ - نفحات الرحمن في منازل العرفان (ج١)
٦ - نفحات الرحمن في منازل العرفان (ج٢)
٧ - القصص القرآنية (ج١)
٨ - القصص القرآنية (ج٢)
٩ - القصص القرآنية (ج٣)
١٠ - القصص القرآنية (ج٤)
١١ - القصص القرآنية (ج٥)
١٢ - التوحيد، دراسة معاصرة، الحلقة الأولى من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٣ - النبوة، دراسة معاصرة، الحلقة الثانية من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٤ - العدل، دراسة معاصرة، الحلقة الثالثة من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٥ - الإمامة، دراسة معاصرة، الحلقة الرابعة من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٦ - المعاد يوم القيامة، دراسة معاصرة، الحلقة الخامسة من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٧ - منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشرؑ (ج١)
١٨ - منتقى الدرر سيرة المعصومين الأربعة عشرؑ (ج٢)
١٩ - منتقى الدرر سيرة المعصومين الأربعة عشرؑ (ج٣)
٢٠ - الفتنة العظمى، سلسلة دراسات تأريخية
٢١ - مظاهر الفرقة بين المسلمين وعلاجها
٢٢ - الإمام المهديؑ: الحقيقة المنتظرة
٢٣ - حوار حول الإمام المهدي (عج)
٢٤ - العباس بن عليؑ بطل النهضة الحسينية
٢٥ - زينب الكبرىؑ: بطلة الحرية
٢٦ - الحج: أحكاماً وفلسفة ودعاء
٢٧ - أجوبتنا على مسائلكم الدينية
٢٨ - رسالة عقائدية (ردّ على كتاب الشيعة والتصحيح للدكتور الموسوي)
٢٩ - الروضة المنتخبة
٣٠ - أجود المناظرات (تحت إشراف المؤلف)
٣١ - القصص الهادفة من سيرة المعصومين الأربعة عشر
٣٢ - أنصار الإمام الحسينؑ
٣٣ - فضائل ومناقب عليؑ وفاطمةؑ في مسانيد أهل السنة (ج١)
٣٤ - فضائل ومناقب عليؑ وفاطمةؑ في مسانيد أهل السنة (ج٢)
٣٥ - قصص المثنوي
٣٦ - خطر الأفيون
٣٧ - زيارة الإمام الرضا سلام الله عليه